عن رائحة الشمس

رواية

محمد ناجي عبد الله

تويا

عن رائحة الشمس
رواية
محمد ناجي عبد الله
تويا

...

" "

مُحَمَّد نَاجِي عبد الله

إلى أول شمسٍ..

بِبَلدتِنَا..

تَبَسَّمَت لِتُربَةٍ آسِنَةٍ...

فأنبَتَتْ قَلبًا

العتمةُ، في الممرِّ الضيق، هي المُهَيمِنة. لا يقطع وحشتَها إلا نيرانٌ حمراءُ الوَهَج، مرتعشة، تتراصُّ في صفَّين على طول الممر، يُراقصها الهواءُ الحار. الطريقُ المؤديةُ إلى عتمةٍ أعظم، حيث "البحيرة المقدسة". مسَطحٌ من الماءِ الراكدِ، إلا من دغدغةِ الهواء، أحيانًا، ليُحرك بعضًا من الحياة بسطحها. شعلةٌ عظيمةٌ تُضيء الكهف، وما بداخلهِ من صخورٍ مُلونةٍ، لامعةٍ، لكنها لا تكشفُ عما بجوفِ البُحيرة الكتوم. أحدهم يبكي، فيصرخ، ثم يتقطعُ بكاء...

طفل...

يحبو...

يبحثُ بيديْه الصغيرتيْنِ عن شيءٍ، يتذوقُ بلسانه الدقيق ما يجده من ترابٍ و حَصَى. يهدأ، ينظرُ حولهُ مُحاولًا استكشافَ الأحجار العجيبة، والنيران الحمراء المنتصبةُ من قِدَرٍ عظيمٍ مُعَلقٍ بسلاسلَ من فولاذٍ أعلى الكهفِ... فوق البُحيرة. يقتربُ من الماء، يتسارعُ حَبْوُهُ حتى يوقفهُ صوتٌ آتٍ من الممر المظلم...

أصواتٌ عِدَّةٌ... تقترب...

و ضَحِكاتٌ تتعالى..

- **هِيي... هِيي... هوو.. هوو... فلنملأ قلوبنا قبل قدورنا، بمياه الرحمة ونور القداسة...**

يتنبه الطفل، يعتدلُ في جلسته..

- **هِيي.. هِيي.. هوو.. هوو... نمرقُ في الظلام باحثين عن النور... فدَربُ الخطايا مُعتم، ودَربُ النور قريبٌ..**

الأصوات.. التي بدت لأذني الطفل أنها دندناتٌ موسيقيةٌ.. تدفعهُ للتصفيق. يرقص في الظلام، لا يُنير رقصته سوى النيران. يُقهقه ببراءةٍ، ويقترب من البُحيرة. يغرقُ يده بالماء البارد، فتسري قشعريرةٌ بجسده، ويضحك. يتأملُ المكانَ حوله، مرة أخرى، ثم..

يتدحرج..

بالبحيرة..

لمَّا يأتِه من خلفه صراخُ أحدهم، فيربكه ليسقط..

- **"مَن سمح لهذا بالدخول؟!!... ما هذا الكائن؟!!"...**

يركضَ جماعة من اثني عشر فردًا، حاملين شعلاتهم التي زادت من ضَيِّ الكهفِ. يصرخون، ويأمرُ عجوزُهُم اثنين منهم ليلحقا الصغير قبل أن يلمسَ البُحَيرة. لمَّا سَقَطَ فيها، لَطم الباقون وجوههم، وبالويلِ توَعَّدوا الطفل، الذي لا يفقهُ قولهم. يبادلهم بالابتسام، بينما هم يلتفون حولهُ في دائرةٍ، يتفقدون ذلك الجسد الصغير... شديد البياض، ذا السطح اللامع كالفِضَّة!...

- من أينَ أتيتنا يا هذا؟!!... العينان غير العيون، والأذنان غير الآذان!!

يلمسون جلده، تعلوهم الدهشةُ، للجلد اللامع!!... والجسدُ حليبٌ، لا يغزوه ذَنْبٌ، ولا يُدَنِّسْهُ غامِقٌ.

الطفلُ يضحكُ، فيبادِلونهُ بالغضب والتكشير. أحد الاثني عشر يزعقُ في فزعٍ...

"تعالوا انظروا... البحيرة!!..."

ترتعشُ النيرانُ على القِدْرِ العظيم أعلى البحيرة... وجميعهم يركضون صوبها.

- ماء البحيرةِ تَدَنَّس!!!...

- كيف؟!

أمرَهم العجوز ألا يتحرك أحدٌ، عدا ثلاثة منهم، يأتون بالحاكم لأمرٍ ضروري... فقد تدنست البحيرة!.

أتي فوجٌ كبيرٌ، من عماليق يتسلحون بسيوفٍ تقطعُ الجِبالَ، ومُهَرِّجينَ يتشقلبون ويُدندنون بأغانٍ مُلغزَةٍ و ضحكاتٍ هيستيرية... وحامِلي العرش، حيث يتربعُ رجلٌ بَدِينٌ قاسي الملامح، غاضبُ العينين، يضَعُ أحمَرَ الشِفاه ويُضَفِرُ شَعرَهُ بحلقاتٍ من ذهبٍ خالص. يتقدمُ الفوجَ حاملو الشُعلات لإضاءة الممر، ويتبعهم من الخلف مئاتٌ من القوم... أتوا ليشهدوا الغريب الذي ظهر بالكهفِ المُحَرَّم.

- إنه مجرد طفل!!..

قالها أحدُ القوم، يُجادلُ آخرين ثاروا على من تجرأ ولمس ماء البحيرة. الهرجُ والمرجُ ازداد، والقِدرِ العظيم المملوء بنارٍ أعلى البحيرة يتأرجحُ، والطفلُ بدأ يبكي. قَرَّبَهُ أحدهم من الحاكم، ليلقي الأخير بنظرةٍ مرتعشةٍ عليه. يخشى أن يلمسهُ. يقول بأنه لم يرَ من قبلُ مخلوقًا ببياضِهِ ولمعانه. أحدُ الاثني عشر قال بأنهم وجدوه وهم آتون لملء قدور المحبة، والاستعداد لفصل الغفران، وأن الطفل قفز إلى البحيرة، يلهو ويسبحُ، يغتسل منها..

- وربما تَغَوَّطَ فيها أيضًا!!

- الويلُ لمخلوقِ النجاسة!..

المهرجون ذوو المناقير الحادة، والملابس القصيرة التي تكشفُ عن بطونهم، يرقصون ويتقافزون، يرددون..

- ابن الظلامِ، ذو البياضِ الكالِح، لَوَّثَ الماءَ المالح...

حتى انتبه الجميعُ إلى امرأةٍ، تولولُ وتندب حظها...

- الماء!!... ماء البحيرة يا قوم!!..

تذوقت الماء، وصرخت من جديدٍ. تذوق رجالٌ غيرها الماء، ارتعبوا..

- الماء... صارَ حُلوًا!!!...

- البحيرة كُلها!!... صارت حُلوة..

كانوا يغرفون بقدورِهِم الماء من البحيرة المقدسة، يتذوقونه، يجدون حلاوةً حَلَّت ملوحَتَها. يُقبِلُونَ على الشربِ أكثرَ.

انفلتت ابتسامَةٌ من فَم الحاكم. أمرَ أحد الاثنَي عشر المقربين بأن يأتيه بِشَربَةٍ مما يشربون. قبل أن يتجرَّع الماء، أزاحهُ أحدُ الاثني عشر... عجوزُهُم... وقال:

- ألا ترى ما حَلَّ بهم أيها "الأخ الحنون"؟!!

- ماذا؟!!.. ماذا حَلَّ؟!..

- انظر... يرقصون!!

كل من شَرِبَ ولو القليل من البحيرة، صار يرقصُ، يدور في دوراناتٍ هادئةٍ. كل مِن ابتُلَّ ريقَهُ بحلاوةِ الماءِ؛ أخذَ يُدندنُ، يبتسمُ للمرةِ الأولى، تفردُ الابتساماتُ عَبَسَهُم... وتُسَطحُ تجاعيدهم التي نَمَت من الحُزنِ.

شابٌّ، يافعٌ، من الاثني عشر، يهمسُ في أذن الحاكم، "الأخ الحنون"، ليصمت الأخير، تتجهم ملامحهُ، يزمجر...

- أيها الآسنُ اللعين... دَنَّسْتَ بُحَيرَتَنَا، ولَوَّثْتَ قومي... انتهت الحفلة، لا يدخلنَّ أحدٌ إلى هنا حتى يعودَ الماء المالح... وتعود القدسية!!

خرجَ الجميعُ، واحتَجَزَت العماليقُ كُلَّ من شَرِبَ من الماء الحلو، ورَقَصَ، في أقفاصٍ كبيرةٍ جُمِعوا فيها كالخِراف. المهرجون يضحكون بفجورٍ، يتشقلبون، ويُرددون خلف عرشِ الحاكم وأمامه:

- ابن الظلامِ، ذو البياضِ الكالِح، لَوَّثَ الماءَ المالح...

والطفلُ الذي- ما توقفَ عن البكاءِ، حتى خرجوا من بَطنِ الكهفِ إلى ظلامٍ أشدَّ وَحشَةٍ- أخذَ لَمَعَانهُ يخبو... حتى انطفأ... فصَارَ كالِحًا كئيبًا... يكسرُ كُل أمَلٍ يقعُ على سَطحِهِ.

****

"أَبْيَضْ"

1

" ... ... "

البلدةُ شديدةُ الوَحْشةِ، النيرانُ بالكاد تُصارع ما بها من ظلام. لا أحد يسألُ متى يحل النهار... لا أحد يعلم أنَّ هناك نهارًا. أحدهم سأل يومًا، عن تلك النار التي يُضيئون بها كل ركنٍ و كل طريق.. أحدهم.. اعترض، على ما تُنتجهُ تلك النيران من صهدٍ أذاب جبل الجليد، فأغرق المَلايين من أهل البلدة... أحدُهم حاول فقط الاعتراض... لكنه لقي حتفه، أُلقي في "المحرقة العظيمة". يومها، انطلق مُهَرِّجو الحاكم، سعوا في البلدةِ يضحكون، يقول الواحد منهم:

"تتأففون من صهد النار، وتُنكرون رحمتها بِكُم يا آفاتِ النُّكران؟!... فما تركَتْكُم في الظُّلُماتِ تتخبطون... تتأففون من الحمراءِ الدافئةِ، التي انتشلتكم من ذنوبكم السوداء ومن ظُلمَةِ بلدتكم؟"...

لا أحد يتكلم...

في "بلد الرمَّان"...

اليوم، هو يوم الغفران. النيران تشتعلُ أكثر، تتوهجُ، تأكلُ بضراوةٍ ما يُلقى في أفواهها الشرهة من "قشور رُمَّان" تحملها عرباتٌ خشبيةٌ آتيةٌ من قصر الحاكم. الجميعُ يتجمهرون، والظلام الذي لا ينقطعُ من البلَدةِ منذُ ولادتها، قائم. الحاكم يخرجُ من عباءة الكِبْر، يحاول التواضع..

- **يا قومي... ها نحنُ أولاء، نجتمعُ اليوم، لنحرقَ ما تبقى من حزائن الرمان، ونستعدَّ للعام الجديد... "الأخ الحنون"... أنا... يتمنى لكم نارًا مُلتهبة، تُنيرُ ظُلماتِكم، وتحرقُ كُل مُعتَرِضٍ أثيمٍ...**

يُمَجِّدُ المهرجون.. خلفَ الخطابِ العظيم:

"آمين... أيها الأخ الحنون"

العماليقُ تضربُ بسيوفِها على الجبال فتحيلها حجارةً و فُتاتًا.

هناك.. وسط الزحام، يتدارى أحدُهم. يُراقبُ بصمتٍ، يُنادي:

- **يا "آسنُ"... تعال، انظر القوم المجانين...!**

لا يرد..

يُلقي نظرةً حزينةً، بعينين حمراوين، جمرتين قاربتا على الانطفاء، وجسدٍ قويٍّ عريضٍ كالحِ البياض، ورأسٍ لا ينبتُ فيه زرعٌ أبدًا، تملأه الندوب وجراحٌ لا تلتئم...

يقول لصاحبِهِ ألا يرهقَ عينه أكثر، فاللون الأحمر يؤذيها. يشده صاحبه، يريده أن يرافقه، ليقتربا أكثر من الشعلة العظيمة، حيثُ ستُحرَقُ قشور الرمان القادمة من قصر الحاكم، فتتطاير رائحتها مع الدخان..

- **يا "آسنُ" لا تكن غبيًّا، أتعلم ما يحدثُ لو أنك تذوقتَ الرمان؟!**

- **لا أطيقه، ولا أريد شيئًا..**

- **اسمع.. تعالَ معي، فقط أتشمم بعضًا من الرائحة... لا أحد يجرؤ على الاقتراب مني وأنا بصحبتك..**

يغضبُ، يدفعه بقوةٍ، تاركًا إياه. ينعته الآخر بالغبي، يسبُّه، ثم يقولُ بأنه لا يرغبُ بمصاحبته بعد اليوم. "آسن" يُدير وجهه، يتمتم:

"مثلك مثلهم... لا جديد"

يصارعُ الشاب الزحام، يُحاول اللحاق بالموكب وبالقِدْرِ العظيم. يلقون بقشور الرمان، ليرقص العامة، رقصة باردة، لا غناء فيها، لا ضحك ولا حركةَ فيها، يهزون رؤوسهم يمينًا ويسارًا. لا أحد يسمح له بالرقص في "بلد الرمان" سوى المهرجين... وكل من يرقص ويُغني كَيَوم البُحَيْرَة يُزَجُّ به في السجن. ما إن اقترب الشاب من النار، وتصاعدت أدخنة الرمَّان، يُقرب أنفَه إليها، حتى ملأ صدره منها. اندفع الحراس ليوقفوه، أمرهم "الأخ الحنون" بأن يَكُفُّوا...

انتشى الشاب بالرائحة لثوانٍ... ثم... جحظت عيناهُ، صرخ من ألم يقطِّعُ صدرهُ، أخذ يسعلُ بِحِدَّةٍ، كانت آخرُ نظرة يُلقيها على "آسن" الواقف بين الزحام... ينظرُ إليه بعينيْن باردتيْن حمراويْن، والحاكم يُردد:

- لا أحد ينالَ من نصيب الرمان بعدي يا أنجاس البلدة...

يرحلُ "آسنُ"، مقهورًا. يودعُ الاحتفالَ بأسى، ينظرُ إلى السماء التي تتلونُ بالخوف. يتبعُ طريقًا آخر تنيرهُ شعلاتٌ فقيرة اللهب، مرتعشةٌ... إلى حيثُ ينتمي...

إلى "المحرقةِ العظيمة".

****

2

أمام البوابة الشاهقة، الموشومة بالرموز التي لا يفهمها إلا "آسن"، يقف الرجل، ذو العباءة الحمراء. يطرق الباب ويُنادي: "يا فنان، ائذن لي بالدخول!". يركضُ "آسن" بلهفةٍ، يفتحُ البوابة الساخنةَ قبضتها، ويرحبُ بالرجل ويُعانقه. يتجولانِ في بهو المحرقة العظيمة، حيثُ الصهدُ هو الهواء، لا يتنفسهُ إلا كُل شيطانٍ لعينٍ. "آسن" لا يَفتحُ الباب الموشوم أبدًا إلا لو أُمِرَ من "الأخ الحنون"... أو أتاه "وَدُود".

- ظننتُكَ لن تأتيني ثانيةً..

- أأنساك يا فنان؟

- كلهم ينسون... لم أقابل أحدًا هنا يتذكر.. سواك.

يتسكعان حتى يصلا إلى الغرفة ذات الرائحة النتنة. يتوقف "آسن"، يتردد، هل يصطحب خليله الوحيد إليها مرةً أخرى؟!. يُراقبه "ودود"، يربت على كتفه ويستأذنه بالدخول..

- أخاف ألا تأتيني ثانية..

- أود أن أرى..

يدخلان، حيثُ الغرفة نتنة الرائحة، وشعلاتٌ صغيرةٌ مزروعةٌ في الحوائط التي تحدهم كدائرةٍ... تسترُ عُريها بلوحاتٍ من الورقِ والقماش تكاد لا تتركُ جزءًا لا تُغطيه.

يلتف "ودود" حول نفسه، وعيناه شاخصتانِ تجاه اللوحات. يُراقبها بدِقَّةٍ، يفغرُ فاه، تلمعُ عيناه حينما تقعان على تلك اللوحة لفتاة...

- حبيبتك؟!

- أراقبها كل يوم... أحب رائحتها، أتمنى الاقتراب منها، لكن...

- أتخرجُ من هنا؟!... أيسمحون لكَ؟!

يبتسم.. يشيرُ إلى لوحة الفتاة...

- تمنيتُ أن ألمسها... لولا أن تفوح منها رائحة الرمان التي لا أطيقها...

يسعلُ "ودود"، الرائحة تزدادُ نتانةً كلما اشتعلت النار أكثر. يعتذر منه "آسن"، يقول بأن النار هنا تشتعلُ ببقايا من يُلقيهم الحاكم جراء ما عارضوه فيه. يقول بأن "والدته"، التي لم يعد متأكدًا بعد أنها أمه الحقيقية، حكت له عن اليوم حيثُ وجدوه فيه. تقول:

"لم نجد في بياضِ جلدك ولمعانه كمعدنٍ أصيلٍ، عيناك الحمراوان دفعتا القديس "رشيد" إلى الإعتقاد بأنك شيطان، وما زاد منِ الأمر، لما لوثت ماء البحيرة المقدسة. اعلم يا ولدي أننا لم نَذُق طعمًا لتلك البحيرة أشد حلاوةً من يومها، لكنك غيرت كل شيء، اعتدنا على ملوحة الماء،

وبسببك رقصنا، ذقنا طعم الفرحة... لكنك... لوثتها!"..

- أمي مسكينة، قالت بأنها أخذتني منهم وتكفلت بكل شيء، لكني لا أستطيع البقاء في بيتها، فهي بالكاد تملك قُوتَهَا. قبلتُ بالعملِ هنا، بدلًا من القتل... "رشيد" هذا قال إنَّ عَيْنَيَّ الحمراوين تجعلانني قادرًا على البقاء في النار أكثر... أشار على الحاكم أن يأتي بي إلى هنا... فأنت تعلم يا صديقي الوحيد، أن الناس هنا يخشون النار، والمحرقة- كما أقنعوني- بحاجةٍ إلى من يُدير شؤونها... هكذا ظننتُ، حتى أتيتُ، وجدتُ أن لا أحد يجرؤ على دخولها، الكل يخشاها، كما باتوا يخشونني... يمقتون ألوانها الكئيبة، تمامًا كما يمقتونني..

- ولكنك ترعرعت فيها، وأنت...

- أنا مضطر، حينما أتوا بي، لم يجدوها صالحةً لأي شيء، لا شيء سوى النار العظيمة التي تغلي في قِدرٍ كبيرٍ. لم يجدوا لي غرفة سوى هنا...

- هذه بِئرٌ يا فنان..

- هذه غرفةٌ... لم أعهدها سوى غُرفةٍ.. مكانٌ مُفرغٌ ألقي بجسدي فيه، وأبث حزني ليتخبط بجدرانه ويعود إليَّ...

كان "ودود" يتفحصُ عِينَيْ "آسن"، العينيْن اللتيْن لا تذرفان دمعًا أبدًا. ينظرُ إلى اللوحاتِ من حوله. جميعها مرسومةٌ بالأسود والأبيض، جميعها مرسومةٌ بخطوطٍ قاسيةٍ، بعضها يكاد يمزق الورقة أسفله. قطعَ شروده "آسن"، لما همس في أذنه:

"أتريدُ الخروجَ معي في جولةٍ"؟!!

لم يقوَ "ودود" على الانتظار. رافقه، حيثُ جُحرٌ ضيقٌ بالكاد يسمحُ لفردٍ بالمرور، كان "آسنُ" قد حفره في زمنٍ بلوغهِ. رائحة العَفَنِ تهربُ كلما ابتعدوا أكثر عن المحرقة. الظلام لا ينتهي، حتى تبدَّت بؤرةُ نورٍ حمراء... نارٌ أخرى. خرجا، إلى الجزءِ الأكثر زحامًا في البلدة...

- منذُ أن أتوا بي إلى هنا، لم أشهد مكانًا في بلدتكم يحوي كل أولئك القوم... عدا يوم الغفران:

- ما هذه الرائحة؟!!..

"فتيات الرمان"... أو هكذا أطلق عليهم "آسن"، ليرد "ودود" بأنهن "عاهرات البلدة". يتأفف "آسن"، يغضبُ، يقول لا عاهرات طالما حبيبته فيهن. يضحك "ودود"، ويُكملان السير وسط زحامٍ شديدٍ، لا أحد يسأل من أين أتى الاثنان، ولا أحد يُلاحظ "آسن" العجيب يسير بينهم. يصلان إلى صفٍ طويلٍ، والكل ينتظرُ الدخول إلى صرحٍ ضخمٍ، يقفُ على بوابته أحد عماليق "الأخ الحنون"..

- أنا لم آتِ إلى هنا من قبل!!

يتعجب "ودود"..

يتعجب أكثر، من وجود أحد العماليق في مكانٍ كهذا. يقول "آسن" بأن مكانهم الطبيعي هو هنا، حيث تزدهر الأعمال.

دخلا، من طريق آخر مخفي، كما فعلا أثناء الخروج من المحرقة. حيثُ كانت رائحة الرمان في الداخل هي الأكثرُ سطوة، بقيا. كلما سأل "ودود" عما يُبقيهما كل هذا الوقت، يرد "آسن" بأن حبيبته آتية، هي تأتي كل يوم إلى تلك المنضدة، تجلسُ على فخذيْ أحد الذين يدخلون هنا، وتفعل

أشياءَ لم يفهمها "آسن"... حتى أمسكت به منذ أيامٍ يتفقدها. تركت زبونها، وباغتت الفنان من الخلفِ.

- هنا، اختطفتني تلك العجيبة، وغطت عينَيَّ وقادتني إلى مكانٍ مظلمٍ هنا... حتى إني لم أكن أعي أنه هنالك ما هو أكثر ظلمة من سماءِ بلدتكم...

- وماذا بعد؟!!...

- لا شيء... اسمع... كانت تفعلُ معي ما فعلته مع الرجل على المنضدة... تعبثُ بيدها في الأسفل... وكنتُ لا أعي شيئًا، حتى أحسستُ برمحٍ يتصلب...

- ماذا؟!!... لا تُكمل...!

- اسمع، أنا لا أعرف ما هذا... لكن... من الواضح أنها كانت سعيدةً... ولما خرجنا، قالت بأنها ستسعد لو رأتني مرةً أخرى، وتركتني... أنا لا أفهم..!

- أنت غبي..!!

- لا... بل.. أنا فقط أحيانًا أشعرُ أنِّي لا أنتمي إلى تلك البلدة..

كان الجميعُ يرقصون ويُغنون. و"آسن" يسألُ "ودود" في استغرابٍ، عما يُجَرِّمُ الرقصَ والغناء في الخارج، بينما هنا الجميع لا يفعل سواه. كان الصديق يرد بأنه لا يدري، ولم يعد يدري عما يدور ببلاط "الأخ الحنون" سوى أن كل ما عليه فعله هو أن يدعو صغار السن من قوم الرمَّان إلى طريق النور، وأن يدعوهم لتمجيد النار التي منها يتدفأون.. ومنها يستنيرون في طريق الضلال.

طال انتظارُ "آسن"، لم تأتِ الحبيبة. كان "ودود" يتلفت حوله في خوفٍ، حتى لمحَ أحدهم يجالسُ عاهرةً. يلكز "آسن" لينظر، فيشير إلى الجالس، الذي يرتدي عباءةً حمراء تمامًا كالتي يرتديها...

- ما الذي أتى بهذا العجوز الخرف هنا؟!!

العجوز، من جماعة الاثني عشر، يجالسُ عاهرتين. قال "آسن" بأنه اعتاد رؤيته هنا، يفعل ما يحلو له، ولا يحق لأحدٍ أن يعترضه... وقبل أن يُكمل... أتى مُنَادٍ من الخارج... أحد المهرجين...

- زائرٌ جديدٌ... لباسُهُ من جَريد... وقلبُهُ من حديدٍ... يقفزُ إلى أحضان المحرقة!!

يتوترُ "آسن"، يتركُ صديقهُ ويركض... هاربًا من نفس الطريق حيثُ أتى. الجميع يركضون، تركوا ما بأيديهم، وإلى المحرقة يهرعون. الجميعُ يُرددون "زائرٌ جديدٌ... مجنونٌ جديدٌ"، ويضحكون بفجورٍ.

هرب "آسنُ" من الممر الخلفي. ركض حتى جُرِحَت قدماهُ، يُحاول الوصول إلى ثاني رجلٍ يأتي المحرقة خِلسةً، ويقفز. كانت البلدة تجتمعُ في ثلاث حالات... أما أولها، فهو يوم الغفران، وثانيها فهو يوم الأخبار العظيمة، حيثُ يُصَرِّحُ "الأخ الحنون" بفضيحةٍ ما، ثم يأمر مُهَرِّجيه بإلقاء اللوم على "آسن"... وعادة لا تُزاعُ الفضائح في بلد الرمَّان إلا إن حدث ولوحظ أن أحدهم يمشي في الطرقات يرقصُ ويُغني. متى ما بدأ الناس يبتهجون ولو لقليلٍ من الوقت، صاروا ينظرون إلى السماء الغامقة، وبدأوا يُفكرون... وهنا... يُؤمرُ بحبسِ كل من قام بذلك... بينما ينشرُ المهرجون أكاذيبهم وضحكاتهم الفاجرة بين الناس، كي ينالوا انتباههم... فلا ينظرُ أحدٌ إلى السماءِ أبدًا.

- زائرٌ جديدٌ... لباسُهَ من جَريد... وقلبُهَ من حديد... يقفزَ إلى أحضان المحرقة!!...

رددها الناسُ في الطرقات، يركضون صوب الباب الموشوم، لا يجرؤ أحدهم على لمسه... فالنارُ حارقة... وهنا... هي المناسبة الثالثة، حيث يجتمعُ هذا الكم منهم.

على الجسر العريض، الصخري، الذي يربطُ بين فوهة المحرقة العظيمة والبوابة المؤدية إليها... هَرْوَلَ الزائر. قصير القامة، دائري الهيكل، رخو الجسد، تتدلى أعضاؤه وترتطم ببعضها. يشقُّ بطنَهُ جرحٌ مخيفٌ، فيُفرغُ ما به من أمعاء... يُحاول لملمتها وهو يهرول. تتزايد سرعته، لمَّا يجد "آسن" خلفه، ينظرُ إليه الأخيرُ بعينيْن باردتيْن رغم احمرارهما... والرجلُ يبتسم. يركضُ "آسنُ" بسرعةٍ لم ينافسهُ فيها أحدٌ من قوم الرمَّان، ليرتبك الرجل من سرعته، ويسقط...

- اتركني... اتركني أرجوك!!
- اسمع.. تركتُ مَن قبلك، لن أتركك حتى تُخبرني...
- لا وقت... أرجوك أعتقني... حررني... ال-.. ال-..
- لن أفقدَ شخصًا آخر في تلك المحرقة اللعينة.... مَن أنت؟!!... لماذا تفعلون كل هذا؟!
- لا وقت... أمعائي تتساقط... أجزائي تتلاشى..
- مَن أنت؟!!

الجميعُ بالأسفل يُهللون، يُصفقون للعرض الجديد. "الأخ الحنون" يُراقب من البرج العالي، حيث يرى الجميع ولا يرونه. المهرجون يتشقلبون، يرددون ذات الجُملة، يذوبونَ وسط الزحامِ، وينثرونَ رذاذ الرمان.

"انظروا... ابن الظلام، الأبيض الكالح، لوَّثَ الماءَ المالح... يُمسكُ بالزائر الجديد، ويمنع عنكم البهجة والاحتفال... اتَركه أيها الآسن... فدربُ الخطايا مُعتم... ودرب النور قريب"..

صاح الناس بالأسفل وهم يُراقبون، صاحوا بـ"آسن" أن يترك المسكين ليخلص نفسه من الملامة، ويتطهر من الذنب... بينما الاثنان بالأعلى، لا يسمعون سوى الصراخ..

- أترى؟!... هم يصرخون لأجلك... لا تقفز...
- أنت لا تفهم شيئًا... الأرض.. ليست كروية..
- ماذا؟!
- الأرض ليست كروية... لم تَكُن يومًا كروية.. أرجوك، اتركني أذهب إلى شمسي... قبل فوات الأوان..!

"عن أي شمسٍ يتحدث؟!... سمعتُ تلك الكلمة من قبل!!"

قالها "آسن"، وهو يتأملُ عينَيْ الرجل الجريح، ووجهه الذي شَحُبَ عن دقائق مرَّت. باغته أحدهم بقطعةِ صخرٍ ألقاها على وجهه من الأسفل، أفقدته توازنه، فترك الرجل... ليمضي راكضًا، بكل ما أوتِيَ من قوةٍ، نحو الفوهة الملتهبة. وَسِعَت ابتسامتُهُ وجهه- الذي كان حزينًا- لما لَفَحَهُ صهدُ الفوهة.. ومع الاقتراب أكثر حتى بات على شفا الهُوَّةِ... التفتَ إلى الخلف... وقتها... عَلِمَ "آسن" أنه لا فائدة، اعتدلَ في وقفته... حتى قال الرجل: "شكرًا لك"..

نظر "آسنُ" إلى القطيع المجتمع بالأسفل. يُهَللون ويصفقون، والمهرجون يسلبون أبصارهم من

جديدٍ، بحركاتهم وضحكاتهم الفاجرة... بينما نظر "آسن" إلى السماء، التي ازدادت خوفا... السماء التي لا ينظرُ إليها أبدًا "قوم الرمان"..

- "عن أيِّ شمسٍ يتحدثون"؟!...

****

3

لا ملجأ آخر له سوى تلك الغرفة، التي كانت من قبل بئرًا، تمتلئ بماءٍ حلو المذاق. لمَّا اعتاد الناسُ شربَ الماء الحلو، واعتاد الحاكم- الذي بات "الأخ الحنون"- على عصير الرمان الفاخر، الذي تزايدت قمامته وقشره... تخلصَ من أطنانٍ من قشر الرمان، التي عفنت، بإلقائها فيه. تشربت قشور الرمان الماء، حتى عَطش الناس. امتلأت البئرُ حتى ما عاد قشر الرمان يُداري عفنه أكثر... حيث ثار الناسِ للمرة الأولى... وحيث أيضًا... ذُبحَ الملايين منهم بوحشيةٍ، في تلك الحربِ التي ما تركت شيخًا أو صغيرًا، رجلًا أو امرأة، إلا ودفَع ثمنها. أُلقِيَ بجثث القَتلى في البئر، لتُحرَقَ مع قشور الرمان الحامضة، فكانت أدخنة الفضيحة قاسية... متحجرة، غامقة... اشتعلت، ففَجَرَت. النار المستعرة لم تنطفىء إلا بعد أن أهلكت معالمَ البلدة، وقتلت المزيد. تسربت من البئرِ لتشمل كل أثرٍ من آثار الرمَّان في البلدة، كل بيتٍ حَوَى رمانًا. النار الغاضبة، لم تكتفِ، ولم تشبع من الناس... حتى أهلكت زمرةً من حراس الحاكم، أحرقتهم... لكنها لم تكن كافيةً لقتلهم. شوَّهت وجوههم، فصارت أنوفهم كالمناقير، أذابت جلودهم وتركت عظام الوجه عريانة، مقززة... وأحرقت ملابسهم الملونة... حتى قَصُرَت لتُعَرِّي بطونهم المنتفخة، التي ما شبعت أبدًا.

النار التي، ما تركت أدخنتُها حيزًا إلا وخَنَقَتْهُ... انطفأت، وكل شيءٍ انطفأ معها.. حتى البَسمة. في ذاك الوقت، كان الحاكم يميلُ إلى المكوث أكثر، حيثُ أعيدَ بناء كل رقعةٍ من قصره، من حجارةِ البيوت المهدومة... وأُشعِلت كل شعلةٍ تنير القصرَ... بأشلاءِ الجُثثِ. عندما احترق جماعةٌ من اثنيْ عشر فردًا من شُعراءِ الحاكم المقربين، هلعوا يَجْرُونَ بين الناسِ وحروقهم تزدادُ غضبًا، ترسمُ شتى أنواعِ العذابِ على أجسادهم... لا أحد يقترب منهم، لا أحد يحاولُ إطفاءهم. هلعوا إلى الكهف... حَيثُ وجدوا، للمرة الأولى، البحيرة التي كانت تُغذي البئرَ بالماءِ الحلو. فورَ أن رآها عجوزهم... صاح:

- كنا على شفا حفرةٍ من الهلاك... والقدير يمد لنا يد العون...

قفزوا جميعًا بالبحيرة... يتمرغون ويغسلون جلودهم... التي... بدأت تعود بالتدريج إلى شبابها وصحتها... بينما، تركت الجَلَخَ وبقاياها المُجَعَّدة الميتة بالبحيرة... فَمَلُحَ ماؤها..!

خَرَجوا منها سالمين، يتبادلون النظراتِ الفَرِحة. أحدهم تذوق الماء الذي كان حلوًا... لِتُمْقِتهُ ملوحته ويبصقهُ...

- هذه معجزة... أننا لم نَفنَ مثل القوم الظالمين... المعارضين. كُنَّا على صواب يا إخواني، اسمعوني جيدًا... لقد كان القديرُ يرعانا منذ أن اندلعت تلك الحرب الشعواء، كان يرى بعين الرأفة، لقد أحرَقَ الكثيرين من القوم، ولو أرادنا معهم لفعل... لكنه... لكنه اصطفانا... ربما فقط، أراد أن يطهرنا من ذنوبنا، ربما اصطفى اثني عشر وقادهم إلى تلك البحيرة... أجل.. البحيرة المقدسة... ألستم معي؟!!... تلك رسالة... و..

- ولكن يا كبيرنا... البحيرة لم تكن مالحةً... لقد كانت...

- أما زلتَ تجادلُ يا فتى؟!!... أنت أصغرنا ومع هذا شَهِدت معجزة الموت...

- البحيرة كانت حلوة...

اهتاج العجوز، نظر إلى باقي الأفراد، يستحلفهم بعينيه أن يصدقوه. لم يَذُق أحدهم البحيرة، سوى الفتى والعجوز، لمَّا كان الاختيار بين أكبرهم وأصغرهم... اختاروا أن يصدقوا قول العجوز... القول الذي صار أسطورة بلد الرمان مذ ذاك اليوم...

"لقد عذبنا القدير بذنوبنا... ولمَّا تكرم علينا بنظرةٍ، وتأمل حالنا بالرحمة... بكى لأجلنا... القدير بكى لأجل اثنيْ عشر رجلا من الصالحين... قادهم إلى كهفٍ ناءٍ... وبكى، لتتساقط دموعهُ على الجبلِ... تشقُّ طريقها عبر صخوره، حتى تحطّ على حفرةٍ كبيرةٍ... شكّلت بحيرةً مقدسةً... أطفأت نارنا... وأنهت عذابنا... وستنهي عذاب قومنا كل عام".

لمَّا خَرَجوا من الكهفِ، كانت السماءُ غضْبَى، كظيمٌ لونها، خَمَرَ الدُّخانُ جمالها، وأرْكَسَ بهجتها. كان كل شيءٍ متشبعًا بالدَّنَس، والناس بالطرقاتِ يجلسون، يندبون حظوظهم... يقولون: "ليتنا تركنا الحاكم يشربُ الرُّمَّان"... وبينما تعالت أصواتُ النساء والبنات، كانت أصواتُ الرجالِ والولدانِ بالكاد تُسمَعُ. مات أكثرُ الرجالِ والصبيان في حربِ الرمَّان، وما حَمَى النساءَ من الحريق أنهن كُن يبقينَ في بيوتهن، لا يخرجنَ إلا لقضاءِ حاجةٍ لبعولتهن. كان يُمنَعُ على أي امرأةٍ أن تخرجَ أو تمتهن أي مهنةٍ في تلك البلدة. لمَّا خَرَجنَ بعد الحريق الكبير والحرب، وجَدنَ أنهنَّ لم يتعلمن أيَ شيء، لم يَعرفنَ حقيقة البلدة أو يعرفنَ من أينَ يَجنِينَ أرزاقَهُنَّ... وجدنَ أن الحياة قاسيةٌ، خارج جدران البيوت. وجدنَ أن النساء في تلك البلدة لا يُجِدنَ سوى شيءٍ واحدٍ... وهو ما لم يَفعلنَ سواه منذ اللحظة الأولى لخروجهن من البيوت، التي لم يعُدْنَ إليها ثانية!.

كان هنالك منزلٌ، كبيرٌ، وكان اللون الأصفَر يطلي حجارته.. بل إن.. حجارته كانت صفراء الأصل. بناه عماليق الحاكم من حجارةٍ أتوا بها من الكهفِ، حيثُ البحيرة المقدسة. في الكهفِ أحجارٌ ملونةٌ، لم يُرى مثلها في أيِّ مكانٍ حتى خارج أسوار بلد الرمَّان. الحجارة الصفراء تعكسُ الشمس، التي كانت- قبل الحريق- بالأعلى، فتضفي طابعًا ذهبيًّا، يسرق الألباب، ويخطفُ الأعيُنَ، فكان المنزلُ الأصفر مقامًا لِشُعراءِ الحاكم، يتغزلون في جماله، وتُقام فيه المآدِبُ ويؤتَى من كلِ امرأةٍ شكلا ولونًا، لإمتاعِ الحاكم. بعد الحريق الكبير، أخفى الدخانُ اللون الأصفر، طلي المنزلُ بالأسود، و تهَدَّمَت بعضُ أركانه... لكنه ما زال للمتعةِ قائمًا. بعد الحريق الكبير، أطلقَ الحاكِمُ مُهَرِّجيه بالطرقات والشوارع، يصيحون في النساء والبنات التائهات الضائعات...

- الأصفَرُ ملجأكُنَّ... الأصفرُ ملاذكنَّ... الأصفرُ حيثُ تُقَسَّمُ أرزاقكُنَّ...

كانت تلك نصيحةُ عجوز الشعراء الاثنَيْ عشر، لما سُئِلَ عما يمكن فعله بكل تلك النسوة، واستساغ الحاكم رأيه..!.

استقرَّت الأمور، في البلدة التي لم يُغادرها دخانُ الفضيحةِ أبدًا، وسوادُ النكسة التي حلَّت، ظهرَ الحاكمُ بعباءته الجديدة... يخطبُ في شعبِهِ...

"يا قومي... لقد مررنا معًا بأزمةٍ حادةٍ... فتنة أهلكت بلدتنا، وفرَّقَت شملنا. يا قومي إنَّا خَسِرنا في تلك الحرب الطاحنة أفضلَ رجالنا وصبياننا، وأقول، إننا سَنَمُرُّ بسنواتٍ عِجافٍ ريثما نعود كما كنا، وريثما تعود الشمسُ من جديدٍ. منذ هذا اليوم أنا لستُ ب-"حاكمكم"... أنا "الأخ الحنون"... لا أقول الأب... وإنما الأخ... أنا أقربُ إليكم من أمهاتكم وآبائكم... وأقول لكم، إنَّ ما كان سببًا في دمارنا، وهو الرمَّان... سيكون سببًا في بقائنا أحياء وأقوياء بين البلدان الأخرى...".

أصدرَ قرارات بأن كل امرأة في البلدة عليها أن تعمل، فأيام المكوث في البيت قد ولَّت. النساء لا

يُجدنَ سوى عملٍ واحدٍ في تلك البلدة، فرَضِينَ بالعملِ كعاهراتٍ بالبيت الذي كان أصفرَ زاهيًا. أصدر قرارًا آخر، بأنٍ زراعة الرمَّان ما زالت قائمة، بالأراضي الخضراء الشرقية... حيثُ الشمس ما زالت بهيجة بالسماء... وبأن... كل ما سيتكسبونه من زراعة المحاصيل، سيُستَغَلُّ في التسَلُّحِ للحرب على أعداءِ البلدة. كان هذا التقليد يجري في كل عام. يزرعون طوال العام محصول رَمَّان عظيم، يأكل منه فقط "الأخ الحنون" وكل من ينال من محبته نصيب... والباقي يُعَدُّ به العِتاد والجيش، لخوضِ حربٍ عظيمةٍ... "حرب الرمَّان"... التي لا تنتهي أبدًا.

جلس "آسنُ"، يتأمل لوحاته. يتذكر وحدته، وعزله إلى تلك المحرقة الموحشة. الرائحة تزدادُ نتانة هنا، و"آسن"، الذي لا يذرفُ دمعًا، وأخذ لونه في التغير إلى أبيضَ أكثرَ تُرَابِيَّة، كان يُفكِّرُ في تلك الكلمة، التي لا ينطقُ كُل زائرٍ من الزوار المنتحرين في المحرقة سواها...

"عن أي شمسٍ يتحدثون؟!... ما تلك الكلمة؟!"

حتى تذكر ما قاله لـ"ودود"... لمَّا سأله الأخير عمَّا يتمناه عدا المكوث في تلك المحرقة اللعينة.

"أنا لا أنتمي إلى هنا يا ودود... لا أشبههكم، لا لوني ولا شكلي... أنا أرقصُ، فيتهمونني بالجنون... أغَنِّي، فيلعنونني لأنِّي أعَلِّمُ أبناءهم "السحر والترانيم" كما يدَّعون... لا أحد ينظرُ إلى سمائِكم الكئيبة غيري، لا أحد يتساءل عن لونها، لا أعرف إن كانت للسماءِ ألوان أخرى، لكن، أنا فقط... أخافها يا "ودود"، لماذا لا ينظرُ هؤلاء الملاعين إليها مثلي؟!... ويرون ما أراه؟!!.."

لا يُعيره أحدٌ اهتمامًا، ولا يفهمونه، فكان يرسمُ ويرسمُ ويرسم... يسردُ آلامه ومخاوفه في الغرفةِ النتنة... في صمتٍ.

****

4

...

دائرة، عريضة، سوداء، على أحد جدران البئر الدائرية...

كانت تلك اللوحة الأولى.

"آسن"، الذي ما كانَ آسنَ قط، لمَّا أتوا به إلى ذلك المكان الكئيب، كان لا يزالُ صبيًّا، له عينان وأذنان فقط، بوجهٍ يخلو من أنفٍ وفم. يغطي جسده- الذي بَهُتَ لونه كثيرًا عما بعمرٍ أصغر- قماشٌ أبيضُ متسخ. لا أحد من أهل البلدة أو عماليق الحاكم كان قادرًا على الدخول منٍ بوابة المحرقة الموشومة، فكان الطريق الوحيد لدخولها هو طريق البحيرة المقدسة، حيثُ مجراها الذي يوصلُ إلى بئرٍ عرضها أمتارٌ، جَفَّت، بعد حادثة الرمان. فَوْرَ أن دخلوا الممر، بدأ "آسنُ" يَحُك وجهه، وكلماً اقتربوا منِ البئرِ أكثر، ازدادت الحكة، وازداد ألمُ الصبي... حتى وصلوا إلى فتحة البئر من قاعِها، فتَفَشَّتْ أكثر الروائح عفونةً في المكان، حيثُ بالكاد سد الحُرَّاس أنوفهم... بينما... كانت تلك المرة الأولى.. التي نَبَتَ فيها، بوجه "آسن"، شيءٌ دائريٌّ ذميمٌ، شكله يعيبُ تكوين وجهه...

نبتت له للمرة الأولى أنْف...

- يا رفاق... انظروا الآسن اللعين...

- اتركوه هنا ولنرحل، أخشى أن أتلمس قطعةً مني فأجد وباءَه قد نبتَ بي!!

زجُّوا به، ورحلوا...

بَقِيَ مدة، لا يعلمُ قدرها، في تلك البئر. ينظرُ حوله، يكادُ من الفراغ أن يُتِمَّ عَدّ كل حجرٍ بُنِيَت منه البئر من القاع صعودًا إلى أعلى... حيث القمة... حيثُ لا شيء سوى دائرةٍ بعيدةٍ، ظلّت بذاكرته حتى كاد يُجَنّ.

حاول تسلق البئر، وكان الفشلُ صديقه الوحيد. لم يكن أمامه سوى أن يسلك الطريق الذي أتى منه. خشيَ أن يأخذَ الشعلة الوحيدة التي تركوها له، فلو انطفأت لمات هنا خوفًا. سلك الطريق من البئر المؤدية إلى البحيرة، يتخبطُ بأشياء ومخلوقات لا يدري عنها سوى العَضِّ والجروح التي سببتها له، لا يقدر على الصراخ بوجهٍ بلا فَم!. النور الأحمر، الآتي من الشعلة العظيمة بدأ يقترب من جديدٍ، حتى وصل... ليجد الشبَّاك الحديدي الذي يفصله عن البحيرة... مُغلقًا!.

عاد من حيثُ أتى، بجروحٍ أخرى، يدوس على ذات الأشياء التي كان يسمع تكسيرها، حتى عاد إلى البئر. أمضى مدة طويلة من جديدٍ، لا يدري عنها شيئًا، ولا أحد يأتيه. الرائحة تزدادُ نتانة، وأنفُهُ الذي نبت يزداد قُبحًا ويتضخَّم... حتى اعتاد على الرائحة، وتوقف أنفُهُ عن التَضَخُّم..!

مدَّة أخرى مضت، كسابقها. هذه المرَّة، أخذ الشعلة، سلك الطريق المؤدية إلى البحيرة. هذه المرَّة، رأى ما جحظت عيناهُ لأجله. جثثٌ محروقةٌ، مُلقاةٌ على جانبيْ الممر، داسَ على ما داسَ منها، وهشَّمَ ما هَشَّم، والفئرانُ التي جرحتهُ وعضَّتهُ، خَشِيَتْ النّار، تمامًا كما يفعلُ قوم الرمَّان، وهَرَبَت. "آسنُ" لا يذرفُ الدمع، لا يخاف النار ولا يخاف الأجساد المتفحمة... فقط... يتحسسها بيده، ويتأمل اللون الأسود الذي صَبَغَتهُ بها. تتفتت بين أصابعه، وبعضها جامدٌ، قاسي السطح. يحمل لدى عودته بعضًا منها، ثم يضيءُ أركان غرفته الأبدية الجديدة، البئر النتنة، ليجد بقايا جثثٍ متحجرةٍ متفَحِّمةٍ. يتكئ على أحد حوائط الغرفة، يجلسُ من التَّعَبِ ويُخرِجُ ما أتى به من حجرِ الفَحم من الجُثَثِ. يوجِّهُ الشعلة إلى الحائط المقابل، ثم ينظرُ إلى أعلى البئرِ... يرسمُ بالفحم عليها، دائرةً بعرضِ جَسَدِهِ. ينظرُ من جديدٍ، إلى الأعلى، يغضب... ثم يرسمُ دائرة أخرى، أكبرَ حجمًا. يتأملُ حالهُ، والسكون الموحِشِ من حوله، يتنفسُ بصعوبةٍ، تجحظُ عيناهُ... يُحاول الصراخ... يُحاول... يُحاول..

حتى ينبتُ له... فَمٌ..كبيرٌ... بأسنانٍ حادةٍ، فيصرُخُ ويَسْعرُ... للمرةِ الأولى منذ أن وُجِدَ في الحياة.

****

5

...

فأسٌ وسَيفٌ... وحَجَر.

في رحلته الثانية، بحثًا عن طريقٍ للخروج من البئر، وجد بينَ الجُثَثِ فأسًا سَوَّسَ مقبضها الخشبي السُّوسُ، وسيفًا نصلهُ حادٌّ كأنه جديدٌ. أخذ كليهما، ركضَ في الممر الذي بات يحفظهُ حتى في الظلام، ولمَّا وصل للشبَّاك الحديدي، ضرب بالفأسِ وقتًا، حتى كادت الفأس تَبْلَى... لكن سبَقَهُ الشّبَّاك. المرة الأولى التي يشم فيها رائحة أخرى، ويرى، أشياء عجِبًا. كان أوَّل ما رأى حِجَارَةً بأحجامٍ شَتَّى... وألوانٍ زاهيةٍ، رغم الظلام. الشعلة العظيمة، المُعَلَّقة في القِدْرِ المُسَلسَلِ أعلى البُحَيرة تُلقي بنورها على الأحجار... فتَقلِبُ الأزرقَ بنفسجًا، وتُشعِلُ الأحمرَ منها درجات، وتُكسِبُ أصفرَهَا سطوة الجحيم، وتعكِسُ جمالها الحقيقي على سطوح الأحجار الشفَّافَة. يقفُ مشدوهًا، أمامَ عظمَةِ الألوان، التي لم يَرَ مثلها في أي مكان. يتفقَّدُ كل شَبرٍ منها، ويتذكَّرُ أن تلك التكوينات اللونية، هي أول ما وقعَ أمام وجهه... لتتبدَّى من الظُلمةِ أنوارٌ ملونةٌ، منعكسةً منها على وجه الطفلِ الذى كان يحبو... وتتشكَّلُ للمرة الأولى له... عينان. عينان مرسومتان بعِناية،

تلونتا بالبنفسج أولًا، ثم نظر للحجارة الصفراء التي عكست البرتقالي، فأكسبت عينَيْهِ لون الانعكاس... حتى انتهى بالنظر إلى الحجارة الشفافة، الكريستالية، حيثُ عكست الأحمر، الملتهبَ، من الشُعلةِ العظيمة أعلى البحيرة... فكانت عيناهُ أكثر حُمرةً.

خَرَجَ من الكهفِ، إلى ظلام المدينةِ، مُتَّشِحًا بقماشٍ لامعٍ، وَجَدَهُ مُلقى يُغطي إحدى الجثث المتفحمة. خَرَجَ للمرةِ الأولى بينَ الناس، يتأملُ حالهم. يتسللُ بين زحامهم الخامل، لا أحد تظهرُ عليه أماراتُ السرعةِ أو النشاط. مجموعاتٌ راكدةٌ توزعت في الطرقات، يجلسون بلا حراكٍ، أو يتسامرون عنِ كُلِ شيءٍ... ولا يصمتون أبدًا. بعضهم يحملُ شُعلة، مقبضها مطعَّمٌ بالذهب، يرتدي عباءةً تشبه تلك التي تلف جَسَدَ "آسن"، فيمشي في الظلام بارزَ الخُطى... يتبعهُ زمرة من العراةِ، بالكاد يستنيرونَ بنورهِ، ويتدفئون بدفء شعلته، وإذاَ تجاوزَ أحدهم الحد واقترب أكثر، تحرقهُ نارُهُ، فيعود إلى الوراء قليلًا... يتبعون نوره حتى لو انكشَفَ عُريُهُم في ذات النور.

البعضُ الآخر، يحملُ شُعلةً مقبضها من خشبٍ، يسيرُ بينَ الناسِ، لو اقتربَ من أحدهم هَمُّوا بِهِ. يلتفون حوله، آتينَ ببعض الجريد والأوراق، يعملونَ منها شِبهَ شُعلةٍ، فيشعلها لهم... لتصمدَ الشعلةُ البَخِسَةُ قليلًا، فيفرحون بها، حتى تأكلها النار وتحرق الجريد والورق... فيَغرَقُوا في الظلمةِ مرةً أخرى.

الشعلة التي كان يحملها "آسن" مصنوعةٌ من عظام. عظام كانت متبقيةً من إحدى الجثث التي لم تمسها النار. ويشعل نارها بحجارة فحم من جثةٍ أخرى في الممر. كلما رآهُ أحدهم، وسَلبَت لُبَّهُ قوة النار التي تنبعثُ منها، يقترب منّه، يحاول تفقُّده، فيطرده منظرُ وجه "آسن"، حيثُ الأسنان الحادة والأنفُ القبيح الكبير. بعضهم، كان يُحاول استدراجه بالحديث، اطمأنوا له لوجود تينك العينين الجميلتين الحمراوين... كُلٌّ رأى فيه ما أراد، وكُلٌّ عامله بما رآه...

- أعطني مما أعطاكَ تلك العباءة...

عجوزٌ مُشَوَّهٌ، جالسٌ على الطريق، عارٍ لا يسترهُ إلا الظلام. التفت "آسنُ" بالشعلةِ يُحاول استكشافه، ليُدَارِي العجوزُ عُرْيَهُ ويبكي... يقول "اعطنى مما أعطاك تلك العباءة"... لم يفهم "آسنُ"، خلعَ العباءة وغطاهُ بها. رَمَقَهُ العجوز بنظرةِ انبهار، سرعان ما انقلبت حزنًا... وقف بصعوبةٍ على ساقين هزيلتين، بكى...

- ما الذي أتى بآسنِ الوجه طيِّب القلبِ إلى بلد الرمان؟..

التفت الجميعُ حوله، كل من لديه شعلة وجَّهَها صوب الصوت العجوز. "آسنُ" كان عاريًا، لم يَعُد الظلام ساترهُ تمامًا كما العباءة. الجميع يتفقدهُ، يتفقدون هيئته ووجهه. الجميع يتكلم ويثرثر، لا يتوقفون أبدًا... و"آسن" يتوتر، يفعلُ الشيءِ الوحيد بفمِهِ الذي أجاده وقتها... الصراخ!. صرخَ بشدةٍ حتى هَلَعَ مَن حولهُ... انطلقَ يعدو حاملًا شعلته، والجميع يركضون خلفه، يستهدونَ بنوره في الظلام، مهما حاول الاختباء كانت شعلةُ العظام تفضحهُ... حتى اهتدى إلى الطريق الذي أتى منه، أطفأ الشعلة... وذابَ في حِضنِ الظلام حتى اَختفى.

****

6

...

أحدهم يطرقُ البوابة الموشومة...

أحدهم، يُنادي اسم "آسن"...

"أيها الآسن"...

ينتفض من نومه، يتلفتُ حوله، يصطدم بصره بحوائط البئر، ولوحاته عليها. يتذكر أن ما كان فيه لم يكن حُلمًا... حتى ذلك الصوت الغاضب، الذي بات يوقظهُ كل مدةٍ من الزمن، بعد كل مرة يهربُ فيها من المحرقةِ إلى الخارج، ويمشي بين الناس. بعد كل مرةٍ بات يتعلم فيها حديثهم، يستقي من ثرثرتهم حتى طال لسانهُ ليتناسب مع فمه الكبير. بعد كُل مرة يرتمي في بحور حكاياتهم التي لا تنتهي، يسمعُ ويسمعُ حتى كَبُرَت أذناهُ، لِتَسَعا في جُعبتهما كل الأحاديث، وجَحظت عيناهُ واتسعتا، من كِل فضيحةٍ سَمِعها... عن مروج الرمان التي تقَعُ في الأراضي الشرقية، التي تُغذي البلد، وتُغذي الحرب التي لا تنقطع... عن البيتِ الذي كان أصفر، الذي بات للعاهرات ملجأ، وللمتألمين مَهرَبًا، وللغلابةِ حُلمًا بالولوجِ إليه، ولكل صاحبِ نفوذٍ مَطمَعًا.

"أيها الآسن... افتح!"..

الطَّرْقُ لا يتوقف، وصوتُ المنادي لا يلين. ينفُضُ "آسن" عن جسدِهِ تراب الأرض، وينظرُ إلى أعلى البئر، حيثُ صنعَ سلمًا من العظامِ والأخشاب، يمتدُّ في جدران البئرِ الداخلية حتى أعلى الفتحة، حيثُ رأى للمرةِ الأولى المحرَقة من الداخل. صعدَ السلم، سريعًا، وصلَ البوابة الموشومة ركضًا، وقبل أن يكف الطَّرْقُ، فتح البوابة.

عملاقان قذرا الهيئةِ يقفان خلفَ عجوزٍ يرتدي عباءة حمراء، يكشر "آسن" عن أنيابه كلما رآه في زيارةٍ كتلك..

- ألن تَكُفَّ عن ألاعيبك تلك يا "آسن"؟!

- "رشيد"؟!!... ألم تيأس بعدُ منِّي؟!

- الناس يتحدثون... لم يكن هذا اتفاقنا..

- أيُّ ناس؟!... الذين لا يرجون إلا دفءَ النار بينما يخشونها؟!... الذين يرقصون بالبيت الذي كان أصفر بينما لا يتجرأون على الرقص خارجه؟!!... الذين يتمنونَ الرُّمَّان، ويمقتون هذا "الأخ الحنون" لأنه يقطعه عنهم، بينما قامت الحربُ في الأصل بسبب تلك الفاكهة الخبيثة؟!!... عن أي ناس تحدثني يا كبير الشعراء؟!!

يدخلُ "رشيد"، يزيحُ أحد العملاقَين "آسن" من طريقه، يتجوَّلُ كبير الشعراء في البهو، حيثُ تزداد الحرارة كلما اقتربوا أكثر من فوهة المحرقة، التي تبعد عنهم بمئات الأمتار.

- ماذا تريد؟

- ...

- حدِّثني بصدق... أنا أعلمُ أنك إن أردت الخروج لفعلت، ولن أكذب عليك، الناس تتحدث... هنا... لا أحدَ يصمت يا "آسن"، ولا تأمل أن تُخفي شيئًا في بلدتنا.

- أريدكم أن تتركوني... أو تحرقوني في ناركم اللعينة، وتريحوني من عذابي!!

- اسمعني، إن وُجِدَ مخلوقٌ على تلك الأرض يوَدُّ أن يتخلص منك، فلن يكون سواي... أنا حتى لا أعلمُ لماذا يُبقي عليك "الأخ الحنون"... لكن يبدو.. لسببٍ ما، أن وجودك ضرورةٌ هنا..!

تركَهُ "رشيد" والعملاقان، لكنه، قبل أن يُغادر، صاح فيه "آسن"...

- اسمع... أود أن أطلب... أود أن أعرف "من أنا"؟!!

- وهل هذا طلبك الوحيد؟!

- نعم...

- مممم... أنا لا أقدم خدماتٍ مجانيةً... لكن دعني أنظر في الأمر، وإياكَ أن تخرج من المحرقة حتى آتيك بالرد..

- سأنتظر..

في الخارج، كان الناسُ ينتظرون حامل شعلة العظام، الذي يَكسِي العاري، ويُشبِعُ الجائع... الذي يسمع ترهاتهم وآلامهم بلا ملل. الناس اعتادت على ذلك المخلوق الذي ليسَ منهم، لكنهم منه... الذي لا يشبههم، لكنَّهم جَسَّدوا تفاصيله، حتى بات لا يفرقه عنهم سوى حديثه عن تلك الأشياء العجيبة، والألوان والأشكال، والحجارة بالبحيرة المقدسة. يلتفون حوله، لا يفهمون قصصه، ورغم رائحة العفن التي التصقت به من البئر، بدأوا يعتادونها، يألفونها، حتى صار البعضُ يتقربُ منه فيمسحُ على جسده الأبيض الباهت... عَلَّهُ يأخذُ من ريحِهِ. كانوا كلما سمعوا عن الأحجار الملونة، يهيمون، ثم يدورونَ في دوراناتٍ كأنها رقصةٌ جديدةٌ بدأت تتشكلُ وسط الكآبة. يفردون أذرعتهم، يُحاولون النظرَ إلى السماء الكحيلة المَيتة، يكتئبون وينظرون إلى أسفل، محاولين تناسي تلك الحقيقة عن سمائهم... لكنهم لا يكفون عن الدوران والرقصِ أبدًا.

كان "آسن"، كلما اختفى عنهم، وعاد من جديدٍ... فلا يجد بعضهم... لا يجد من كانوا يرقصون ويُهللون. يسألُ عنهم، ليخبره أحد الباقين في الزحام أن العماليق أتوا ووضعوهم في أقفاصٍ ضيقةٍ، وقادوهم إلى حيثُ الظلام. "آسن" يستعجب، فيسألهم: "أهناك ظلام أكحلُ من ظلام البلَدة؟!"... يُجيبون:

"الظلام الذي نَسَجَ منه الأخ الحنون ظلامنا"

كان يخشى عليهم من الحبس في الأقفاص، كَفَّ عن سرد حكاياته، لكنهم ما تركوه. كلما عثروا عليه يمشي بينهم، التفوا حول شعلته التي ما رَدَّت بردان إلا ودفَّأتَهُ، وما تركت أعمى إلا وأنارت بصيرته قبل بصره. كانوا يُقسِمُونَ له بشرفِ الرمَّانِ أنهم لن يفضحوا أمرهُ إذا سُئِلوا عنه... لكنَّهُم... لا يتوقفون عن الثرثرة أبدًا، فيأتيه "رشيد"، يتوعدهُ بشتى أنواع العذاب. يخرجُ للناسِ مرة أخرى، يسردُ الحكايات، يُقسِمُونَ له بشرف الرُّمَّان ألا يتكلموا... وبعدها بأيامٍ، يأتيه "رشيد".

"آسن"..

الذي لم يكن آسنَ...

لمَّا عاد يخرجُ بينهم، كان يتجنبُ الزحام. سئمَ من ترهاتهم وحكاياتهم. سئمَ من سرد حكاياته عن الألوان والعالم الآخر الذي تَمَنَّى أن يذهب إليه، سئمَ من القوم الذين لم يرَ منهم أحدًا يعمل عملا حقيقيًّا، أو يُحاول كسبَ قوتِهِ بعَمَلٍ. كان من بين من يسرد لهم، رجلٌ، لا يزالُ يتمتعُ بقوةِ الرجال، يستمعُ إليه باهتمام بالغ. كان الرجلُ أبًا لخمسِ بنات، وجميعهن يعملنَ في البيت الذي كان أصفر. لمَّا سأله "آسن" لماذا يترُكُ بناته يعملنَ كعاهراتٍ، كان الرجل يرد بسعادةٍ، يقول إن القانون هو القانون، والقانون هنا، في تلك الظروف، يقتضي بأن تعمل النساء والبنات... هذا أفضل للجميع..

- ولكن... أنا ذهبتُ إلى هناك، المكان لا يليقُ بأحدٍ... رأيتهم يضربون النساء، يُجبرنهن على فعل أشياء لم أفهمها فقط لكي يستمتعوا... النساء هناك يا رجل ملطخاتٌ بأنواع الأطعمة، والرجال من حاملي الشعلات ذات المقابض الذهبية يَلعَقونَ الطعام على أجسادهنَّ....

كان الرجل سعيدًا بما يحكيه "آسن"، يستمعُ باهتمام. يقول إنه لا يمكنه الذهاب إلى ذاك المكان

ولا يتحمل كلفته... لكن لو أن بناته يمكنهن أداء وظيفتهم كما يحكي هو، لهو فخرٌ له.

"في السابق، لمَّا علمتُ أن زوجتي وضعت أول بنتين، لم أفكر بشيء سوى بكيفية إعالتهن. الحياة هنا صعبةٌ، والنساء قبل الحرب كُنَّ لا يخرجن من البيوت، ولا ينبغي أن يخرجنَ. فكان حملي ثقيلًا يا "آسن"... كنتُ سأعول فردين يأكلان كالغنم بلا شبع. بعدها، صُعِقتُ لمَّا أتت الثالثة، والرابعة... وكانت مصيبتي بالخامسة الشقراء عظيمة. الجميع هنا بالبلدة كانوا يُعَزُّونَنِي على تلك المصيبة. لكن انظر، بعد الحرب، وصدور القانون الذي جعل من كل امرأةٍ عاملةً... أنا الآن من الأثرياء... حتى الصغيرة "دُرَّة"، الشقراء، تلك الشقية، تجني لي أكثرَ من الأخريات. "الأخ الحنون" ربما لا يكون أكثرنا شرفًا، بل إني أحيانًا، أشعرُ أنه يُطالبنا بمناداته بالأخ بدلًا من الأب لأنه، بيني وبينك، ابن عاهرة، لم يُعرَف له أب، تمامًا مثل الملايين الذين يُنجَبونَ كل سَنَةٍ بالبلدة بعد "طقس الشرعية"... لذا أقول، هو ليس مثاليًّا... لكن انظر يا رجل، على الأقل نأكل".

لم يتوقف "آسن" عن الانبهار، لكن، ما أوقفه عن الاستماع، فقاطع حديث الرجل... "طقس الشرعية".

سأله عن ذلك الطقس، فقال أحد المستمعين الذين كانوا ينكمشونَ ويُمجدونَ الحاكم في كل كلمةٍ يُنطَقُ فيها اسمه...

"النساء هنا لا يتزوجن، أو قُل.. هو ضربٌ من المستحيل. بعد الحرب، وبعد قلَّةِ عدد الرجال والصبيان، وإصدارِ قانون العمل الذي أخرجَ نساءنا من بيوتهن وجعل منهن مسعوراتٍ للعملِ في بيت العاهرات... كان أمرُ الزواج قد بات من التراث. إذا أرادت الواحدة منهن أن تتزوج، عليها أن تُعلن طقس الشرعية، حيث تتخذُ من أحد التلال الثلاثة بجانب قصر الحاكم... منبرًا لها. تعتليه، وتصيح أمام الجميع بأنها شريفة، لم يمسها أحدٌ من قبل. قد تسألني ما الذي يدفعهن للزواج إن كُن لا يحتجنَ إلى رجلٍ، بل نحنُ من بحاجتهن... وأقول... وكل من تراهم حولك سيوافقونني... إن النساء نساء، يحتجننا يا رجل... ونحنُ... بتنا نُدرةً في بلد الرمان، ولنا الحق كُل الحق في أن نوافق علي شرعية عفتها أو نرفض... حتى لو صاحت مائة عام على أعلى تلَّةٍ بالبلد. لكن دعني أطلِعك على أمرٍ، كيفَ تَثِقُ بواحدةٍ أنت تعلمُ يقينًا أنها تعملُ بذلك المنزل الكبير؟!!.."

- إذن... تقولون بأن نساءكم أجمعين... هكذا...

تبادل الجميع النظرات، ثم لم يقووا على مواجهة "آسن"... حتى قال أحدهم:

"لسنَ كُلُّهُنَّ يلْعَقْنَ أعضاءَ الرجالِ هناك... بعضهن... وأقول بعضهنّ فقط... يرقصنَ ويغنينَ، هُنَّ أفضلُ من غيرهن"

- وماذا إذا حكمتم بأنها شريفة؟..

- بعدها، عليها أن تثبت أنها قادرةٌ على الإنجاب..

- كيفَ؟

- عليها أن تضع مولودًا... تُثبتُ به أن تُربَتَهَا قادرةٌ على الاعتناء ببذرةِ الرجل، وطَرْحِ محصول!!

- أنا أعلم... أقول "كيف"؟!!

بدأ الناس يتململون، أجابه الرجل الذي حكى أولًا..

- تختارُ رجلا وتحملَ منه... وما ان تضع حملها، تصعد به إلى ذات التلة، التي بات الجميع يعرفها من خلالها... وتصيح من جديدٍ بأنها وَلود.. و...

- وماذا؟!!... أنتم حقًّا تُثِيرونَ اشمئزازي...!

انقلبت وجوه الناس، أو بالأحرى... وجوهُ "الرجال"، الذين لم يرَ "آسنُ" غيرهم، لم يرَ بالبلدةِ سوى الرجال، يمشون ويتسامرون... بينما كان مكانُ النساء بعد الحرب تمامًا كما كان قبل الحرب... في "بيتٍ آخر"، لكنه أكثرُ اتساعا. ضاقت أعينهم من قولِ الآسنِ، الناس هنا يتغيرون بسرعةٍ، قد يجعلون منك إلهًا، وفي لحظاتٍ يرجمونكَ بعين الجحيم. هَدَّأ "آسن" من نبرته، سألهم أين يذهبُ المواليد الجدد من ذلك الطقس؟! ما الذي يحل بالصغار؟!!... ليجيبه أحدهم في استنكارٍ:

"وماذا برأيك كان سببًا في ازدحام البلدة، حتى صرنا نتخبطُ ببعضنا في السير؟!!... ألا يكفينا الظلام الدامس الذي لا ينقطع؟!"

هربَ "آسنُ"...

وجميعهم يتبعونهُ بأعينهم، بينما... لم يُحَرِّك أحدٌ ساكنًا وراءه، لم يتبعوه ككل مرةٍ... فقط... نظراتٌ ساخطة على هذا الآسنِ ذي الأنفِ المَمسوخِ والعينيْن الحمراوين، اللتين رأوهما للمرة الأولى عينيْ شيطانٍ لا يستحقُّ إلا أن يكون في المَحرقة. لم يقطع تركيزهم، إلا مُهَرِّجو "الأخ الحنون"... الذين هُم في الطُرُقاتِ يتشقلبون... حتى يجدوا تَجَمُّعًا من الناسِ بمكانٍ، فيبدأون بدندنة الأناشيد، التي يسرقون بها الآذان، والشقلبات والحركات البهلوانية، التي يخطفون بها الأعينَ... حتى تَنفَضَّ اللمَّة.

"آسنُ"...

الذي ما كان آسنَ...

يعودُ إلى الصهدِ، حيثُ مأواه. يعود إلى البئرِ، حيثُ منامه. يمسكُ بقطعة فحم من جثةٍ بائسةٍ أخرى، يرسمُ على أقمشةٍ معلقةٍ سرقها من البلدة... وجوهًا عِدَّة. دوائرَ للرأسِ، تسكنها دوائرُ للعينِ، والأفواهُ مُكممةٌ، وفي بعضِها ممسوحةٌ، والعيون مكسورةٌ... ورائحة الظلامِ... ما زالت نَتِنة.

****

7

...

نارٌ عظيمةٌ، سوداء، تأكلُ ولا تتركُ أثرًا...

اللوحاتُ، التي ملأت البئر من الداخل، رُسِمَت بالأسودِ الفاحم. كان "آسنُ" قد أَلِفَ الرسمَ بالفحم، حتى إنه، تساءل يومًا عن كل صخرةٍ فاحمةٍ استعملها، عن مصدرها وعن سبب نعومةِ بعضِهَا وخشونةِ الآخر. كان يتعجبُ من سهولةِ الرسم ببعضها، فيصبغُ الحائط بسلاسةٍ، بينما يواجهُ صعوبة في استحلابِ الفنِّ من بعضها، فلا تتوافقَ عند الاحتكاك مع الحائطِ أبدًا، مهما بَذَلَ من جهدٍ. كان يُخيل إليه، من الفراغ الدائم والوحدة، بعض الخيالات عن ماهية من كانوا أحياء قبل أن تُحيلهم النار العظيمة إلى خاماتٍ يستعملها في إحياء آلامِهِ. يتأملُ ما بينَ صخرتين فاحمتين، يتأملُ قساوة إحداها، فيخيل إليه أنها كانت لجثةِ رجلٍ... بينما تُغريه طراوة ورطوبة الأخرى، كأنها من جثةِ امرأة. أضحَت تلك لعبته المفضلة لزمنٍ، يبحثُ في الممر بين البئرِ

والبحيرة، بين الجثثِ، عن قطعِ الفحم... يُحلل شخصياتها... ويتخيل... أصولها. أحيانًا، كان يرسمُ قصصًا على الحائطِ عن أشكالهم قبل أن يتفحموا. أحيانًا، كان يشعرُ بالأسى تجاههم... لكن... أبدًا... لم يتوقف عن الاندهاش للحظاتٍ... عن أولئك الذين يأتون... من حينٍ لآخر، يركضون بينَ الناس من حيثُ لا يدرون... نحو المحرقةِ العظيمة، فيصرخون بتلك الكلمةِ...

"الشمس"...

يقفزون إلى الفوهة الملتهبة، يتآكلون بلا وجعٍ، كأنهم يستحمون بنَارِهَا، ولا يظهرُ لهم أثرٌ بعدها أبدًا... لا أشلاء تتفحمُ، ولا رائحة تتعفنُ، ولا يبقى منهم أثرٌ يُتَبَعُ. هناك، على الجسر العالي المؤدِّي إلى الفوَّهة... انتظرهم للمرَّةِ الأولى، وهناك... حصلَ على أول حَجَرٍ أبيض...

في اليوم الذي، صاحت فيه مجموعاتُ المهرجين بالطرقاتِ، بأن زائرًا جديدًا أتى للتطهير في المحرقة... كان "آسن" قد استطاع الصعود عبر البئرِ ليتنفس هواءً أقل عفونة من الأسفل... للمرة الأولى، قبل أن يعمَلَ سلمًا. عندما رأى نورَ الشعلات العظيمة بالأعلى، كان الصوتُ يدوي بأرجاء البهو، والناس تطرقُ على الباب لكي يفتح لهم، فيشهدوا الزائر يقفز، ويبدأ العرض. لمَّا لا يجدون من مدخلٍ، يلتفون حول المحرقة من الخارج، يتبعون المهرجين الذين لا يتوقفون عن ترديد النغمات والإعلان عن الحدث الكبير، عبر طريقٍ آخر يُؤدي إلى الخلف... حيثُ الجسر مكشوفٌ للجميع في الأسفل.

يومها، أتى شخصٌ هزيلٌ، من فرطِ هزاله كانت عظامه تجرحُ جلده في كل موضعٍ هي فيه بارزة، تمكن من الصعود إلى الجسرِ، يركضُ بأقصى ما ملك... يصرخ:

"اتركوني أمُرُّ... اتركوني ألْحَق... لا وقت... لا وقتَ بعد كذبةِ الرُّمَّان..!!"

انطلقَ "آسنُ" يعدو... أمسكَ به، يمنعه من التقدم أكثر، والرجلُ يبكي ويعوي...

- أنت لا تعي شيئًا... اتركني..
- أأتركَ تقتلُ نفسك؟!... الناس يهتفون في فزعٍ...
- لا يهتفون لي..
- وما الذي يدفعني أنا إلى منعك؟!... لا تفعل.. ماذا بك يا رجل؟!
- اتركني أرجوك... الرمان لا يُسمن ولا يُغني... لقد...
- عن أي رمَّانٍ تتكلم؟!
- اتركني ألحق شمسي قبل فوات الأوان... لا وجود للرمان..

كان الناس يصيحون بالأسفل... غاضبون هُم لأن العرض تأخر... والمهرجون يتشقلبون ويرددون الكلمات:

- ابن الظلام، الأبيضُ الكالح... لَوَّثَ الماءَ المالح.

فيردد الناس... حتى يُمسكَ أحدهم، بحجرٍ أبيض... يلقيه على "آسن"، فيصيب وجههُ... يَشُجُّ جانبه قُربَ العين، يسيل دمٌ لامعٌ، سرعان ما تلوث بالكراهية... فانطفأت لمعته...

- عن أيِّ شمسٍ تتحدث؟!...
- اتركني يا هذا، أنا أتبدل، لا أريد لتلك الهيئةِ أن تتغير أكثر... لقد ذهبتُ إلى الذي يعلمُ ما بينَ الأحمر والأخضر... اتركني ألحق شمسي، قبل فوات الأوان!

الكلمات الأخيرة، التي هزت عقل "آسن"، أرغمته على تركه. ركضَ بما أوتي من بواقي قوة، حتى بقِيَ على الحافة، التفت إلى الشاب المذهول:

- شكرًا لك...

قفز، فانفضَّ الناس من حوله، إلَّا واحدٌ. كان يراقبهُ بدقةٍ، على وجهه أماراتُ الحزنِ، على جسدهِ أماراتُ النِعَم. رجلٌ من مرتدي العباءة الحمراء، من بلاطِ الشعراء، مسح دمعةً وابتسمَ لـ"آسن"... ورحل.

التقطَ "آسنُ" الحجرِ الأبيض، نَزَلَ إلى البئرِ التي اعتاد عفونتها. كان يُقَلِّبُ الحجرَ بين أصابعهِ، صَبَغَهَا بلونٍ لم يَعتَدْهُ... لونٌ آخرٍ عجيب، لَما وضعه على النيرانِ السوداء التي رسمها من قبلُ على الحائطِ... أطفأها... فأخذَ يُطْفِئ كل النيرانِ بحائطِهِ... وأخذَ ينشرُ النورَ ويعادِلُ الفحمَ... وينتظرُ... كُل زائرٍ جديدٍ يأتيه، فيحاول منعهُ من القفزِ وتعطيلِ "العَرْضِ" على الناس... ليرجمهُ أحدهم بتلك الأحجارِ البيضاء... يلتقطها من جديد... يضيء بها وَحشَةَ الفحمِ في اللوحات...

ويبتسم...

للمرةِ الأولى..

لمَّا وَجَدَ بينَ الظلامِ نورًا... أَمَل.

****

8

...

الشَّفَتَانِ..

خُلِقَتَا...

من خُلاصَةِ حُمرةِ الرُّمَّانِ...

والشَّعْرُ... ليلٌ... ظُلمةٌ... هَلَاكٌ لِكُلِّ مُقتَرِبٍ لا يعلمُ سوى طريقِ النار للخروج..

ورُمَّانَتَانِ مُلتَهِبتانِ... تختزلانِ مُتعةُ الكونِ... ينطفئ لصهدهما.. جحيمُ البوابةِ الموشومة...

والعينان..

ظلامٌ على ظلام... وَحْشَةٌ على وحشةٍ...

غُربةٌ... لا يقدرُ عليها "الآسنُ"... التائهُ الذي يبحثُ عن ذاتٍ ضائعةٍ...

وكُلُّ شيءٍ يحدثُ في الظلام، حيثُ البيت الذي كانَ أصفر. كانت مَهْرَبَهُ من كُلِّ أمرٍ، وكانت... الرُّمَّانَة... هي أوَّلُ سببٍ، لهروبه المتكرر.

لا يُحب الرمَّان، ولا يطيق رائحته التي كانت سببًا في حربٍ لا تنتهي... لكنَّهُ...لم يعُد يطيق البعد أكثر عن رمَّانة. في الظلام الذي لا ينقطع، كانت المرَّة الأولى التي جَذَبَهُ فيها زحامُ أهل الرُّمَّانِ، يصطفُّون متلهفينَ لدخول بيتِ العاهِرات. أمام البيت، لم يلحظهُ أحدٌ، حتى لمَّا دخلَ فصار بجوفِهِ... لا أحد يلتفتُ إلى "الآسنِ" وسط حلوى المُتعةِ. البيتُ يَعُجُّ بحاملي الشعلات ذات المقابضِ الذهبية، حيثُ يُصَنَّفُ أولئكَ درجات. منهم من يملك الشعلة الأطول، تفوحُ منها رائحة البخورِ من "أرضِ الأطياف"... حيثُ كانت تأتيهم من هناك أفضلُ أنواعِ البخور وأزهاها لونًا.

منهم من يحملَ الشعلات الخشبية، التي ما إن تتهشمُ أو تأكلها النار يُطرَدُ من البيتِ. "آسنُ" كان مشدوهًا بالمكان الذي، فورَ أن صارَ واحدًا من أعضائِهِ، لم يجد به ما يمت بِصِلةٍ للعالم بالخارج. الخدمُ نساءٌ، والسَّاقِيَاتُ بنات، والقائماتُ بأعمالِ التنظيف بالأركانِ التي لا تحوي شُعلاتٍ... عَجَائِز... أرخى الزَّمَانُ أجسادهنَّ، فكانَت الأركانُ المُظلمةُ في البيت أرحَمُ بِهِنَّ... من أي مخلوقٍ من حاملي الشعلات.

يتذكرُ "آسن"، تلك العجوز، التي كانت تلعنُ المكان. "آسنُ" الذي خَجِلَ مما رأى، فتَوَارى في الظلام يشاهدُ في صمت. اصطدمَ بها، كان يظنُّ أن لا أحد ببلد الرمَّان يملكُ أنفًا بِقُبحِ أنفه، حتى قابل تلك العجوز. للمرة الأولى يشعرُ بقبحِ غيره، ويتأفف منه...

- ما الذي أتى بـ"آسنٍ" الوجهِ طيب القلبِ إلى هذا البلد؟!

باستنكارٍ، رَدَّ عليها:

- وما الذي أتى بعجوزٍ قبيحة مثلكِ إلى مكانٍ كهذا؟!... ألا تخجلين؟!

صَمَتَتْ... أطالت النظرَ إلى عينيه الباردتين الحمراوين... بَكَت بألمٍ، حاولت كتمان بكائها كي لا يتصيد لها أحد العاملين أخطاءً جديدة.

- أنا... آسف... لم أقصد ولكن...

قالها، بعينين باردتين لا تذرفانِ دمعًا. نظرت إليه من جديدٍ... انهمرت بالدموع...

- لو كان بيدي، لبقيتُ ببيتي حتى ولو مت جوعًا. أنا عجوز أكرمها الزَّمَانُ وأحْنَى ظهرها هذا البيت اللعين. أتسألُ ماذا تفعل عجوز قبيحة مثلي هنا؟!... ما تفعله لا يفعلهُ حيوانٌ نافقٌ... أضطرُّ للعمل بعد الحرب، القانون يقول هكذا... ها..!!، ولمَّا صدرَ ذاك القانون، لم يقف أحدٌ من رجالنا ضدَّهُ... جميعهم صفقوا وهللوا، جميعهم صاروا يفهمون ويُحللون ويتحدثون في الطرقات فقط وأبدًا عن العصر الجديد... عصر العمل والحرية... البلدة اللعينة، لا أحد يفعلُ فيها سوى الثرثرة..

- لكن يا سيدة... أنا لا أفهم..

- أعذركَ لعدم فهمك... لكنكَ وقح.. مثلهم، أو ربما، أصبحتَ "آسنَ" حقيقيًّا بحكاويهم... أنا أراك تتجولُ، ونسمعُ أخبارك هنا، أحببتُ أن تروي لي قصصك المثيرة عن الألوان والعالم الآخر العجيب... لكنك أحمق.. أتعلم... أنا أشكرُ القدير أني عجوز، ولستُ مضطرَّة لبيع أثدائي لأبناء العاهرات ممن يملأون المكان هنا... يكفيني أن أنظف قذاراتهم في صمتٍ، وفي الظلام... على الأقل.. في تلك الأركان المظلمة، لا أرى نفسي وهُم يُلبِسُوني كعاهرة... على الأقل لا أرى خيبتي وعُرْيِي حتى أموت وينتهي ذلك القرف... لا ينقصني إلا غبي مثلك لا يرى إلا أنفي القبيح...

كانت العجوز تبكي بحرقةٍ وتصيحُ، والظلام يُخفيها... و"آسن"، تركها وهَرَب... لكنها كانت لا تزالُ تصيح...

- أنفي قبيح؟!!... يا قبيح الوجهِ والعقل... إذا كان لا يُعجِبُكَ أنفي... فلتَضَعه في مؤخرتك وتذهب أنتَ وهو إلى المحرقة... حيثُ تنتمي..!!!

الدموع...

تلك المادة السائلة، الغريبة، التي كان "آسن" يراها تنزلقُ من عيون أهلِ الرُّمَّان. رآها في أولئكَ الزائرين الذينَ يلقونَ بأجسادهم في المحرقة... ورآها في المقهورين... والعاشقينَ الذين كانوا

يجلسون في الطرقاتِ يبكون ولا ينشغلون بسِواها. كان يعود إلى البئرِ، في كَل مرة يرى فيها من يذرفُ دمعًا، يضغطُ على عينيه علَّهُما تنزِّانِ من السائلِ قليلا... لم يفهم أبدًا.

- أنت... يا هذا... يا ذا العينين الجميلتين..

صوتٌ، يداعبُ أذنيه اللتين كَبرَتَا من حكاياتِ أهل البلدة... يُناديه.

يقترب من أحد الأركان، حيثُ مصدر الصوت يغويه. تخطفهُ للداخل، تهمسُ في أذنه:

- عيناكَ جميلتان... مُتَّقِدَتَانِ بشيءٍ لا أفهمهُ..

لا يَرُد...

- لم نَعُد نرى مثل ذلك الجسد ببلدتنا الخائبة..

لا يرد..

- يدان قويتان... أراهن أن أي امرأةٍ هنا ستُحِبُّ ما قد تفعلانه بها..

لا يفهم... ولا يرُد..

- هل أنتَ أخرس؟!..

تصفعهُ على وجهه... يغضب، يضربها، فيُفقِدُها ضرسَينِ وسِنَّةَ أمامية... وكرامتها!!

تصرخُ، فيدوي صوتها الذي يعلم نغمتهُ كُل من أتى المكان ومن تمنَّى فقط الدخول. يلتفتُ حاملو الشعلات الذهبية إلى بكائها الذي أذابَ القلوب. يتساءلون عمن قسَى قلبُهُ هكذا حتى يؤذي فتاتهم المفضلة. الجميع يتأملُ "آسن"، يغضبون، يبدأون بإلقاء زجاجات عصير الرُّمَّان على وجهه وجسده...

- هي مَن بدأت... أنا لم أفعل شيئًا..!!

الزجاجات تتطاير لتهبط على جسد الآسن... تتكسرُ على وجهِهِ، لترسمُ لوحةً من الجراحِ، تتداخلُ الخطوطُ فيها، تَنْقُشُ تاريخًا جديدًا... لن يُمحى.

يلقونَ به خارجًا، من الباب الخلفي، حيثُ... لمَّا استعاد وعيَهُ... فتح عينيه على أحجارٍ صفراء، مفتتة من حائط البيت الذي كان أصفر. أحجارٌ تهدَّمت حينما تهدمت بعضُ أجزاء البيت، اختبأت في الترابِ، لم تَلْحَق أدخنةُ الحريق الكبير أن تُخفي معالمها. التقطها، أخذ يُقلبها بين أصابعه، تصبغها بالأصفر... اللون الذي... أضافَ بُعدًا جديدًا له. التقطَ ما وَجَدَ منها، وقام يتخبَّطُ في مَشيهِ، يلعنُ قومَ الرُّمَّان، ويلعنُ تلك الرُّمَّانة التي تسببت له في جراحٍ أليمةٍ... لكنَّ كلماتها ظلَّت تَرُجُّ عقلهُ. أخذَ يتأملُ جسده القوي التي تحدثت عنه، وعينيه الجَميلتين، ويديه اللتين ما فعل بِهِما إلا كل جميل، وما صَنَعَ بِهِما إلا كل ما سَرَّ الناظرين.

- لقد... رأتني.. جميلًا!

بينما الظلامُ حالكٌ، يتبعُ طريقًا جانبيًّا تُضِيئُهُ شعلاتٌ فقيرةٌ... سمِعَ أحدهم يُنادي...

- سألتُ الذي يعلمُ ما بين الأحمر والأخضر... فما وَجَدت أحمر ولا أخضر...

نَقَّبَ عن مصدَرِ الصوت، لا أحد. الصياحُ بذاتِ الجملةِ يتكرر... والقائلُ يتأوه ويبكي... يتقطَّعُ صوتُهُ، يجيءُ ويذهبُ... حتى اندثرَ في الظلام... مثلُهُ مثل أي شيءٍ آخر في البلدة.

قُبيل نهاية طريق الشعلات، وجد "آسنُ" جماعةً من حاملي الشعلات الخشبية، يلتفُّونَ حولَ

أحدهم. رجلٌ أربعينيُّ الهيئةِ، طفولي الوجهِ والبسمةِ، يقولُ كلامًا حَسنًا. اقتربَ "آسن"، ألقى بالتحية، ففُتِحَت الدائرة وسَمَحوا له بالانضمامِ إليهم.

- ما الذي أتى بآسنِ الوجهِ طيب القلبِ إلى بلدتنا هذه؟!

قالها أحدُ الجماعة...

- لا تَقُل آسن الوجه... هذا "فنَّان"... يحكي لنا عما بينَ الأحمرِ والأخضر..

قالها الرجلُ الأربعيني... الذي لَفَتَتْ عباءته الحمراء اللامعة انتباه "آسن" منذ اللحظةِ الأولى التي رآهُ فيها، لمَّا كان على جسر المحرقة ينظرُ إليه ويبكي... عندما أتى أول الزُّوارِ المحترقين.

- اسمي "ودود"...

- أنا "آسن"...

- بل، أنت "فنان"... هكذا سأدعوك، وهكذا سيَدْعُونَك...

****

9

...

"ربما، قد تجِدُ ما يرضيك هناك، في تلك الأراضي الترابية... حيثُ الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر"

كان ينظرُ بِتَمَعُّنٍ إلى اللوحات القديمة، التي كانت، مُتَّسِمةً بالسواد الفاحم حتى أنارها بعضٌ من بياض الحجر الأبيض... لكن ذلك النور... لم يَكُن أبدًا أشد زهوًا من اللون الأصفر الذي تضفيه تلك الأحجار من البيت الذي كان أصفر. كانت المرَّة الأولى، التي يختبرُ فيها ضوءًا دافئًا... يريحُ عينيه الحمراوين. ضوءٌ لما اختلطَ بالأبيضِ الجيري... دفعهُ إلى الخروج من البئرِ مجنونًا.. يبحثُ عن صديقهِ الوحيد في تلك البلدة... "ودود".

اعتادَ على الهروب- مؤخَّرًا- إلى مكانين... إلى حيثُ بيت العاهرات، يلتقي بتلك الرُّمَّانة التي ما عاد يطيق أن تَمُرَّ فترة إلا ويأتيها سَعْيًا، تداعبهُ في الظلام، وتُسمِعهُ من حلاوةِ الحديثِ والوصفِ عنه وعن رجولته و تَمَيُّزِهِ عنِ الآخرين. كانت تشكو وتشكو وتبالغُ في شكواها له، من كُلِّ أمرٍ ينالها، يستمعُ إليها بإنصاتٍ تارة، وبالإجبارِ تارةً أخرى... عندما تُدَاعِبُ كُلَّ شِبرٍ بجسدهِ. لا يملُّ من شكواها، ولا تَمَلُّ من إغوائِهِ، وإذا فكَّرَ لمجرد التفكير أن يشكو لها... أسكتته... بحركةٍ تفعلها بيديها، تمامًا كما تفعلُ لباقي الزبائن، فينصهرُ بين اليدين الماهرتين... أو... بِقُبلةٍ تَخمُرُ على بصرهِ ووعيه، فلا يعودُ للزمان والمكانِ داعٍ وصِفَة... ثم تعودُ للشكوى من جديد.

عندما يفرغُ منها... يخرجُ تائهًا، يبحثُ عن مُرشِدِهِ وصديقهِ "ودود". يروي له عمَّا جَرَى. يؤنِّبهُ الصديق الواعظ، يتلو عليهِ من كتاب البلدةِ المقدس، حيثُ الذهابُ إلى تلك الأماكنِ ومضاجعة النساء مُحَرَّمة...

- ولكن... هذا قانونٌ يا "ودود"... قانون يسري على الجميع... هذا ما يقولونه هنا... هُنَّ يتَكَسَّبنَ أرزاقهن..

- أعلم... لكن اسمع... كتاب القدير يقول "ليسَ في يدِ التائهِ من شيءٍ، لو أتتهُ زوبعةُ الخطيئة، فلو دَفْنُ الرأسِ في الرمالِ خِسَّة وجُبْنًا... فَدَفْنُ الجسَدِ كلِّه فيها، لِيُفَادِيهَا... فضيلة.

"آسنُ" يستمِعُ... بتمعن. يرى في فصاحةِ صديقه ما لم يرَهُ في أهلِ الرَّمَّان. لكن لمَّا أتى الحديثُ عن البيتِ، وعن النساءِ فيه... ذكرَ له السيدة العجوز ذات الأنفِ القبيح. مال "آسنُ" إلى الاعتذار لها من جديدٍ أمام "ودود"، الذي لم ينعته أو يُناديه منذ عرفه بـ"الآسن" كالآخرين. كان ينعته بالفنان، ويُناديه من بعيدٍ أمام الناس بال-"فنان"، ويثني عليه...

- لكن يا "ودود"... ألن تنتهي تلك الزوبعةُ أبدًا؟!... فحتى الأعاصيرُ لها أوانٌ وآخِر...

- كُلٌّ بوقتِه... المهم، ألا تعود إلى ذنبِكَ ذاك مرة أخرى..

- ولماذا لا ينتهي منه حاملو الشعلات الذهبية؟!... لماذا أراكَ تُداوِمُ على نُصحِ حاملي الشعلات الخشبية، تتجاهل الباقين؟!!

صَمَتَ "ودود"...

حاولَ تغيير دفَّةِ الموضوع، أشارَ إلى جماعَةٍ ضالِّين يتجولونَ بالطرقاتِ، يعبثونَ بالشعلات المُعَلَّقَةِ بها. ذهب إليهم، يقرأ على مسامعهم من كتاب القدير... بينما... كَفَّ "آسنُ" عن الحديث. كانَ يخشى أن يخسَرَ صديقه الوحيد، الصديقَ الذي كان أول من زارهُ بالمحرقةِ وسألَ عنه... أولَ وآخِرَ من نزلَ معه إلى غرفته النتنة... إلى البئرِ. يومها، كانت الرائحةُ أشدُّ عفونة، لم يقوَ "ودود" على تحملها... أخذَ يسعلُ بِشِدَّةٍ... بينما... تتجولُ عيناهُ على اللوحاتِ المُعَلَّقَة. يحاولُ الخروجَ من البئرِ، تطاردهُ لوحاتُ الوجوهِ والنيران على الحوائط...

- ما.. ما هذا؟!!... أنتَ... عجيب...

- أنا آسف... لا يُقَدَّرُ لي أن أتكلم مع أحد هنا... لا شيء سوى الرسمِ..

- تلك الوجوه... مشوهة... تمامًا كَسَريرَتِكَ... عينا الشيطان تحكم... هذا مكانكَ الحقيقي... النار... حيثُ تغسلُكَ من تلك الرُّوحِ الآسنة..!!

هَمَّ بصعودِ السلم العَظْمِيِّ... صاحَ به "آسنُ" يومها...

- إذا كانت النَّارُ تغسلُ الذنوب... فَلِتَغتَسلوا أنتم فيها... أنتم من تستحقونها لا أنا..!!!!

بعدَ تلكَ الحادثة... وبعدَ أن أتاهُ "ودود" مُعتَذِرًا عن انفعاله، تَقَبَّلَ منه. لم يَعُد يُخفي شيئًا عن القديس الشاب ذي العباءة الحمراء، والعاهرة التي لا تتوقَّفُ عن الشكوى كُلَّمَا أتاها في الخفاء.

- من أنا؟!...

- أنتَ الفنَّان...

- لا... ابحث في كتابك عَمَّنْ هُم مثلي... ربما ذكر القدير شيئًا عنِّي..

- هذا كلامٌ لا يقوله سوى جاحدٍ...

- أنا لستُ منكم، وهذا يقتلني... ولا تشبهونني ولا أُشبِهكم... لا تَرَونَ ما أرى، ولا تشعرونَ بما أشعرُ... ابحث في كتابك عنِّي..

السؤال الذي يؤرِّقُ "ودود"، فلا يجدُ إجابةً له. كانَ يسألُ "آسنَ"... عمَّا يدفعهُ حقًّا وراء تلك الأسئلة. يُقنِعُهُ بأنه لا فائدة من البحثِ، وماذا إن عَرَفَ حقًّا من هو أو مما خُلِق، أو تلك التغيرات العجيبة التي تطرأُ بجسدهِ...

- لكنَّي أشعرُ أن الأمرَ أكبر... من مجرد حياةٍ بائسة لبلدٍ عقيم لا تتكسَّبُ إلا من الرُّمَّانِ الذي تزرعهُ، فتنفقَ كُلَّ ما يأتي منه في حربٍ كُل عامٍ لا تنتهي... ومن العاهرات اللاتي

يعملنَ بها..!!.. قل لي.. ماذا يوجد خارجُ تلك الأسوار؟!!

- أنت مجنون..!!

- ربما..

- خارجُ الأسوارِ ظلامٌ لا ينقطعُ... وجوعٌ ووحشَةٌ... لا أحد يعود يا "فنان"... لا أحد...

- من ذاك "الذي يعرفُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر"؟!!

كلما تهَرَّبَ "ودود" من الإجابة، كانت عينا "آسن" الباردتانِ تُحاصرانه. قال بأن هناك عَرَّافًا... بالأرضِ الترابية... يعلمُ الماضي والمستقبلَ... ويصنَعُ الحاضِرَ. سأله "آسن" في لهفةٍ عنه، فأجابَهُ بأن هذا العرَّاف يمكنه أن يُعَلِّمهُ من عِلمِهِ... فيرى ما بينَ الأحمر والأخضر تمامًا مثله... وقتها سيعرفُ كُلَّ شيء. تذكَّر "آسن" ذلك الزائر الهزيل من المحرقة، الذي أخبرهُ بأنه استطاع الوصولَ إليه. أنكرَ "ودود"، مُعَللًا بأنه يستحيل أن يصل هناك ويعود...

- يا "آسنُ"... يستحيل على من يُمكنه أن يخرجَ من ظلامِ تلك البلدة اللعينة أن يعودَ إليها... المجانين فقط يفعلون ذلك..!!!

- ولكنَّهُ أخبرني بذلك... لماذا يكذبُ؟!... بدا واثقًا..!

- إذن... مجنونٌ هو لأنه اختار أن يعود... وتكون نهايتهُ مَحْرَقَة...!

****

10

"...!"

قالها... "رشيد"... وهو يتمتَّعُ بمشاهدةِ عملاقَيْه يَجْلِدَانِ الآسنَ. السِّياطُ تُغَنِّي على جسدِهِ غِناءَ القَهرِ وقِلَّةِ الحيلة، حتى كانت آخرَ نوتةٍ، التي أفقدتهُ وعيَهُ، ورسمَت على وجههِ جُرحًا آخر... كاد يُخفي إحدى العينين الجميلتينِ.

- الناس لا تكُفُّ عن الرقصِ والغناء... قُل لي يا "آسنُ"، من أينَ آتيهم بأقفاصٍ جديدةٍ تكفي تلك الأعداد؟!!

قالها "رشيد" العجوز، ببرودٍ و خِسَّةٍ.

تركوه مُلقى في البئرِ، وأنهى العجوز حديثه بتحذيرٍ أخيرٍ..

- لو رأيتُ أحدهم يرقصُ ويضحكُ بالطرقات... ويُرَدِّدُ حكاياتك الفارغة عن "الأحجار الملونة" والضوءِ الأصفر... فإنِّي أقسمُ لكَ بعباءتي تلك التي لا يجرؤ أحدٌ على ارتداءِ مثلها في البلاد، لأجعلنَّ حريق المحرقةِ أَحَنَّ عليكَ مما سأُقحِمُكَ فيه...!!

"الضوء الأصفر"... بات ضرورة لـ"آسن". كان يَخرجُ ويُخالفُ أوامرَ "رشيد"، لمَّا تأخرَ عليه في الرد. انتظرهُ لمدةٍ كافيةٍ لتفجير بركان، لم يأتِه. كان يخرجُ بينَ أهلِ الرَّمَّانِ، يردد حكاياته، ويُفَتِّشُ عن ملامح ذاك الضوءِ في كُلِّ مكان... لا أثرَ لأي أصفرَ... لا أثرَ لذلك الضوء الذي بلوحاته. تذكَّر من أينَ أتى بالأحجار الصفراء، توجَّهَ إلى بيت العاهرات، البوابة الخلفية... بحث هناك عن حجارةٍ أخرى أو مصدرٍ آخرَ... لم يجِد. صارَ مجنونًا، يمشي بينَ الناس ويصيح...

- ألا ترونَ سماءكم؟!!... ألا ترونَ فَضيحَتَكُم؟!!... ألا أجِدُ منكم رجلًا إلا ووجدتُه مَحنيَّ

الرقبةِ ذليلا؟!!... ارفعوا رؤوسكم وانظروا...

والمُهَرِّجونَ يتشقلبونَ في كُلِّ مكانٍ، ويُرددون...

- ابن الظلام، الأبيض الكالح... جُنَّ جنونهُ، ولوَّثَ الماءَ المالح...

الناسُ الذين، كانوا لحكايات الآسنِ يستمعون... باتوا يرجمونهُ بالحجارةِ. في الظلام الدامس، يحملُ شُعلته من عِظام من ماتوا في الحرب القديمة، تَفضَحهُ الشُعلة، ويُؤجِّجُ فضيحته المُهَرِّجونَ، يلاحقهُ قومُ الرُّمَّانِ بالحجارة، ويلَقونَ بطريقِهِ الزجاج المتكَسِّرَ لِتهترئ قدمَاهُ، ويهربَ دمه النقي من الجسدِ الذي تحوَّل لونه إلى لونٍ آسنٍ... اختلطت فيه كُلُّ ألوانِ العذاب.

هَرَبَ إلى المكانِ الوحيد، حيثُ لا أحد يهتمُّ. إلى حيثُ "رُمَّانة"، وإلى حيثُ الصفِّ الطويلِ من الرجال حاملي الشَعلات الخشبية، ينتظرون بفارغِ الصبرِ أن يؤذنَ لهم بالدخولِ... إلى حيثُ المُتعَةِ الأبدية...

- أرجوكم أدخلوني... سأموتُ جوعًا...

أحدهم، بجسدِ رجلٍ يجابهُ العماليق، يبكي ذليلًا أمام الباب. توقفٍ "آسنُ" يراقبه، وينعى حاله، يرتدي فستانًا قصيرًا وردي اللون، يكشفُ عن عورته، ويُلطخُ وجهَهُ بمساحيقَ التجميل النسائية، يصرخُ بحراسِ البوابة بأن يُدخلوه..

- أنا أبٌ لثلاثة أولاد... لم أُنجب بنتًا واحدةً ترفعُ الحِملَ الثقيلَ معي... أأموتُ جوعًا؟!!... أدخلوني أعملُ مثلما يعملنَ هُن..!!

- لو اقتربتَ خُطوة أخرى سنرميكَ بالرماحِ...

- أنا في كل الأحوالِ مَيِّت... أرجوكم، لدي ثلاثة صبيان، من أينَ نأكل؟!... أدخلوني أعملُ أي شيء... أُذَلِّلُ حاملي الشعلات... أو أكونُ عبدًا لهم، المُهِم صبياني... نموتُ جوعًا بالخارج ويستلذون هم بالداخل؟!!

هجمَ الرجلُ عى الحراس، لم يقترب كثيرًا من البوابة... حتى ما تركت الرِّماحُ ثقبًا بجسدهِ إلَّا وأحدثَتهُ.

تسلل "آسنُ" عبر البوابة الخلفية، أطفأ شُعلتَهُ واندَسَّ في الظلام. بحثَ عنها، بحثَ عن رائحتها، رائحة الرمان بكل مكانٍ ضَلَّلت عليها. كان يناديها، يهمسُ باسمها الذي لم يعرفهُ إلا مُؤَخَّرًا... كي لا يسمعهُ أحدهم. يتذَكَّرُ في كُل خطوةٍ يخطوها تلك الكلمات الأخيرات التي ألقتها بوجههِ آخر مرة..

- لماذا لا نتزوج ونهربُ؟..

- لأنِّي... أنا لا أعرفُ من أكون..

- أنتَ عِندي "ذو العينين الجميلتين"... هذا يكفيني..

- لكنَّهُ لا يكفيني أنا...

- أنتَ أغبى مخلوقٍ شهدَتْهُ تلك البلدة... أقول لك تعالَ نتزوج ونهربُ من هذا العفن، تقول لي لا تعرفُ من أنتَ؟!... أوه... بالطبع لا تعرف، لعَلَّكَ ابن عاهرةٍ من الذين يُنجَبون كل يوم في طقسِ الشرعية السخيف..

- أرجوكِ، أنا أودُّكِ أكثر من أي شيء... لكنِّي...

- لكنّكَ مجنونٌ ابن عاهرة... أظنني بتّ أصدّقَ أنك لوّثتَ بحيرتنا كما يقولون...

ظَلَّ يبحثُ عنها، حتى سئمَ الظلام والرائحة. خرجَ مسعورًا، يكسرُ كل ما يجدهُ. الجميع حولهُ يتوجسونَ منه خيفة، بدأوا بتصديق ترديداتِ المُهَرِّجين. يرمقونهُ بنظراتِ خوفٍ تارة، ووعيدٍ تارة أُخرى... و"آسنُ" يركضُ هربًا... حتى... تبدَّلَ غِناءُ المُهَرِّجين...

- زائرٌ جديدٌ... لباسهُ من جريد... وقلبهُ من حديد... يقفزُ إلى المحرقةِ العظيمة..!!

هذه المرَّة، لم يتسارع "آسنُ" ليلحقه... هذه المرَّة كان ينظرُ إلى الراكضين بالأفواجِ من أولئك القوم بعينِ الشفقة. تتبدى منه ابتسامةٌ بائسةٌ.. وهو يراهم يتلاحقونَ ويتزاحمونَ، يوقعونَ بعضهم ويدهسونَ البعضَ الآخر في محاولة اللحاقِ بالعَرض الجديد، حيثُ بائس آخر، أو مجنونٌ آخر كما يقول "ودود"... يعودُ إلى البلدة اللعينة ويحترق في سوادها...

- زائرٌ جديدٌ... لباسهُ من جريد... وقلبهُ من حديد... وابنتهُ الصغيرة، ذات العقدِ المُلَوَّنِ الفريد...

انتبه "آسن"...

لمَّا سَمِعَ أن الزائرَ ليسَ وَحدَهُ...

ازدادَ حماسُ الناس، ركضوا أسرعَ. كان فضول "آسن" أشدَّ منهم، فركضَ بأقصى ما ملكَ يومًا من سرعةٍ، يتخبطُ بهم ويدفعهم عن طريقه... آملًا أن يصلَ قبلَ فواتِ الأوان.

الجسرُ ما زالَ متهالكًا، حيثُ الطريق إلى فُوَّهَةِ المحرقة العظيمة. يتسلق "آسن" من سلِّم آخرَ صنَعَهُ مباشرةً إلى الجسرِ... والناسُ يُتابعون الزائرَ الجديد من الأسفل... يُهَلِّلونَ له ويصفّقون. وصلَ "آسنُ"، يبحثُ عن زائره الجديد... فإذ برجلٍ شَيَّبَتْ شَعْرَهُ المهالكُ، يملكُ جَسَدًا مفتولًا، طويلَ القامَةِ... يعدو كالرِّيح لا يسبقهُ "آسنُ" كما فعلَ مع السابقين، يقتربُ من الفوهةِ بسرعةٍ... يصرخ به "آسنُ" بالخلفِ، فلا يُعيرهُ اهتمامًا... يحملُ فتاتهُ الصغيرة على كتفه... تبتسمُ وهي تنظرُ إلى الأسفل، حيثُ أحجام الناس كالنَّملِ، و تُشيرُ إليهم وتُصَفِّق...

- انتظر... لا تقفز...!!

- لا وقتَ... المثلث... المثلث لم يكن ثلاثة أضلاعٍ...

- أيُّ مثلثٍ؟!!

بينما كان يركضُ، رماهُ أحد الهاتفينَ من الأسفلِ بحجارةٍ كالتي يرمونَ بها "آسن"... تَعَثَّرَ الرجلُ وأسقطَ ابنته... لحِقَهُ "آسن" واختطفَ منه الصغيرة..

- لا!.. ابنتي... دعها أيها الآسنُ...

- إذا أردت أن تنهي حياتك فافعل... أنت حُرٌّ... لا تُهلِكها معك، لا ذنبَ لها..

- أنتَ لا تفهم... أرجوك لا وقت، قدماي القويتان وجسدي ذاك لن يصمدا أكثر... اتركها أرجوك... اتركنا نلحقُ شمسنا...

- أنتَ مجنون...!!!

الناس لا تكفُّ عن الصياح، والمحرقةُ جاعَت... لا تكُفُّ عن النحيبِ والصراخ... لم يأتِها أحدهم منذ فترةٍ، تشتاقُ للمزيد، والفتاة الصغيرة، تربت على كتف "آسن" وتبتسم...

- شمسنا كبيرة... كبيرة ومدورة، تضحك لي كلما نظرتُ إليها... أبي سيأخذني إلى

هناك...

رأى، للمرةَ المائة بعد الألفِ، أحدهم ينزفُ ذلك السائلَ الشَّفاف من عينيه... يتوسلُ إليه ويُقَبِّل قدميْه الجريحتين اللتين لم تتوقفا بعدُ عن النزيفِ...

- لقد ذَهَبتُ إلى الذي يعرفُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر... فما وجَدتُّ أحمر ولا أخضر... أرجوك...اتركها واتركني... دعنا نلحقُ شمسنا قبلَ فواتِ الأوان...

سَهَى "آسنُ" لثوانٍ يُفَكِّرُ... فاختطفَ الرجلُ البنت وركض... حاولَ "آسنُ" اللحاق به لكنه تباطأ في الجَرْي... حتى توقف، لما توقف الرجل... الذي يحمل فتاةَ تبتسم وتُلَوِّحُ للآسن...

"فَتِّش عن الضَّوءِ الأصفر... الذي يغمرُ حُمرةَ الوجهِ، فيَزيدها خجلًا... ويغسلُ الأشجارَ، فيُنَقِّي خَضَارَها من دَنَسِ الظلالِ، ويُدَغدِغُ الماءَ الرِّاكد بالبحيرةِ المقدسةِ، فتستبشرُ، وتكشِفُ عن خفايا مخلوقاتها... فَتِّش عن الضوءِ الدافئ، الذي، يَغمُرُ مُرُوجَ الرُّمَّانِ، فتَخمَدُ الحربُ هناك... فَتِّش عنِ الضوءِ العَطِر، حيثُ لا مكانَ لِجِيفَةِ القلوبِ، حيث القِبْلَةَ الأخيرة... فَتِّش عن رائحةِ الشمسِ... تَأمَنْ"

قالها... قبل أن يقفزا، والصَّغيرةُ تُلَوِّحُ بِفَرَحٍ...

- شكرًا لك..

انفَضَّ الناس، ككل مرةٍ بلا كَلمةٍ واحدةٍ زائدةٍ. عاد المُهَرِّجونَ إلى جحورهم، والسماء اسودَّت أكثر، حتى أمطرت، للمرة الأولى على بلد الرمَّان. المطرُ أسود، كُل قطرةٍ منه هي الظلام بعينه... و"آسن"... الذي باتَ آسنًا... تغيرَ لونُهُ، سَعَى في البلدِ يصرخُ ويصيح...

- يا "ودود"... يا صديقي الودود... يا صاحبَ البَسمَةِ والموعظةِ الجميل... ابحث في كتابِكَ عن آسنَ يمشي بينَ الناسِ بالحَسرَةِ... يحكي عن حكايات اللَّونِ، الذي لم يُخلَقْ في البلدِ الذليل... يحكي عن الوجوه الملآنة بالكَسْرَة...

ظل يصرخُ ويعوي... وذاتَ العينين باردتان، لا تذرفان دمعًا، احمَرَّتا من الكُرهِ والجُرحِ، حتى وَصَلَ إلى بيتِ صاحبه... وجدَ بِقُربِهِ... عملاقَينِ..!!

اختبأ بينَ الزَّرْعِ، يراقبُ عن كَثبٍ، عربة خشبية كبيرة، يَجُرُّها عملاقٌ ثالثٌ... وجوفُهَا مليءٌ بالرُّمَّانِ الطازجَ. جَحظت عيناهُ من المنظرِ، يشاهدُ في صمتٍ... "رشيد"... يطرقُ باب "ودود"، الذي استقبلهُ بالأحضانِ والترحاب، وقَبِلَ هديةَ "الأخِ الحنون" الغالية...

بينما...

كانت السماءُ، الكَظِيمَةُ..

ما زالت تُفرِغُ ما بجوفها من سوادٍ...

تُمطِرُ ظلامًا... أطفأ كُلَّ شُعْلَةٍ ببَلَدِ الرُّمَّان.

****

11

...

أنا شابٌّ، في بلدِ الرُّمَّان...

شابٌّ، يُخطئ ويرتكبُ ما قد يرتكبهَ أيُّهُم هُنا من ذنوب...

أصومُ عن كُل مشتَهًى، في بلدةٍ، يعتقدني الجميعُ فيها واعظًا، فقط لأنِّي... في يومٍ من الأيام... كنتُ في الكهفِ مع الجَمْعِ، عند البحيرةِ المقدسةِ... نشاهِدُ الطفل الأبيضَ كالثلجِ يستحمُّ فيها، ويُحيلُ ماءها... عسلًا حلوًا.

أتعلمُ يا "فنان"؟!...

يومها، كان جميع من أتى لمشاهدة الحدث مُقبلينَ على الشُّربِ منها، يشربونَ بشيءٍ من البهجةِ. يَرْوُونَ، عَطشَ سنينٍ، إلى الفرحة. يرقصونَ في دوراناتٍ، ويضحكونَ، كما كانَ أجدادنا يضحكونِ قبلَ الحريقِ الكبير. كنتَ يومها مُعجِزة، و كُنتُ صغيرًا أراقبُكَ وأراقبُ النَّاسَ... بل... كُنتُ أصغرَ فردٍ ارتدى عباءة حمراء من جماعة الاثني عشر...

- أسَتَقبَلُ بالماءِ الآسنِ بعدَ قدسيةِ البحيرة... أيها الأخُ الحنون؟!!

هكذا هَمَستُ في أذنِهِ...

وهكذا... تَعَالى صوتي بينهم، لمَّا قرأتُ في عينيهِ قبولًا لكلامي..

- أينَ قُدسيةُ البحيرة؟!!... الماءُ وإن صارَ حُلوًا، لا تخلو شفافيته من تعكيرِ العسلِ..!!

هكذا صِحتُ بينَ الناس... التي توقفت عن شربِ الماء الحلو. لمَّا وَجَدتُ فيهم تلك النظراتِ المُشَكِّكة في أمرِ الماء... ندت مني البسمة... المرَّة الأولى، التي يُسمَعُ فيها صوتُكَ يا "فنان"، وسطَ جَمعٍ كهذا... هي بمثابةِ الضوءِ الأخضرِ لكُل شيء... وهنا انتصبت قامتي، ورفعتُ يدي للأعلى...

- لقد فقدت البحيرة عُذريَّتَها يا قوم...

ضَحِكتُ بسِرِّي... يومها... ألفَ ضحكةٍ... ضحكتُ لمَّا تذكَّرتِ يومَ أن أطفأنا النارَ التي احتضنت أجسادنا... أنا وباقي الاثني عشر... فارتمينا في البحيرة مُحَلاةِ الماء لنُطفِئها، عادت جلودنا كما كانت، بينما تركنا قذارتنا وأنانيَّتَنا فيها... فَمَلُحَ ماؤها...!!

ضَحِكتُ... كما أضحكُ اليومَ أمامك وأنا أحكي لك عن بعضٍ من أمرِ تلك البلدة...

أتُصَدِّق؟!!... صِرتُ قِدِّيسًا، أدعو النَّاسَ هنا وأمشي بينهم بالموعظةِ. صرتُ أحفَظُ كِتابَ القديرِ عن ظهرِ قلبٍ... أوَّلُ قدِّيسٍ شاب من مُرتَدي العباءات الحمراء حَظِيَ به بلدُ الرُّمَّان. كانت كلمَتِي تلقى احترامًا بالغًا من الجميع...

"القديس الشاعر... الذي رأى الآسنَ الصغير يُلَوِّثُ ماءنا"

أتجولُ بينَ الرجال الجالسينَ بالطرقات، لا يعملونَ ولا يزرعون، لا يفعلون سوى الثرثرة في كُل شيء. هنا، يُحِبُّونَ الثرثرةِ يا "فنان"، وما كُنتُ أفعَل سوى الثرثرة مثلهم، لكن قُل، كلماتي مسموعة حتى الهباء منها.

لكنِّي..

كما قُلتُ لك...

شابٌّ مثلهم، وأُخطئ... أنا كاذب!.

كانت ليلة، كحيلة، لا تَقِلُّ سوادًا عن نهارنا الذي لا يَطلعُ أبدًا... وكانت هناك فتاة... أو إن أردت فقُل "عاهرة"... من عاهراتِ البيتِ الذي صارَ أسود. رائحتها رُمَّانٌ، غَزَتْ قلبي قبلَ أنفي،

وعينانِ صيَّادتانِ لا تستعصي عليهما فريسة مثلي. جاءتني تتوسَّلُ، طالبَة رِضاي...

- ولكنْ... ماذا بِيَدي سيدتي؟!..

- رِضاكَ هو رِضا القدير..

وأنا الذي ظننتُ أنِّي سَلَكتُ دربَ الرَّبِّ بتلك السنواتِ السابقة... هَزَمَتني بضعُ كلماتٍ كتلك!!...

تَرَجَّتني يومها أن أضاجعها!!... أرادت أن تَحمَلَ منِّي، كي تُكمِلَ "طقسَ الشرعية" خاصَّتها. قالت إن تلك خدمة، على رجل دين مثلي أن يُساعدها فيها. بَكَت وارتمت عندَ قَدَمَيَّ تُقَبِّلهما... طلبَت أن يكونَ هذا هو سرنا الصغير، وأن تلك مساعدة لفتاةٍ مسكينةٍ قد تضيع فرصةُ زواجها الوحيدة. حاولتُ أن أقنعها، بأن البلدة بها رجالٌ غيري، فبَكَتْ من جديدٍ... وقرأت علَيَّ من كتابِ القدير ما أذهلني لمعرفتها تلك التفاصيل...

أتصدق؟!!...

كانت تحفظُ منه أكثر مما حفظته ورددتهُ بينَ الناس...

أقنعتني... تلك الشيطانة... بأن زوجها المستقبلي، ذا العينين الجميلتين، سَيَمتَنُّ إليَّ كثيرًا، لأنِّي سأكونُ مُتَمِّمًا لرباطٍ مقدسٍ سينقذهما... بعد أن يهربا معًا خارجَ البلدة!

في اليوم الذي، رأيتكَ فيه للمرَّةِ الثانية، تصرخُ في الطُّرُقاتِ بِحُرقَةٍ... تلعَنُ آكلي الرُّمَّانَ وزارِعِيهَ... رأيتُ أحدهم يتسول. اقتربتُ منه، أعطيته عملتينِ نقديتين. هل ستُصَدِّقُني لو أخبرتُكَ، أنها كانت المرة الأولى التي ألاحظُ تلك الكلمات المنقوشة على العُملة النقدية؟!!...

"مَجِّدِ القدير... مَجِّدِ الرَّزَّاق"

الفقراء هنا يا "فنان"، يكتفونَ ويصمتون، بأقَلِّ القليلِ يَرضون. كلما أعطيتهم تلك العملات النقدية، يثورونَ في البداية، يتحسرونَ من قِلَّتِها... لكنَّهم... سُرعانَ ما يقرأون ما نُقِشَ عليها... تنكسرُ أعينهم... ويَرضون. يتمنونَ فقط لو أن "القدير"، الذي نُقِشَت أحرُفُ اسمه على النقود، أن ينظرَ لهم بعينِ الرأفةِ. يتمنون فقط لو أنه، يُراقبُ صبرهم وجوعهم... ويصبرون.

لو كُنتَ لا تراني رحيمًا، فأستطيعُ أن أجزم لك أنِّي لم أسكت بعدها. فَعَلتُ مثلك، صرختُ في الشوارعِ وأمامَ البيت النَّجِس... وألعن البلدة والبحيرة... حتى أتاني أحدهم..!

عملاقانِ يَجُرَّانني بلا سابقِ إنذار. هددني أحدهم بالسيفِ الذي يقطعُ الجبال... صِحتُ بوجهه... أتصدق؟!.. لم أخف يومها من الأذى. قُلتُ له:

- لو مَسَستَ شعرةً منِّي، سأستنجدُ بالناس، وأنتَ تعلمُ أنِّي "أنا النَّاس"...

وقتها، ضُربتُ... حتى ارتوَت الأرضُ من دمائي التي رأيتها لأول مرة منذ وُلِدتُ. أخذانني إلى بيت "الأخ الحنون"، والحق يُقال، الرَّجُل كان يتحدَّثُ بلهجةٍ هادئةٍ، لكنها أرعبتني...

- عن أي أُناسٍ تتحدثُ يا هذا؟!... إذا كُنت تقصدُ أولئكَ الذينَ يثرثرون ولأيِّ ذي صوتٍ رخيمٍ يستمعون... فكما صَنَعَ منكَ المُهَرِّجونَ قدِّيسًا، سأُطلِقُهُم بين ذات الناسِ لِيوْحِلوا سيرَتَكَ بالقذارة... أم أنَّكَ نَسيتَ أمرَ تلك العاهرة التي تستَّرتَ عليها... يا شَقي!!!

كنتُ أسمعُ كلامهُ، بلا نَفَسٍ... حتى أنهاهُ بكلماتٍ حاسمةٍ:

- لا تَجعَلَنَّ حديثَكَ إلا فيما يُهَدِّئُ الناسَ ويَسُرُّهُم، واترك أمورَ الرِّزقِ لِمَن يرزُقُ... ولا

تجعلني أستدعيك ثانية... حتى لا أكون أشدّ عليك من المحرقةِ العظيمة... يا "مولانا الشقي"!!

لا تنظر إليَّ هكذا... أبعِد عينَيكَ الباردتين عنِّي، لن أقوَى على مواجهتهما. أعرفُ تمامًا ما يدورُ بعقلك، لم يَرَنِي أحدٌ مع تلك العاهرة بعينيه... لكنْ قُل لي... إذا كانوا صدَّقوا عنكَ أنَّكَ آسنٌ من حديثي أنا... وأنا الذي كُنتُ نَكِرة... لا أحد منهم يلحظني... ألن يصدِّقوا إذن كلامًا يأتي من "أخيهم الحنون"؟!!.

لا أطيقُ النَّظَرَ إلى نفسي، لم أعد أذهبُ إلى دورِ العبادة الكريهة التي بَنَوها من البيوت الكبيرةِ. البيوت التي كان أصحاب الشعلات الذهبية يملكونها... قبلَ حريقِ حربِ الرُّمَّانِ الأولى، حيثُ أكلتها النار وتَهَدَّمَت، لتَصِيرَ دور عبادتنا فيما بعد. اكتَفَيتُ بما أسميه ثرثرة، ويُسمونه دعوةً بينَ النَّاس. اكتفيتُ ببيعِ الكلام لقومٍ لا يفقهونَ سوى الكلام. لا أخرجُ عن السياقِ يا صديقي... هكذا أتكَسَّبُ حِصَّتي من رُمَّانِ "الأخِ الحنون"...

وإن شئتَ يمكنكَ القول...

بأنِّي أعملُ عملًا إنسانيًّا...

الناسُ هنا يا "آسن"... لا يحتاجونَ إلى سماءٍ، يرهقونَ رقابَهُم برفعِ رؤوسهم حتى يروها... لا يحتاجونَ إلى ألوانٍ، يرقصونَ فرحًا بحكاياتها، حتى إذا ما انتَهَى زمنُ الحكايات، عادوا منكسرينَ، مُكتَئِبينَ من جديدٍ... الناسُ هنا... لا يحتاجونَ إلى "شمسٍ"... فإذا أردتها أنت، ابحث عنها، ولكن تذكر... من يخرجُ من هنا، لا يعود..

ولكن انتظر...

قبلَ أن ترحلَ أريدك أن تَعِي...أنَّكَ سببُ كل مصيبةٍ وُضِعْتُ فيها. لولاكَ لما تلوَّثَت البحيرة، وما قُلتُ أنا ما قُلتُهُ يومها... لولاكَ ما عرفني الناس... الذين باتوا الآن يملكون هلاكي وبيَدِهِم أن يُنهوا أمري... لولاكَ لكُنتُ الآن مجردَ واحدٍ بسيطٍ منهم، أختبئ بينهم، وأرتضي بالقليل... لولاك... لكانت البلدةُ أفضل.

أنا ألعَنُ يومَ أن وُلِدت... ويومَ أن كَبرتَ... ويومَ أن جَعَلتَني ذليلَ "الأخ الحنون" إلى الأبد... أيها الآسن.

****

"بَنَفسج"

12

" ...
!!..."

استيقظَ...

يفتحُ عَيْنَيْنِ جميلتَينِ... غاضبتَينِ...

كأنَّ فَتْحَهُما مثل غَلقِهما...

ظلامٌ مُتَشَبِّعٌ... بالغُرْبَةِ.

استيقظَ ليجد نفسَهُ، في بطنِ الظلام، يبحثُ عن مخرَجٍ... بلا جدوى. آخِرُ ما يتذكَّرهُ هو تلك

الجموع من أهلِ الرُّمَّانِ، يحاوطونَهُ، يحمل كل شعلتَهَ، يوَجِّهُهَا إليه، يُعَرِّيهِ أمام الأعينِ. آخِرُ ما يتذكَّرهُ هو نظرةُ "رُمَّانَة"، التي كانت تقِفُ بجوارِ أحدهم... من حاملي الشُّعلاتِ الذهبيةِ... تحتضنُ ذراعه وتستنجدُ بجاهِهِ، بينما يتقدمها هو، كأنه يحميها من ذلك الآسن، الطَّريح أرضًا. يتذَكَّرُ تلك النَّظرة من "ودود"، الذي وقفَ بجوارِ "الأخ الحنون"، حيثُ... ألقى الأخير خطابَهُ أمام الجميع... فاتحًا ذراعَيهِ إلى الآسن...

"لقد مَدَدْنا لكَ يَدَ العونِ، رغمَ أنَّكَ لوَّثتَ بحيرتَنَا... آويناكَ في أكثَرِ الأماكِنِ قداسةً في البلدة... تركناكَ تتجولُ بيننا كما لو كنت بالفعلِ واحدًا منَّا... وكُنتُ- أنا- "الأخ الحنون"، الذي يسعى لمصلحتك، أكثر القوم حرصًا على سلامتك، أتركك تروي حكاياتِكَ الفارغة بين قومي، عنِ الألوان العجيبة، والعالم الآخر... والآنَ... الآن فقط... تنشُرُ الوباء بينهم؟!!... تنشرُ خرافاتِكَ المجنونة بينَ قومي؟!!... أهكذا ترد الدَّيْن؟!!"

وقفَ على قدمَيه، بالكاد تحملانه. تحدثَ إليهم بهدوءٍ وأسًى...

"أنا لم أكن يومًا منكم... ولا كُنتم منِّي"

استيقَظَ مفزوعًا، يتذَكَّرُ كيفَ حملوه، وفي الأقفاصِ الخشبيَّةِ العملاقةِ... زَجُّوهُ. يلقي عليه كُل من يَمُر به القذارة، والحجارة... التي كانَ يرسمُ بها آلامَهُ. يحملُ القَفَصَ عملاقٌ كريهٌ، ظَلَّ يمشي بِهِ في ظلام البلدة، والشُّعلات المرتعِشةُ تُضيءُ الطريقَ بخَجَلٍ، حتى أتت آخرُ واحدةٍ... وانطفأت... حيثُ نهاية البلدة، وبدايةُ الملكوتِ خارجِها. سورٌ عظيمٌ، خَشَبيُّ البِنْيَةِ، يَحدُّها، ولا يسمَحُ إلا بالخروج منها. أُلقِيَ القفصُ بالخارج، حيثُ ظلامٌ ما بعدهُ ظلامٌ، ورياحٌ عاصفةٌ. تتلقَّفُ الأرضُ الرملية القفصَ الذي ارتطمَ "آسنُ" بكل زاويةٍ منه، بينما أخذت الرياحُ تُقَلِّبهُ بينَ كَفَّيْها. مهما فتَّحَ عَينَيهِ، لا يرى شيئًا... فظَنَّ لوهلةٍ... أنه أُصيبَ بالعمى... حتى انزلقَ القفصُ، على وادٍ، يسحبهُ لأسفلِ طريقٍ غيرِ معلومِ النهاية....

- يا "ودود"... يا صديقي الودود... يا صاحبَ البَسمَةِ والموعظةِ الجميل... ابحث في كتابِكَ عن آسنٍ يمشي بينَ الناسِ بالحَسرَةِ... يحكي عن حكايات اللَّونِ، الذي لم يُخلَقْ في البلدِ الذليل... يحكي عن الوجوه الملآنة بالكَسْرَة...

أخذَ يصيحُ، يُنَاجي صاحِبَهُ...

يكررها، فلا يسمَعُ سوى صوتِ ارتطامِ القفصِ بالأرضِ الرملية، يتدحرجُ للأسفلِ... ولا يَشعرُ بشيءٍ إلا ارتطامَ رأسِهِ بزوايا الأقفاصِ... حتى فقَدَ الوَعي.

يستيقظُ، يقفُ على قدمَيهِ، يتلفتُ في الظلام محاولًا الإمساكَ بقُضبانِ القفصِ... لا قَفَص. باتَ حُرًّا منهُ، سَجينًا في قفصٍ آخرَ. يركضُ كيفما يشاءُ من المسافاتِ، فلا الظلامُ ينقشع، ولا المسافات تنتهي. يشعرُ بأن السِّجن الحقيقي هو بتلك الحرية التامة، خارج القفص. يتذَكَّرُ الفحم، وكل شيءٍ أسود قابله ببلد الرُّمَّانِ. يتذكر أيضًا، تلك المقولة التي تلاها عليه "ودود، في كتابِ القدير...

"

... ...

"

يُفَكِّرُ بالكلماتِ، التي لم يفهمها من قبلُ. يُقَلِّبُها بعقله، يبدأ بالحَفرِ. يحفرُ حُفرةً بيديْه اللتينِ لم تتوقفا عن كَبشِ الرمالِ، والرياحُ العاصفةُ تشتَدُّ... وكلما حفرَ عميقًا، حرَّكَت الرِّياحُ الرمالَ من حولِهِ... لِتَملأ الحفرة، التي كانَ "آسنُ" يحاولُ دَفنَ نفسِهِ فيها... حتى تهدأ الزوبعة... ويَرضَى عنهُ القدير.

"آسنُ" يدفنُ رأسَهُ، في الرمالِ الباردة، فلا يختلفُ الظلام بالأسفلِ عن الأعلى. يُطبِّقَ كلام القدير، كما تَلاهُ عليه "ودود"...

- ولكن... لماذا لا تذهبُ الزوبعة؟!!... لماذا؟!... لقد فعلتُ كما قال لي "ودود"...أهذا ما كنتَ تقصده أيها القدير؟!!... أهذا ما أَرَدتَهُ؟!!... أن تُذِلَّني وتوحِل رأسي في التراب؟!

لا يكُفُّ عن الصراخ، وركلِ الرمالِ التي لا يعلمُ مصدرها. لا يكُفُّ عن الركضِ والرَّكض... ثمَّ السَّيرِ على اثنتَينِ... ثمَّ الزَّحْفِ على أربَع، حتى هدأ، خارَت قواهُ، وعلى ركبتَينِ جَريحَتَيْنِ جَثَى... وكان آخرُ ما رآهُ، كُرَةً حمراء صَغيرة، من بعيد... يناديهِ وَهَجُها بحرارةٍ، مَدَّ يدَيْهِ إليها، يُحاولُ الإمساك بها، حتى ترتسمَ على شفتَيهِ تلك البسمة من جديدٍ... قبلَ أن يسقطَ مغشيًّا عليه.

****

13

" !!"...

حتى مدَّةٍ ليست ببعيدة من الزَّمنِ، ظَنَّ أن ما كان يَمُر به هو محضُ كابوسٍ مظلم، وأنَّ، عينيهُ ستَفتَحانِ في أي لحظةٍ... لكنَ ما إن أفاقَ من غفلتِهِ مرَّة أخرى... حتى وجَدَ الكرة الحمراء المضيئة على ذاتِ المسافة البعيدة. أخذَ يركضُ، يلهثُ من الحماسِ... لا من التعب... كلما اقتربَ أكثرَ من مصدر الضوءِ، الذي كَبُرَ واتَّسَعَت دائرتُهُ... حتى وجدَ نفسَهُ أمام مدخلٍ شاهقٍ... لجوفِ ما يشبِهُ الكَهف. ألقى نظرة قبلَ أن يدخُلَ... على القناديلِ الزَّاهِيَةِ بأضواءٍ حمراء... ليسَت بنارٍ كالتي يعرفها...

- هل من أحدٍ هنا؟!!...

لم يُجِبهُ مُجيبٌ...

اجتازَ المدخلَ، يرتجفُ من البردِ بالخارج. يُراقبُ الممر الواسع، ويَتَتَبَّعُ القناديل المضيئة. يلمسُ إحداها، هلامية الملمس، فورَ أن لكَزَهَا بإصبعهِ؛ انقلبَ ضوؤها الأحمرُ أخضرَ... وتَبِعَتهُ سائرُ القناديل... أمسى الطريقُ أخضرَ مُشِعًّا. سارَ في الممرِ الذي لا ينتهي، والأضواءُ التي لم يعرف مصدرها لا تنطفئ... وعندَ آخر قنديل... بدأت همهماتٌ في الانتشارِ من حوله... تحولت... إلى ضحكاتٍ خبيثةٍ... تتسرَّبُ من كل جهةٍ...

- أتيتُ بِسلامٍ... لا أريدُ إيذاءَ أحدٍ...!!

تعالَت الهمهمات، وبدأت أصواتُ أنفاسٍ تحومُ حولَهُ، حتى ظهرَ أحدهم، من خلفِهِ، يُكَبِّلُ ذراعَيهِ... وأيادٍ كثيرةٌ، من حولهِ تمسكهُ... وتهمس:

- لقد وصل...!!

- أتيتكم بسلام!!... صدقوني لم أقصد التطفل..!!

أغشى أحدهم عينَيْهِ بالسواد، حملوه وركضوا بِهِ إلى حيثُ لا يدري.

أزالوا القماش الذي حولَ وجههِ، ليرى ما أذهَلَ كُل ذرةٍ من كيانه...

ألوانٌ عجيبةٌ، تَدْهِنُ الصخورَ حولهُ، تُبَطِّنُ أسقُفَ الكهفِ العالية، يَلمعُ طيفُهَا الذي تزيده الأنوار الخارجة من القناديل المعلَّقة على كل جانب...

- أينَ أنا؟!!...

- انتظرناك زمنًا...

قال أحدهم، رادًّا على "آسن" الذي... بدا لوهلةٍ غريبًا عمن حولهُ من أناسٍ... يصبغُ جسدَ كلٍّ منهم لونٌ، صافٍ، لا يشوبهُ لونٌ آخر..!

رأى، أطفالًا، يلعبونَ ويتسابقونَ أمامهُ...

طفلٌ أصفر، وآخرُ أحمر... وطفلةٌ وردية، وأخرى خمرية...

ورأى..

عاشِقَين، لونَاهما نَقيَّان، يجلسانِ على مقربةٍ منه. يستندانِ إلى صخرةٍ مُلَوَّنةٍ، بديعةِ الشكلِ، يتلوانِ ترانِيم؛ شَعَرَ "آسنُ" أنهَ سمعها من قبل، لا يلقيَان بالًا بمن حولهما. رأى الجميعَ يتحركونَ صوبَهُ، كُلٌّ له لونٌ نقي... أحدهم يحملُ حجرًا، لامعٌ سطحُهُ كأنَّهُ مرآة، قرَّبَهُ من "آسنٍ" الذي بدا مذهولًا من سكان الكهفِ... ليرى نفسَهُ ولونه، للمرة الأولى... رماديٌّ مُلَطَّخٌ من كُلِ لون.

****

14

"هي الدَّابَّة، التي خَرَجَت من النَّهرِ لتلتهمَ كل ساكني "مدينة الأطياف". هنا أيها الغريب، ترعرعنا، كَبرنا من الظلام، وأكلنا من الظَلام... هنا... كان الواحِدُ منَّا لا يعرفُ له شكلًا ولا لونًا، نتعاملُ بالأصوات، نتلمَّسُ طريقنا بأيدينا، و نعرفُ بعضنا بنبراتِ الصَّوتِ... ثم... تأتي تلك الدَّابَّةُ العظيمة، تُطِلُّ علينا من النَّهرِ الذي لم نعلم بوجودِهِ إلا عندما ابتلعت جماعةً منَّا، وهربت بنا إليه. وجدنا أنفسنا بداخلها، وبواقي مُدُنِ التَهَمَتْها، وجُدرانُ مَعِدَتِهَا كانت مُضَاءةً بتلك القناديل الغريبة، لا نعرفُ مصدرَ نورها، هلامية، كلَّما ضغط عليها أحدنا، كانت تعصرُ عصارة، إذا دَهَنَتْ الواحد منَّا صبَغَتهُ، فيُسَمَّى بذلك اللون".

اشتَكَى أحد المُلَوَّنين إلى "آسن"، الذي عَرَفَ أن المدخل الذي أدخله إلى هنا... كان فَم تلك الدَّابَّة العملاقة. تخرجُ من النهرِ لتأكل وتُسبب الخراب لأقربِ بلدٍ تجده، وتعود إلى النهر الأسود. لمَّا سأله "آسن" عن ذلك النهر، قال الملوَّنُ الشّاب إن الدَّابَّةَ قَتَلَها أحد سكان قومِهِ، لمَّا التهمتهم بالأرض التي كانوا يسكنونها. سكنوا جوف الدَّابَّةِ أعوامًا، كانوا آمنينَ بها، يستنيرونَ بالأنوار، والحجارةِ الغريبة التي وجدوها بجوفها. سأله "آسنُ" عن تلك الحجارة، التي كان قد رأى مثلها في الكهفِ حيثُ البحيرة المقدَّسة...

ابتعدوا عنه...

فَزِعوا، لمَّا ذَكَرَ البحيرة المقدسة...

حاولَ "آسن" أن يطمئنهم، أنه لم يأتِ بالشر، قال، مغيرًا دفَّة الحديث... إنه سمعهم يقولون "انتظرناك".

- نعم، أنت لمستَ إحدى القناديل حمراء الضوءِ لِتُغَيِّرَ ضوءها إلى الأخضر... ألستَ ذلك العرَّاف الذين يتحدثونَ عنه؟!!

- مَن؟!.. مَن هُم؟!

- القبائل الأخرى..

- ولكن أخبروني... هل نحنُ حقًا.. الآن... بداخل وحشٍ عملاقٍ؟!

سكتوا عن الهمهمات، وتوقف الأطفالُ عن اللهو...

- لا تقل وحشًا... إنها دابَّة، عظيمةُ الحجم، لولاها لكُنَّا الآن على حالنا السابق، تائهينَ في ملكوتٍ شاسع الاتساع، مرعب الظلمة، لولا تلك الدَّابَّة لكُنَّا بلا صِبغة أو هوية...

- إذن لماذا قتلتموها؟!

- لم نفعل... "الأبيض الهادئ" هو من فعل... لمَّا تجولَ بجوفها، محاولًا استكشاف طريقٍ للخروج، وجدَ شيئًا نابضًا، بحجمِ تَلَّةٍ...

- ماذا يكون؟!

- لا ندري... لكنَّه غرَسَ فيه رُمحًا وجدهُ بإحدى الزوايا، حيثُ ابتلعت معدات حربٍ من بلدةٍ ما لا نعرفُ لها حقيقة...

- وماذا بعد؟!

- توقف ذلك الشيء النابض، وتوقفت حركةُ الدَّابَّة... خرجنا من جسدها، بعدما حفرنا في أبعد جزءٍ من جسدها، خرجنا منها، حيثُ للمرَّةِ الأولى... رأينا ذلك النهر..

عندما أتى ذِكْرُ "النهرِ" على لسانِ الرَّاوي، وقفَ الجميع، نظروا للأعلى وأغمضوا أعينهم، وبكوا...

- كيفَ كان... ذلك النهر؟!

- كان لونه غريبًا، لونٌ لم نرَ مثله من قبل... غامق... ليس بالأسود، ولكنه غامق، احترنا فيه. كانت تعلوه سحاباتٌ كثيفات، لا نعلمُ ما تُخفيه... لكن... ذلك الشعاع الضوئي الذي... يخترقُ إحداها، ويغطسُ إلى الأسفلِ، فيُحدِث بقعةَ نورٍ على النهرِ... تلك البقعة المُنِيرة، عرفنا قيمتها فيما بعد...

لم تتوقف حكاياتهم عن النهر العظيم، وعن تلك الدَّابَّةِ التي لا يعلمون أصلها، والتي، صار جوفها مسكنًا لهم. سألهم "آسن" عن ذاك الذي ينعتونَهُ بال-"أبيض الهادئ"، فقال أحدهم إنه أحد السكان القدامى... أصيبَ بمرضٍ ما، بعد أن قتلَ الدَّابّة، بات مشلولًا لا يقوَى على الوقوف والسَّير... هذا "الهادئ"... هوَ الوحيد في أولئك القوم... الذي كان أبيض كالثلج. لم يتغير لونه حتى بعد أن لامسَ الصبغات التي تُعصَرُ من القناديل. "لم يَكُن غريبًا عنا، لكنه كان أغربنا"... هكذا قال آخرٌ من الجالسين. قالوا بأنه صارَ يحكمهم، اجتمعَ حوله من كانت ألوانهم زاهية، وقد كان. اتَّخَذوا من الأماكنِ القريبةِ من النَّهرِ سكنًا لهم... بينما... ظل الباقونَ بالداخل، لا يحِق لهم الخروج إلا في "موسم الاغتسال"... حيثُ كانت المرة الأولى التي عرفوا فيها تلك البقعة في النهر التي يضيئُها شعاع النور بالأعلى..!!

- أتعلمون؟!... أظنكم تُشبهونني... أظن أن هذا موطني... إذ من حيثُ أتيت، أنا الوحيد المُلَوَّن، هناك كنتُ "آسنا"... أما هنا، فأنا لا أختلفُ عمن سواي..

- لكنك لستَ بِلَونِنَا!!...

- لكنِّي... مُلَوَّن...

- لا تُشبهنا... أنتَ خليطٌ عجيبٌ، لم يسبق لنا أن رأينا مثله...!

قالها أحدهم، لتعود الهمهمات من جديد... والجميع ينظرُ إلى "آسن" بِتَخَوُّفٍ.

- ألستَ الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر؟!!

غَضِبَ "آسن"... رفسَ الأرضَ بقدمَيهِ، ظل يصرخ..

- أنا أبحثُ عن هذا الذي يَعْلَمُهُمْ... أبحثُ عنه.. فلا تنعتوني بهذا الاسم!!!... طُرِدتُ من بلدي لأنّي أبحثُ عنه... عن ذلك اللعين الذي يعرفُ كل شيء...!!

تجمهروا حوله، والغضبُ يملأ وجوههم...

انقضُّوا عليه، ينهالون بالضربِ والرَّكلِ. يشتمونهُ بالـ"آسن" والملوَّثِ والنَّجِس... وآخرون يبعدونَ أولادهم وأطفالهم عنه، كيلا يتلوَّثوا بلونه المُخَلَّط. أسالوا دمهِ من جديدٍ، أحدهم قفز على ظهرِهِ، وانهالَ على وجههِ بصخرةٍ حادةِ الأحرُفِ... رَسَمَ خريطةً تعريفيةً جديدة... لوجهِ "الآسنِ".

- لا تقتلوه الآن... لنأخذهُ إلى "الأبيض الهادئ"...

حملوه، مغشيًّا عليه، لا يعي من أمرِهِ شيئًا. مَشوا بهِ إلى داخلِ الدَّابَّةِ، سلكوا دربًا أخذَ في الاستنارةِ أكثر كلما مضوا إلى آخرِهِ... وأخذت الرائحةُ الكريهة في الذوبان بالهواءِ المنعش. ألقوهُ خارج الدَّابَّة، حيثُ النهرُ الأسود أمامه، والظلامُ حولهُ، لا يرى سوى تلك البقعة في النَّهرِ، شديدةُ الإضاءة، بالنورِ الأصفرِ الساطع، المولود من السحابات الكثيفات المظلمات بالأعلى... وأحدهم ينادي بصوتٍ رخيمٍ...

- يا أهلًا بالآسنِ... يا أهلًا بالعدوِّ... من قومِ الرُّمَّان...!!

****

15

بيتٌ صخريٌّ، نُحِتَ في الجبلِ المواجهِ للنهر الأسود. خَدَمٌ باهِتو الألوان، يطوفونَ بالداخل، يشبهونَ بعضهم، لا يفرقهم سوى نبرةِ الصوتِ... ورجلٍ... ثلجيِّ البياض، يتّكئ على مصطبةٍ من صخرةٍ منحوتةٍ، ينظرُ إلى "آسن"، يتأمل هيئتهُ ولونهُ الرماديَّ الغريب... ثم ينظرُ إلى لونِهِ هو الأبيض... ويضحك ويصفق بيديه كطِفلٍ راشدٍ.

- أعتذرُ عمَّا فعلوه بكَ الهَمَجْ... كفاك كسلًا وقُم تحدث معي..!

بنبرةٍ هادئة، قالها... و"آسنُ" يتقلَّب في نومته، مُكَبَّلٌ بالحديد، يَلبَسُ من قماشِ السُّندُس، يفتحُ عينَيه ليرى رجلًا شديدَ البياضِ، يرتدي حريرًا أبيض، عيناهُ وشعرهُ ولحيته كأنَّها الليلُ... يرقدُ أمامه، يتطلّعُ إليه بِشَوقٍ...

- أين أنا؟!!..

- أنتَ في ضيافَةِ "الأبيض الهادئ"... في ضيافتي يا "آسن"... ألستَ تُدعَى هكذا في بلدك؟!

حاولِ "آسن" الهربَ من مكانه، تَرُدُّهُ السلاسلُ الحديد... والرَّجلُ القَعيد لا يزال إليه ناظرًا، مُتَطَلِّعًا لأي كلمةٍ تخرجُ من فمهِ.

- ولكن... من أينَ تَعرفني؟!

- الأغبياء ظَنُّوكَ ذلك العرَّاف، يتحدثونَ عنه طوال الوقت... أنا أعرفُكَ جيدًا... بلادُنا

تَرسِلَ إليكَم أفضل أنواعِ البخور والأحجارِ المُلوَّنَة...

- عن أي بلادٍ تتحدث...؟

- ألا زِلتَ نائمًا؟!... حرب الرُّمَّان... تلك الحرب التي تُبادلونا إياها...

اقتربَ "الأبيض الهادئ" منه... أخذَ يتلمَّسُ جسدَهُ الرمادي، تعلوهُ الدهشة والإثارة..

- هذا جسدٌ لم أرَ مثله من قبل... لم أختبرهُ من قبل...!!

قالها... وابتسمَ بِخُبثٍ. اضَّيَّقَتْ عيناهُ، يُحَرِّكُ إصبعهُ بِدلالٍ بِفَمِه... بينما، ازداد قلق "آسن".

- عندما أُرسِلُ رجالنا بالبخور إلى بلدتكم، كانوا يأتونني دومًا بأخبار... عن شابٍّ لونه غريب، مختلف، يمشي بينَ الناس بحكايات وأقاويل غريبة، عن أحجارٍ ملونةٍ وسماء سوداء، عن عالمٍ آخر لا حربَ رمان فيه... عن ضوءٍ أصفر يوجدُ بمكانٍ لا يعلمهُ أحدٌ سواه...

- أنا لا أعلم مكانه... أنا أبحثُ عنه، وقد أتيتُ باحثًا عن ذاك الذي يعلمُ ما بين الأحمرِ والأخضرِ، يعلمُ الماضي والمستقبل ويصنع الحاضر... علَّهُ يُعلمني من أمرِهِ شيئًا ينفعني!

نادَى "الأبيض" على خَدَمِه، أتوهُ مسرعين. تَعَجَّبَ "آسنُ" من أولئكَ الخدم، يشبهون القوم الذين ضربوه بالخارج، لكنَّ ألوانهم باهتة، تكاد تنعدم، مُنَكَّسي الرأس لا يرفعون أعينهم من الذُّل. أمَرَهُم بِحَلِّ وثاقِ الآسن... قال له "أنتَ ضيفي الآن". انطلَقَ الخَادمان يَجُرَّانِ عربة يقعُدُ عليها "الأبيض"... ثُمَّ بدأوا جميعًا بجولةٍ بالبيتِ الصخري المنحوت في الجبلِ... وكُل نافِذةٍ فيه على طول الممرات تُطِل على النهرِ الأسود.

- ما بال أولئكَ الخَدَم؟!... لمَ لونهم...

- دعكَ منهم، قُل لي... هل أعجبتكَ بلدتنا؟!

- حسنٌ، ربما تعرَّضتُ للضربِ منذُ قليل، لذا...

- أنا أعتذر مرة أخرى، لكن لن يمَسَّك أحدٌ بسوء هنا..

- شَعَرتُ أنِّي أشبههم، لا أعرفُ لماذا تحولَ لوني هكذا، لكن على الأقل... أنا مثلهم... مُلَوَّن.

سكتَ "الأبيض الهادئ"... لفَّ ذراعَهُ حول "آسن"، أمَرَهُ بألا يُشَبِّهَ نَفسَهُ بأولئكَ الهَمَج. لمَّا وجدَ "آسن" قليل الكلام، بدأ يحكي له عن بدايةِ مملكتِهِ تلك...

"أن تكونَ بالصحراءِ الموحِشةِ تحيا، والظلامُ يُكَبِّلُ حركَتك بوحشيةٍ... تتمنى لو أن الموت يأتيكَ ويلتهمك، يُحَررك من ذلك الضلال... نعم... ويا للسخرية... تمنَّينا جميعًا الموت، أو أن يبتلعنا وحشٌ يريحنا من عذابنا... حتى أتت تلك الدَّابَّة، التي جَعَلَت من كل فردٍ منا مَلِكًا... أعطته صبغةَ لونٍ يتلوَّنُ بها من تلك العُصارة، نقلتنا من الرمالِ الباردة إلى حيثُ النَّهر. كانت المفاجأة، أننا لما خرجنا منها، تذوقنا ماء النهر الأسود، المالحة اللعينة، ما طاقَ أشَدُّنا بأسًا طعمها... لدينا نهرٌ هائلٌ وماؤهُ لا يصلحُ للشرب... يا للسخرية!! عُدنا إلى داخلِ الدَّابَّةِ الميتةِ، التي قتلْتُهَا برُمحي... عدنا بعدٍ خيبةِ الأمل في النهر... بحثنا في داخلها عن أي شيء، ورائحة جسدها المتعفِنِ تزداد عفونةً مع انقضاءِ كل يوم... حتى وجدنا... بجوفِ معدتها الأكثر عُمقًا... ثرواتٍ هائلة، مُرعِبٌ ما وجدناهُ من الذَّهَبِ والحجارةِ المَاسِيَّةِ... وتلك المادة الصخرية، التي ما إن نحرقها بالنارِ حتى تُستَحضَرُ منها الروائحُ العطرية كالأشباح، تُطِيحُ بِعَقلِ الواحدِ منَّا، فيرتخي

ولا تغادرُ الابتسامَة وجههَ حتى تنتهي الرائحة".

كان "آسنُ" يستمعُ إليه، بإنصاتٍ شديدٍ، حتى إذا ما مَرَّوا على النافذةِ الأخيرةِ، رأى منها بعضًا من أهلِ البلدة، يستحمونَ في النهر... في تلك البقعة التي يسقط عليها شعاع النُّور...

- سيدي... من أين يأتي ذاك الشعاع؟!... هناك!..

- لا نعرفُ... ربما يأتي من الأعلى، حيثُ القدير... اسمع، لا نسأل عن تلك الأشياء هنا... المهم ما يفعلهُ ذلك الشعاع بنا.

صرخ أحدهم بالأسفل، كان يستحمُّ في النهر... لمَّا أراد أن يقترب من بقعة الضوء، جَلَدَهُ الحراس بِكَرَابِيج معدنية السَّوط، أخرجوه، ثم صاحَ "الأبيض الهادئ"... الذي ما عادَ هادئًا في تلك اللحظَة...

- ألم يَقولوا لك إن يومَكَ لم يأتِ بعد؟!!... لماذا يُجبرني هؤلاء الهَمَجُ على إيذائهم؟!!

ابتسمَ لـ"آسن"، قال بأنه لا يغضب هكذا على الدوام، إلا عندما يدفعهُ أولئك البهائم إلى الهاوية، حيثُ لا مجال آخر للأمرِ أو النَّهْي.

وصلا نهايةَ الرحلة، داخل البيت المنحوت. أمرَ "الأبيض الهادئ" خَدَمَهُ برعاية "آسن"، وأن يُلبوا أي طلبٍ له. تركه يستريح حتى ليلة الغد... ولمَّا أدارَ "الأبيض" ظهره... نقرَ أحد الخَدَمِ باهِتِي الألوانِ على كتفِ "آسن". قَرَّبَ فَمهُ من أذنِهِ... وهَمَسَ:

- اهربْ...!

****

16

" " " "...

آسف، لأنِّي أخَفْتُكَ بالأمسِ...

أكتبُ إليكَ اليوم، على تلك القماشة من ملبسي، ولم أغير رأيي بعد... اهرب!

المكان هنا لن يُناسبك، ومن تبحثُ عنه لم يوجَد ولن يوجد هنا. هنا، ستجدُ فقط مجموعةً من معدومي العقل، كانوا بلا ملامحَ، قبل أن تلتهمنا دابَّةٌ عملاقةٌ جعلت منا قومًا... هنا... لا أحد يعرف الآخر، ولا أحد يهتم بالآخر يا سيدي الآسن. أنا أفهمُ تمامًا لماذا ضربوكَ وآذوكَ، فقط لأنك لستَ ذلك الذي يعرفُ ما بينَ الأحمر والأخضر... وأعرف... أنهم سيؤذونَ كل من يأتيهم بعدك. ربما كنتَ تظن أنك تشبههم، فقط، لأنك مُلَوَّن... وهذا يا سيدي ضربٌ من الغباء...

اقرأ رسالتي إلى النهاية، واحكم بعدها!

أكتبُ إليكَ سِرًّا، وحولي يُجاورني الكثير ممن بَهتَتْ ألوانهم مثلي، لأننا، لم ندفع الضريبة كالباقين. ستسأل عن أي ضريبةٍ أتحدث... وسأرد:

"ضريبة الغُسْلِ في بقعة النهر المُضيئة"

كما قُلتُ لك يا سيدي من قبل... واعذر لي خوفي وارتباكي وأنا أكتبُ لك... نحنُ كِنا قومًا بِلا صبغةٍ، بلا لونٍ... حتى اكتشفنا تلك العصارة بداخل القناديل المُضيئة، التي أعطت لكل منا لونًا لا يُشبه الآخر. بتنا نُفَرِّقُ بين بعضنا، وبتنا نُسَمِّي أنفسنا بأسماءِ ألوان. لفترةٍ من الزمن، سادَ عصرٌ جديدٌ على تلك المخلوقات البائسة، ظنَّت فيه أنه صار لها هوية بين القبائل... حتى أتى اليوم الذي...

صرخت فيه إحدى إناثنا، لما بدأ لونها في البُهتانِ... حتى اختفى تدريجيًّا، وعادت باهتة كالسابق...

بيد أن..

لما كنا نعيشُ في الصحراء المظلمة، لم نكن نعرفُ أننا باهِتو اللون... كان الظلام يغشانا، ولم تكن تعنينا بالأصل أشكالنا وصفاتنا...

ولما دخلنا تلك الدَّابَّة، واستنَرْنا بأنوارها، بدأنا نعرفُ حقيقتنا، بدأنا، نرى عيوبنا... عرفنا أننا كنا قومًا خاوينَ، باهتي الألوان... ووقتها، قَدَّسنا تلك القناديل وتلك الأصباغ بها، التي أعطتنا هوِيَّة تُمَيِّزنا...

تكررت تلك الحادثة، وبدأ لون واحد تلو الآخر بالاختفاء... بدأنا نعود إلى بهتاننا الأول.. حتى، اكتشفَ أحدنا... أن الاغتسال في البقعةِ المُضيئةِ من النهر الأسود، يُعيد إليه صبغته، يُعيد إليه لونه كما كان.

هنا يا سيدي الآسن... بدأ كل الطغيان، الذي أعتقد بأنك رأيت جزءًا منه بالأمس...

أقامَ "الأبيض الهادئ" سورًا، يحجبُ النهرَ عن القوم التائهين المساكين. إذا أرادَ أحدنا أن يغتسلَ ليعودَ لونُهُ، كان لِزامًا عليه أن يدفعَ ضريبة... أطلقَ عَليها "ضريبةَ الغُسْلِ"...

ليس هذا كل شيء... الناس هنا أغبياء، مساكين... لكنهم قطعًا لا زالوا يُفكرون، وقد تجد في بعضهم من الحكمةِ والرزانة ما يُشعِلُ نارًا من التساؤلات في عقولهم... كما فعلَ أحدهم...

"أتدفعونَ لِكَي تأخذوا ما هو حَقٌّ لكُم؟!... أنتم من صنعتم ذلك الأبيض الهادئ... لا تتركوا ذلك القعيد يتحكم بكم"!!

قالها أحدنا، كان قد بَهتَ لونُهُ، ثارَ في الناسِ... الذينَ ما أن التفتوا لتلك الكلمة... "قَعيد"... حتى باؤوا بغضبٍ شديدٍ... وهنا يا سيدي، حَوَّلَ "الأبيض الهادئ" الأمرَ إلى رؤية... رؤية أتته من "القدير" فيِ نومِهِ...

"يومَ أن أصِبْتُ بلعنة الشلل تلك، أتتني رؤية، في منامي... حيثُ كنتُ أسبحُ في ظلامِ صحرائنا. تائهٌ أنا في تلك الرمالِ الباردة، أرتجفُ خوفًا على قومي، وأسألُ "القدير" أن يحفظكم... لأجد ذاكَ النور باديًا في الأفقِ... وأجدُ نفسي ألهثُ لأصِلَ إليه. هناك يا سادة، وأنا أقتربُ من النور، كنت واقفًا على قدمَيَّ، وما إن لامستهُ بأصابعي... خَارَت قوايَ، شُلَّت قدمايَ... سَقَطت. بكيتُ كثيرًا، حتى أتاني صوتُ القدير من الأعلى... قال "لقد اقتربتَ أكثر من اللازم، وسألتَ عن المسكوت"... يومها يا قومي، يا من صنعتم منِي مَلِكَكُم... عرفتُ بأن الذهابَ إلى الضوءِ بحِسابٍ، نأخذُ ما نأخذ، ولا نسألُ عما لا يعنينا..."

أنت تضحك الآن... أليسَ كذلك؟!...

هذا كلامٌ لا يصدقهُ إلا ذو عقلٍ ناقصٍ... أوه، بالطبع... تمامًا كأغلبِ سكانِ تلك البلدة!!

بتنا منذ ذلك اليوم عبيدًا للأبيض، كلما بَهتَ لون أحدنا، يدفع الضريبة، ويغتسلُ في البقعةِ المضيئةِ من النهر... يعودُ إلى لونه الذي كان عليه. هناك البعضُ... الذين صاروا مع الوقتِ أكثرَ بكثيرٍ من مجرد أعدادٍ بسيطةٍ... لم يقدروا على الضريبة، عادوا إلى البُهتانِ الأول... عادوا بلا صِبغَة... منهم من قُتِلوا محاولينَ القفزَ في النَّهرِ، ومنهم من غرقوا محاولينَ الهَربَ عبرَ ذات النَّهرِ...

لا تستغرب يا سيدي الآسن...

حاولَ أكثرنا الهرب، حتى أولئكَ الذين ما زالوا على لونهم يُحافظون... أمَّا من لم يقدر على الهربِ،

وقد بَهتَ لونَهَ... فلا ملجأ له سوى البيت المنحوت، هنا... وتحديدًا يا سيدي... تلك الغرفة التي تنام أنت بها!!...

الحياة هنا لا تُناسبك... يومًا ما... ستنفدُ العصارة بداخل القناديل، وسَتُولَدُ أجيالٌ لا تعرفُ طَعمَ اللونِ...

يومًا ما..

سيتآكلُ جسدُ "الدَّابَّةِ" التي قاربَت على التَّعَفُّنِ، حتى صارت رائحتها تجوبُ البلدان الأخرى... وزاحَمَت فضيحتنا ذرات الهواء من حولنا...

يومًا ما...

كُلُّ ما سيتبقَّى لنا هو هيكلها العظْمي، الذي لن يؤوينا من الظلام بالخارج، بينما... "الأبيض الهادئ" ومن يعملونَ في ملكوتِهِ... قد آووا إلى الجبالِ، وعَمِلوا من قساوَتِها بيوتًا لا تهزُّها أعاصير...

أعرفُ أنِّي أطلتُ عليك... وأن أمنيتي بأن تنهي الخطاب حتى النهاية هي أقصى ما لديَّ...

لكن... ربما لو تَبِعتَ مصدرَ الضوء الأصفر الآتي عبر الغيمات الكثيفات بالأعلى... ربما قد تَجِد ذاك الذي تبحث عنه...

"الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر"

اهرب...!!

****

17

الأيامُ متشابهةٌ، "آسنُ" يتجولُ في البيتِ المنحوتِ، يُراقبُ الخَدَمَ باهِتي الألوان. ينظرُ في وجوهِهم، ينظرونَ إليهِ بذات النظراتِ المُنكَسِرة، تختبئُ أعينهم منه. يبحث بينهم عن الذي بَعَثَ له بالرسالَةِ أمام باب غرفته. يتذكَّرُ تلك الكلمات..

"كل من لم يهربْ، وما زالَ لونه باهتًا... كان مصيرهُ هنا، البيت المنحوت، تحديدًا تلك الغرفة التي تنامُ أنت بها"

- ظننتُكَ لا تزال نائمًا كعادتك... أمامك الكثير لتحكيه لي اليوم..

باغَتَهُ "الأبيض الهادئ" من الخلفِ... كان في كل مرةٍ يأتيه من غفلةٍ، يُداعِبُ جزءًا من جسده... يتأفف "آسن"... لكن "الأبيض" يتراجعُ بهدوءٍ ويُغير الموضوع.

كانا يتجولان في البيت بصحبةِ خادميْن آخريْن يَجُرَّانِ العربة الخشبية. يومها، لم يتكلم "الأبيض" كثيرًا، كان شغوفًا بسماع حكايات "آسن". كانَ يطلبُ منه سردِ حكاياتٍ عن الألوان وعن المحرقة العظيمة التي عمِلَ بهاَ تارةً... وكان يأمرهُ بوجهٍ غاضبٍ تارةً أخرى... كلما أحَسَّ بأن "آسن" يُخفي عنه شيئًا أو يتحفظ في الكلام.

- ولكن قُل لي يا سيد "أبيض"... أو.. اسمح لي بالسؤال..

- بالطبع أسمحُ لك... أي شيء للآسن ذي العينين الجميلتين...

- شكرًا... قُل لي... أنت هنا لستَ بحاجةٍ إلى شيءٍ من بلدتنا... أعني... كنت تقول

بأنك تبعث إلينا بأفضلِ أنواعِ البخور... وقلت لي إنكم لا تأكلون الرُّمَّان... ولستَ بحاجةٍ إلى نقودٍ، فكما أشَرْتَ لي بأنك تمَلِكُ من الذهب والخزائن ما يَزِنُ بُلدانًا...

انفجرَ "الأبيض الهادئ" ضحكًا...

- بالطبعِ لا أحتاج نقودكم يا سخيف...

- إذن علامَ تحصل؟!

توقف الخادمان عن جرِّ العربة، صمتَ "الأبيض" قليلًا... ابتسمَ بِخُبثٍ:

- أوه... ألم تفهم بعد؟!...

لم يُمهِل الخادمان "آسن" ليستغربَ، أحكما قبضَتَيهما عليه، أخضعاهُ على ركبتيْه...

- قديمًا يا "آسن"... وأقصد منذُ حربِ الرمَّان الأولى... أصدَرَ حاكمكم "الحنون" قانونًا ليُجبِرَ نساءكم وبناتِكم على العَمَلِ خارج بيوتهن. مساكينٌ أنتم، رجالكم وصبيانكم يُقتَلون كل سَنَةٍ في تلك الحرب الغبية... وبالطبع... على أحدهم أن يدفع الثمن... أن يدفعَ "الضريبة"... إنها دومًا "الضريبة" يا صاحبي الجميل...

- اتركوني!!... ما الذي تقوله؟!!

- أقول إنه من السهلِ إجبارِ حاكم كحاكمكم على تصديرِ قوانين، كتلك التي أصدرها من عمل نسائكم الجميلات كعاهراتٍ... فقَطّ... مقابل طِنٍّ من البخور الفاخر، وما يَزِنُ وزنَ ذلك الحقير من ذهبٍ خالص. نساؤكم رائعاتٌ في السرير يا "آسن"... لا أجدُ مثَلهن في أي مكانٍ... نحنُ نُبادلكم ما لدينا بنسائكم الحلوات... عاهراتكم مُدرباتٌ لجَعلِ أعتى الملوكِ سعداء...

حاولَ "آسنُ" الفرار، لم يقدِر على الخادمَين... اللذين كانا ينظرانِ إليه بانكسارٍ...

- ألم أقُل لكَ "اهرب"..؟!

همسَ أحدهما في أذنَيْ الآسن... فهدأ قليلًا... نظرَ إلى "الأبيض"، بعينَيْهِ الباردتَيْنِ... بصقَ على وجههِ..

- أووووه... سأقبلها منك... فقط لأنَّكَ تُعجبني...

- أظنني الآن أفهم لماذا لا يجبُ على حرب الرُّمَّان أن تنتهي... لأن أمثالك لا يستحقون الحياة!!

- أنت أغبى مخلوقٍ مَرَّ على تلك البلدة... حتى عينيك الجميلتين لا تشفعانِ لهكذا غباء... أتظنُّ حقًا أن تلكَ الحرب قامت لأجلكم؟!! أو لأجلي؟!! أو لأجلِ أي ابنِ كلبةٍ آخر؟!!... تلك الحربُ هي الوسيلة الأسهل للتخلص من "أبناء العاهرات" ببلدتكم، الذين يُولدون بالآلافِ والملايين في كُل "طقسٍ شرعية" تُحاول فيه إحدى نسائكم الأفاضل أن تُنجِبَ، لتُثبِت لرجالكم الملاعين أنهن قادراتٌ على الزواج!!... كل مَولودٍ يأتي، لا يُلقَى له بالٌ، يُترَكُ لينمو بينكم... تزدادونَ عددًا... وتزدادُ الأفواه، في بلدٍ لا يعملُ الرجال به... الحربُ هي البطاقة الخضراء للتخلص من تلك الأعداد... كما أن... لدينا هنا الكثير من "الباهتين" لا نود أيضًا في ازدياد أعدادهم!!... الحرب نعمة، وأنا الذي يقول لك: "ليتها لا تنتهي"..!

- ماذا تريد مني؟!

- أريدك...

- ماذا؟!

- أريدك أنت... أنا آتي بالعاهرات من بلدتكم، هذا صحيح، لكنَّهنَّ لسنَ لي... هُنَّ لأبناءِ قومي... الذينَ يعملون في شقاءٍ لإرضائي، ألا يستحقونَ بعضًا من كراماتي؟!!

انفجرَ ضاحكًا من جديدٍ... قرَّبَ يدَيهِ البدينتين إلى جسدِ "آسنِ" الذي كانَ يُحاولُ الخلاصَ من إمساكِ الخادِمَيْنِ...

أفلَتَ "آسنُ" يدَهُ اليسرى، غَرَزَها بِجَسَدِ "الأبيض" وهو يدفعهُ بعيدًا عن العربة التي تحملهُ...

ارتطمَ بالأرضِ، يصرخُ من الألمِ. تركَ الخادمان "آسن" وهَمَّا نحوَ "الأبيض"... حيثُ حدثَت تلك المُعجِزة..!!

- ماذا يحدثُ لي؟!!... أنا... أنا أمشي على قَدَمَيَّ!!

توقَّف "آسنُ" عن الركضِ، عادَ ينظرُ إلى الرجل الذي كانَ أبيض... قبل أن يُلاحظ تلك البقعة الرمادية على جسدِهِ... حيثُ غرزَ "آسنُ" يدهُ!!. البقعة أخذت تتوسع، تنتشرُ بجسدِ "الأبيض الهادئ"، الذي ازدادَ نشاطًا وقوة... قامَ يقفزُ وينظرُ إلى السماءِ، يرقصُ في دوراناتٍ ويصيحُ عاليًا، حتى تحوَّلَ لونُهُ بالكاملِ إلى الرمادي... بينما... انسحبت كُل الألوان المُخَلَّطةِ من جسدِ "آسن"... ليتبقى فقط... لونٌ أحمر متوَهِّجٌ... يكسو جسدَهُ بالكامل!

ركضَ المَلِكُ الرمادي، طافَ بأرجاءِ البيتِ المنحوت. لا يتعبُ ولا يَكِلُّ، يصيحُ بالناس من الأعلى... "تحققت رؤيايَ، عولِجتُ يا شعبي"... بينما، تأمَّلَ "آسنُ" جسدَهُ ولونه الجديد... تأمل ذلك الشعور الغريب الذي سرى بِجُثمانِهِ، والخَدَمُ تَجَمَّعوا حولهُ، يُبادلونهُ الإعجابَ للمرة الأولى.

- هكذا... أنتَ واحدٌ منَّا يا "آسن"... واليوم اسمُكَ "أحمر"

- ولكن... أنا لا أفهم!

****

18

هَلَّلَ الناس المُلَوَّنونَ بالأسفل، لل-"أحمرِ" بالأعلى. مرَّ يومان، على تلك المعجزة، أصدر فيهما "الأبيض الهادئ" قرارًا بفتحِ سورِ النهرِ يومًا كاملًا، للجميع، يغتسلونَ فيه احتفالًا بمواطنٍ جديدٍ كان سببًا في شفائِهِ. تغيرت تلك النظراتُ بعيونهم، كل من يرى "آسن" بالطريق، داخل الدَّابَّةِ أو على ضفَّة النهر أو بالبيتِ المنحوت، يربت على كتفه، يحتضنه. الجميع انقلبوا بولاءٍ ومحبةٍ للآسن، وهو في ذهولٍ من أمره... والخادمُ الذي أرسَلَ إليه بالرِّسالة... ينظرُ إليه من بعيدٍ، بعينين منكسرتين، لم تتغيرا.

ذهبَ إليهِ "آسن"، سألهُ عن ذلك القَهر البادي على وجهه. بِعَينَين باردتيْن، طمأنهُ بأن النَّهرَ سيُصبحُ متاحًا للجميع، وأنه بالإمكان أن يعود كما كان، وأن لا داعي للحزن. ابتسمَ الخادم، حدَجَهُ بنظرةٍ أخيرةٍ...

- أنت لم تفهم بعد...

قبلَ أن يُجيبهُ "آسن"... كان الخادمُ قد قفزَ من شُرفةِ البيتِ المنحوت... وسطَ ذهولِ الذي صارَ "أحمر"... بينما الجميعُ بالأسفل... لا يلتفتونَ إلى الجثة المُكَوَّمة..

- أأنتم مجانين؟!!... ألا تشعرونَ بأي شيء؟!... الرجل مات..!

لا أحد يرد..

يُهَللون بالمواطن الأحمر، الأطفال تراقِصُ الحيوانات، وأضواءُ القناديل تضيء الظلام، و"آسنُ" لا يفهم.

يهربُ إلى النهرِ الأسود، يتأمَّلُ البقعة المضيئة وسطَ غموضهِ. يتَتَبَّعُ مصدرها، الآتي من الأعلى. تصطدمُ عيناهُ بالسحاباتِ السوداواتِ الكثيفات... يتكاتفنَ لِيُخفينَ حقيقةً بدا واضحًا للآسنِ أن عليهِ أن يتبعها.

انطلقت أبواقُ البيتِ المنحوت، تصرخُ في نغماتٍ صارمةٍ، "أنَّ موسمَ الغُسْلِ قد بدأ"... والتَّطَهُّرِ من الذنوبِ والبُهتانِ قد آن له الأوان. جحافِلُ الباهتين اختلطت بالمُلَوَّنين، في سباقٍ ضارٍ نحوَ موقعِ النَّهرِ الأسود. الجميع تركَ ما وراءَهُ، كُلٌّ سواسية، لم يَعُد يُفَرِّقهم لونٌ كالسابق... و"آسن" يُراقبُ أولئكَ القوم... بينما يجلسُ قُربَ جُثَّةِ الخادم الباهت... الذي كانت عيناهُ مفتوحتينِ... بِئْرانِ تَنِزَّانِ من ذلك السائل الشفاف الذي لم يَفهَمهُ حتى الآن.

- لا أحد يطأُ ماء النَّهرِ المُقَدَّسَةِ قبلَ "الأبيض العظيم"... من يقترب سيَلقى حتفَهُ..

بهذه الكلماتِ الصارخة، ارتعشت قلوبُ القوم العطشى للغُسْلِ... وبذلك اللقب الجديد... "الأبيض العظيم"... لُقِّبَ المَلِك.

ركَدَ موجُ المُتَقَدِّمين، هدأت الجموعُ، والهمهمات اندثرَت أمام خِطابِ "الأبيض العظيم". خلعَ ثيابهُ، استعدَّ للاغتسال بجسدِهِ القوي الجديد، ذي اللون الرمادي. ارتعشَ من برودةِ المياه، اقتربَ من بقعةِ الضوءِ يسبحُ بِقوةٍ ومثابرةٍ، بينما يُراقبُ الجميع. اتسَعَ شعاعُ النورِ من الأعلى، اتسعت دائرتهُ على ملامحِ النهرِ، رَفَعَ "الأبيض العظيم" ذراعهُ لأعلى، يُحَيِّي شَعبَهُ على ضِفَّةِ النَّهرِ... ليتلقى نظراتهم الذاهلة...

- ماذا بِكُم؟!... لماذا تنظرونَ إليَّ هكذا؟

استقامَ الجميع، أشارَ بعضهم إلى النَّهرِ، وإلى بقعةِ النورِ التي أخذَت تتبَسَّمُ أكثر إلى ذات النهرِ الكظيم... وصاحَ أحدهم:

- انظروا... لقد شَفَّ ماءُ النَّهرِ...!!

تعالت الهمهمات، أشارَ أحدهم إلى "الأبيض العظيم"، إلى جسدِهِ العاري... الذي انسَحَبَ منه "اللون الرمادي"، عاد أبيض كما كان. انسَحَبَ ذلك الأبيض إلى بطنِ النهرِ، ركضَ ثلاثة حراس باتِّجاهِهِ... يُخرجونهُ من النهرِ غارقًا... ولمَّا أخرجوه، كانت قدماهُ مشلولَتَينِ... تمامًا كالسابق!!..

- ماذا يحدثُ لي؟!!... الويلُ للآسن...!!!

أحد الأطفال كان يشد ذراعَ أمِّهِ، يقول "أمي.. الأبيض صارَ باهتًا"!!

كان المَلِكُ يتلقى نظرات الناس بِفَزَعٍ... حتى تَفَقَّدَ ذراعَيهِ، اللتيْنِ انسَحَبَ منهما اللون الأبيض. يراقبُ جسدَهُ الذي... بات أكثرَ بهتًانا من جُثَّةِ الخادم!! انسَحَبَ اللونُ الأبيض حتى صارَ بلا هويةٍ، في الوقت الذي مَسَحَ أحد الحراس- الذين أخرجوه من الماء- وجهَهُ... ليتذوق لسانُهُ ماءً حلوَ المذاقِ...

- سيدي... انظر النهر!!

النهرُ الذي كان أسود كظيمًا... صَفى لونَهُ... حليَت مياهَهُ... وبقعة النورِ اتسعت، والغيماتَ الكئيباتُ ضَحِكَت. "الأبيض الهادئ" صَرَخَ في الناس، الذين هَمُّوا إلى النهرِ يُشَمِّرونَ عن ثيابِهم، صاحَ فيهم فلم يستجيبوا... أنسَتهُم حلاوةُ الماءِ المُسَكَّر، للمرَّةَ الأولى... مَلِكَهُم الجائر... بينما كان "آسنُ" يُراقبُ طريقَ النُّورِ الذي بدا لهُ الوِجْهَة القادمة...

- إياكُم والماءِ الآسن... إياكُم واللعنة... ألا تتدبَّرونَ حالي؟!... إياكُم والماءِ المُسَمَّم، الذي أذهَبَ لوني، وأهلَكَ بَدَني... تلكَ لعنَةُ الآسن، ألا تعقِلون؟!!

الكلماتُ التي بدَت مقهورةً، تخرجُ من لسانٍ واثِق... عَرَجَتْ برجاءٍ خائبٍ على مسامعِ بعضٍ من المُلَوَّنين... الذين لوهلةٍ خافوا على صبغاتِهم. أمَّا الباهِتون، كانوا من الماءِ المُسَكَّرِ يشربون، ولحديثِ "الأبيض" لا يلتفتون... إذ كانوا لا يخشونَ شيئًا ما داموا شَرِبوا تلك المياهِ الصافية. شَعَروا للمرَّةِ الأولى بالحرية...

أن تَملكَ نهرًا جارفًا حلوَ المذاقِ، لا يجِفُّ مجراهُ أبدًا...

شربوا حتى الثَّمالَة، حتى امتلأت بطونُ بعضِهم فبالكاد استطاعوا التَّنَفُّس... فغَرِقَ منهم من غرق، وخَرَجَ منهم من خرج. عادَ كُلٌّ من خافَ على لونهِ، وأن ينالهُ ما نالَ مَلِكَهُم... بينما... صاحَ الـ"أبيض" الذي صارَ شفَّافًا بلا صبغةٍ في الباقين... يُكَرِّرُ ذاتَ الجملة:

"إياكُم والماء الآسن... إياكم والماءَ المُسَمَّمَ بلَعنَةِ الآسن... إياكُم والذي أعْيَا جسدي، وأهلَكَ روحي"

عاد من عاد، ومن أبى منهم العودةَ إلى الضِّفة... كانت سِهامُ ورِماحُ الحُرَّاسِ أسرَعُ إليهِ من الريحِ الباردةِ، التي كانت تُمَلِّسُ على سَطحِ النَّهرِ الذي كانَ أسود...

- من خَرَجوا إلَيَّ هُم قومي... ومن اختارَ السُّمَّ واللعنةَ فأولئكَ عاصِيو القدير... لا يمكنني السماح لهم بتلويثِ قومي... أولئكَ من هَلَكوا في الدنيا بِبُهتانهم... وهَلَكوا عندَ القديرِ بِعصياني..

"الأبيضُ الهادئ" يبحثُ بعينيه عن "آسن"، الذي كان يبحثُ عن مَخرَجٍ من تلك المُصيبة... حتى أشارَ القومُ المُلَوَّنونَ إليه... يحاولُ الفرار. البلدة بأكملها، كانت تُسابِقُ "الآسن"... الذي كانَ أحمر... واحدًا منهم منذ لحظاتٍ... يتتبعونَ آثارَهُ. حاولَ الاختباء في الدَّابَّة، الرائحة ازدادت نتانةً داخلها، تذكر البئر والمحرقة... تذكر تلك المَعيشَة التي تَمَرَّدَ عليها حتى طُرِدَ شر طردة... اختبأ خلفَ صخورٍ مُلَوَّنَةٍ بأحد الأركان... رأته طفلةٌ ورديةُ اللونِ. ابتسمَ لها، أشارَ لها بإصبعهِ ألا تتكلم، ألا تُفصِح عن مكانهِ... صاحَتْ الطفلة بِصوتٍ مَرِح:

- "آسن" هنا "آسن" هنا... "آسن" يلعبُ الغُمَّيضة... أمسَكتُ بِهِ... "آسنُ" هنا..

سَمِعَ أصواتَ أقدام، انسَحَبَ من جَسَدِهِ بعضٌ من اللونِ الأحمر. شَعَرَ بشعورٍ عجيبٍ، كان يختبرهُ للمرَّةِ الأولى. دونَ أن يدري، ترَجَّاها أن تصمت... الفتاة تصيحُ أعلى..

أمسَكَ بها...

حاصرها بِقوةٍ، كَمَّمَ فَمَها الدَّقيق...

الناسُ يبحثون، والآسنُ يُسكِتُ الصَّغيرة... حتى وجدهُ أحدهم، يصيحُ من جانبِهِ:

- المَسْخُ خَطَفَ الصَّغيرة..!!

فَزِعَ "آسنُ"، من الذي باغَتَهُ من جانبهِ... رَكَلَهُ، ليُبعِدهُ، بينما كان لا يزالُ يُكَمِّمُ فَم الصغيرة التي

ما كَفت عن الصراخ المكتوم.

حاصروه... أخيرًا...

رَفَعوا سيوفهم، وجَّهوا رِماحَهُم، ومن قَبلِها عيونهم القاتلة... حتى إذا ما تركَ "آسنُ" الفتاة ورَفَعَ يديْهِ مستسلمًا... سَقَطَتْ على الأرضِ... جُثتُها هامِدة.

- **لقد... قتلها!!..**
- **قتلها الآسنُ اللعين..**
- **ابنتي!!... ابنتي... آاااه يا ابنتي..**
- **الويلُ لِمُلَوِّثِ النَّهرِ..!!**

كان "آسنُ" يرتعش، يتسَحَّبُ إلى جَسَدِهِ الأحمرِ لونٌ جديدٌ...

انهالوا عليهِ بالضربِ والطَّعنِ بأيِّ شيءٍ حاد، لا ينطِقُ ببنت شفة أمامهم. أمسَكوا بِهِ حتى تأكدوا بألا يفلت، كان "الأبيض الهادئ" يصرخُ بِحُرقةٍ أمام الجميع... يتَصَنَّعُ البُكاء... يندب حظَّهُ ويلعن مَرَضَهُ الذي مَنَعَهُ من الانتقامِ من "قاتلِ الأطفال" كما نَعَتوه.

- **تلكَ اليَد اليسرى... آذتني أولًا لمَّا لمستني... ثم قتلت المسكينة... تلك يدُ شيطانٍ آسنٍ!**

الصراخ..

الذي اختبرهُ "آسن" للمرَّةِ الأولى، داخلَ البِئرِ بالمحرقة...

عندما نَبَتَ له فَمٌ بَعدها...

لم يكُنِ شيئًا، أمام صراخ تلك اللحظة التي... رَفَعَ أحدهم فيها... سيفًا مسلولًا، إلى أعلى... وانهالَ بِهِ على ذراعِ "الآسِنِ" اليُسرى...

ليقطعها أمام عينَيهِ، تتلوى على الأرض، أفعى، تُحاولُ الفرارَ من الموتِ... حتى فارقتها الحياة، وأفرَغَت ما بها من دماءٍ طاهرةٍ، لامعةٍ، باتت آسنة...

الصراخُ الذي اختبرهُ يومها... لمَّا شَعَرَ بِذلك الشعور، لأول مرةٍ، حينما عَرَفَ معنى "الخوف"، لمَّا فَقَدَ ذراعًا، كانت لسانهُ الذي ملأ حائطَهُ باللوحات... ودوَّنَ آلامَهُ بِقِطَعِ الفَحم...

الصراخُ الذي كَسَرَهُ... لما أطفأَ لونُ الخوفِ "الأزرقِ" جسدَهُ الأحمر... صارَ "بنفسجًا".

****

"أصفَر"

19

"اقتلوه..."

"لا.. قاتلُ الأطفالِ يجِبُ ألا يموتَ هكذا، عليه أن يتَعَذَّب"

"اشنقوه..."

"لا... ما هذا ببشرٍ مثلنا... لن يُجدي الشنْقُ مَعه"

"احرقوه..."

"أنحرقُ مُشَعوِزًا شيطانيًّا... فَتَحِلَّ لَعنَتُهُ على البلدة؟!"

"قَطِّعُوهُ إرَبًا، ولِتُطعِموا الكلابَ لحمَهُ..."

"لا، لا تفعلوا... لا تُطعِموهُ للكلاب التي تسهر على راحتنا، أهكذا تُعاملونَ المخلوقات الرَّئيفة؟!!"

"الآسنُ" مُلقىً على الأرض الرملية، التي كانت بالصَّفار تبتهج، حتى أخجَلَتْها دِماؤهُ الطاهرة، فغَدَت برتقالية. المُلوَّنون يتبادلونَ النقاش، حولَ جُثمانِه، الذي طَفَحَ باللونِ البنفسجي فزادَ قَلَقُهُم. قالوا إن وجود هذا المخلوق قد يُعَكِّرُ ما سَطعَ من نورٍ بَعدَ أن حُلِيَ ماءُ النَّهرِ. قال "الأبيض الهادئ"، الذي عادَ قَعيدًا، إن بهتان مَلِكِ البلدة هو من بهتانِ البلدة، وإن وجود ذلك المخلوق الدُّوني هو السببُ في غَضَبِ القدير عليه... فلو أنه تَخَلَّصَ منه منذُ البداية... لما حدثَ ما حدث. هَتَفَ في الجميع أن ما اختبرهُ من صِحَّةٍ ولونٍ، لمَّا لَمَسَهُ الآسن، هو اختبارٌ من القدير. قالَ إن القدير لو أرادَ أن يُرِيَهُم حقيقةَ أمرٍ، ابتَلاهُم بالمالِ والقوة... فما إن بَدَت الحقيقة... عاد كُل شيءٍ، وما نابَ العَبد إلا البصيرة...

- أنا وقَعتُ في فَخِ النِّعمَةِ يا سادة... فالتمسوا لِأبيَضِكُم الهادئ الأعذار... أنا أستسمَحكم في العَلَن... فَقَومي هم الأولَى أن أتذَلَّلَ لَهُم..

بَكَى بعضهم، وجثى البعضُ على ركبتَيهِ. صفقَ آخرونَ لِكلماتِ الأبيض، حتى الباهتينِ المُهَمَّشين، الذين لم يَخُصَّهُم المَلِك بالحديث، انساقت مشاعرهم نحوِ القعيدِ الذليل الذي أخذَ يسترعيها. انتبه أحدُ الحرَّاسِ إلى جثةِ الخادم الباهت، كانت لا تزال مُلقاةً أسفلَ الشُّرفة التي قفزَ منها. أمَرَهُ "الأبيض" بإحضارها. كانت الجثَّة ثقيلة، تَزِنُ ما تَطَلَّبَ من سبعة حراسٍ أن يحملوها... ثُمَّ عشرة... ثُمَّ اثنَي عَشَر حارسًا... لم يَعلموا ماذا حَل بها. تركوها، وقد ازدادت في التثاقُلِ والبهتان اللّوني أكثر. أمَرَهُم بِحَملِ جَسَدِ الآسن الفاقد للوعي نَحوها، تركوا الاثنَينِ بجانِبِ بعضِهما.

تأملوا الجسدَينِ، ثُمَّ بدأ التصويت...

احتاروا في طريقةِ التَّخَلُّصِ منهما، حتى أتَتْهُم الرياحُ المتسللةُ من الخلفِ، تخطفُ حواسَّهُم وتُلقي بها في النَّهرِ المُرتَعِشةُ مياهُهُ... الجارية إلى مكانٍ غير مَعلومٍ... حتى نهايةِ النَّهرِ التي خافوها.

"نُلقيهما، بالنهرِ الجاري... إلى حيثُ لا نعلم، بعيدًا عن بلدنا الحبيب"

قالها أحدُ الشيوخ، وهَلَّلَ الأصغَرُ سِنًّا لقرارِه. حملَ الحرَّاسُ جسدَ "آسن"، مقطوع الذراع، الذي كان ما زال ينزف... وما استطاعوا حملَ جثَّةِ الخادم الباهِت... دَفَعوها بأرجلهم حتى تَلَقَّفَها النهر، ساحِبًا إياها. أخذَت الجُثَّة تتلوَّنُ بألوانٍ عِدَّةٍ، وسطَ ذهولِ الأعينِ، حتى غابت عنها. ازدادوا قلقًا، لكنَّهم لم يتوقفوا. حملوا جسدَ "آسن" الذي خَفَّ وزنُهُ أضعافًا، كان فاقدًا للوعي، ألقوا بِهِ... في ذات الوقت الذي... كانت زُمرَةٌ من النَّاسِ تَملأُ قُدورِها بالماءِ الحُلو. جَرَفَ النَّهرُ جَسَدَ الآسنِ حتى توارى عن الأنظار... بينما صرخَت أنثَى... تُوَلوِلُ...

- زوجي!!... أطفالي...!!

التفتَ الجميعُ إليها، كان الطفلانِ يبصقانِ دمًا... والأبُّ يتلوَّى على الأرضِ، ممسكًا بِمَعِدَتِهِ، يتقيأُ كمياتٍ من الدَم، يُشيرُ إلى القدُورِ المملوءةِ بالماءِ الحُلو، وبالكاد يتكلم:

- لا تقربوا الماء!... الماء المُسَمَّم..!!

وحتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة، كانت السماءُ السوداء غاضبة، بَصَقت على البلدةِ قطراتٍ من مطرٍ، ليسَ كأيِّ مطرٍ... ثم بَكَت نِفْطًا أسودٍ... صَبَغَ أجسادهم الملونة بالأسود، صبغَ الباهِتِينَ أيضًا بالأسود، صَبَغَ النَّهرَ الذي ما عادَ شفافًا... بالأسود. رائحة النفطِ ملأت الأرجاء، كيانُهُ لَوَّثَ الماء الحلو، سَمَّمَهُ فما عاد للشَّاربينَ سائغًا. صَبَغَ الجميع بِهويَّةٍ جديدة... هوية جَعَلت منهم سواسية في اللون... لكنَّها سمَّمَت النَّهر... أضاعت الحياة.

النَّهرُ غاضبٌ، يركضُ إلى وِجْهَتِهِ بإصرارٍ، يلهثُ بأمواجٍ صغيرةٍ تُقَلِّبُ جَسَدَ "آسن"، الذي كاد يتوقفُ عن النزيف. يبتعِد عن البلدة، عن الدَّابَّةِ التي لا تزالُ رائحتها فوَّاحة، عن القومِ سُودِ الصبغة، عن الحاكمِ الذي كان أبيض... يبتعد عن الغيماتِ الكثيفاتِ الكظيمات بالأعلى، وعن بُقعةِ النُّورِ التي أخذت تضيق على أهل الأطيافِ... حتى زادتهم ظلامًا على ظلامٍ. فَتَحَ عينَيهِ قليلًا، يجدُ حاله يرثى لها. ينظر إلى يده اليمنى، الباقية، يطفحُ البنفسج بها. يبحثُ عن اليد اليسرى، عن الذراع بأكملها... يُحاولُ الصراخ!... فتخذلهُ قواه. عندَ منحدر، تبدأ ملامحُ النَّهرِ في التبدلِ، شلالٌ يسحبُ الجسدَينِ بقوةٍ، تتفرَّعُ الطريق، ليسلك كلٌّ منهما طريقه. الغيومُ تتبدَّدُ، الظلامُ يجيء ويذهبُ... حتى يستقرَ بعيدًا... يَحل محلَّه ضوءٌ أصفر ساطع. المياهُ تهدأ، تَعِبَ النَّهرُ من الرَّكض، وفسادُ البلدةِ يزولُ شيئًا فشيئًا... حتى صَفَتْ مياهُهُ، شَفَّت من جديدٍ، ابتسمَت... ألقت بِجَسَدِ الآسنِ على أرضٍ خضراء... يفتحُ عينَيهِ عن آخرهما، يقفُ على قدمَينِ هزيلتينِ بالكاد حملَتا الجسدِ التَعِب.

يرفَعُ يَدَهُ إلى السماءِ الزرقاء، الصافية، يحاولُ ملامسة الكرةِ الساطعةِ بالأعلى... بعيدةٌ هي... ضئيلة، بِحَجمِ عقلةِ إصبَعِه. كلما أمعنَ النَّظر إليها، ردعتهُ بِسطوعِها، خَرَّتْ عيناهُ تختبئان، ثم يعاودُ النَّظَر.

يَشُم تلك الرائحة، تُشبِه الرُّمَّان، لكنَّها ليسَت كريهة كالتي كانت ببلدِه...

يجاهِدُ نفسَه للمَشي، المساحات شاسعة أمامه، الأراضي متمايلة، مرتفعةٌ ومنخفضة. يركضُ كما لم يركُض من قبلُ، البراحُ يملأ مُتَّسَعَ عينَيهِ، والرياحُ تُدَلِّلُ مُسَطَّحاتِ الأرضِ الحضراء، تقشَعِرُّ من دغدغتها، فيرقُصُ العُشبُ الصغير ويتمايل... بينما... يرقصُ الآسنُ ذو الذراعِ الواحدة في دورانات، يتدحرجُ من أعلى تَلَّةٍ زَرْعِية. تُدَفِّئُ الكرة الساطعة بالأعلى جَسَدَهُ، يختبرُ ذلك الشعور للمرةِ الأولى، يختبرُ تلك الرائحة، يسمعُ الأصوات الهادئة تعزفُ لحنًا جديدًا... يسمعُ الصخور، الروائح... يشعرُ بأن كُل شيءٍ يُناديه.

الألوان...

التي رآها في الكهفِ...

عندَ البحيرةِ المُقَدَّسَة...

لا تُشبِهُ تلكَ الألوان التي يراها.

الألوان في الكهفِ بائسةٌ، يدخلُ الظلامُ في تكوينها، يُزهِقُ روحها، يقتلُ بهجتها... كأن ما رآهُ من ألوانٍ في السابق كانت أشياء تَدَّعي فقط أنها ألوان. الألوان هنا، تحتَ ذلك الضوء الأصفر العجيب... تضحك!!... تتبسَّم له في كُل خطوةٍ. يستكشفها للمرةِ الأولى، ما كانَ الأخضَرُ أخضرَ، ولا كان الأصفرُ أصفرَ، ولا كان الأحمرُ أحمرَ... حتى ذلك البنفسج على جسدِه، لم يَكُن كما تلك الأزهار البنفسجية، التي كانت تتراصَّ فتملأ تلَّةً أمامَهُ... تكسوها بِلِباسِ البَنَفسَج. لم يفارِقهُ الذهول للحظة، عندما اختبرَ للمَرَّةِ الأولى رائحة الألوان!!... الهادئةَ... الدافئة... الحنونة. لم يَجِد بقعةً بالأراضي حولَهُ مُظلِمة!

يبتسم...

ينظرُ حولهُ...

- أصفر!!... أحمر!!... أزرق... أخضر!!... و... من أنتِ؟!

****

20

"..!!"

قالتها، تلك التي سَحَرَت عَيناها اللَّيلِيَّتانِ عينَيْهِ الحمراويْن. ظَهَرَت أمامَهُ، عاريةً، إلا من شَعْرٍ مموَّج يسبَحُ للأسفَلِ، يُداري رُمَّانَتَيْ اللَّذَّة النَّافِرَتَينِ... ينتَهي عندَ رُكبَتَينِ من مَرمَرٍ. سالَ لُعابُ الآسِنِ، اقتَرَبَ منها بِحَذرٍ تشوبُهُ الرَّغبة. أطالَ النَّظرَ إلى الجسدِ الخمري أمامهُ، لم يتوقف عن الاندهاش، توَهَّجَ اللونُ الأحمر بِجَسَدِهِ أكثر... بينما كانت الحسناءُ تضحك.

- مِمَّ أنتِ؟!!

- أنا؟!... لا أعلم ماذا تقصد!!

- مِمَّ أنتِ؟!

تضحَكُ بِخَجلٍ. يستفيقُ "آسنُ" من شرودِهِ، يشيرُ إليها، إلى جسدها العاري... يقتربُ مسرعًا.

- لا!!... ماذا تريد؟!

- انتظري... ألا تَبْردين؟!

خَلَعَ سترتهُ الحريرية، التي كان "الأبيض الهادئ" قد ألبَسَها له. ألبسها إياها، لم يَكُف عن استنشاقِ عِطرِ شَعْرِها المظلم... الشيءُ الوحيد المُظلم على تلك الأراضي المُنيرة... حيثُ رأى لأول مرة "ظلمَةَ بَهيجة". خَجِلَت منه، دَفَعَتهُ برِفقٍ. تحسَّست ملمسَ الحرير، رقصت ودارت في دوراناتٍ سريعةٍ، بينما اكتفى هو بِتأمُّلِ الكائن العجيب ينثرُ البهجة ببقاعِ الأرضِ التي كلما دبَّت قدماها عليها... دَبَّت فيها الحياة.

كانت لا تكف عن الإشارةِ إلى لونه، تقول إنه يُشبِهُ لونِ الرُمَّان الفاسِد في الحديقة الخلفية... لكنَّهُ لا يشبهُ لونَ أيٍّ ممن مَرُّوا على تلك الأرض. لم يَكُف "آسنُ" عن سؤالها، كانت تسحبُهُ وتركضُ بِهِ إلى أبعد، يتوقف ليستريح، لكنَّها تسحبهُ من جديدٍ. مَرَّا على شتى الألوانِ، الألوانُ على تلك الأرضِ مخلوقاتٌ تشعُرُ وتُعَبِّرُ عن ذاتها. على مقربةٍ من غابةٍ كثيفةِ الأشجار، يخترقها طريقٌ مُظلِمٌ، لا تدخلهُ شمسٌ ولا يحيا بِهِ لَون... توقفت.

- أخافُ الظلام..!

- أوه... وأنا أيضًا، لو تعلمينَ من أينَ أتيتُ لفَهِمتِ.

- لا أقصد... أخافُ تلك الغابة!

الطريقُ المظلِمُ المؤدي إليها، ذَكَّرَ "آسنَ" بالطرقِ الضيقة ببلدةِ الرُّمَّان، حيثُ الشعلاتِ الخشبية المرتعِشةِ اللهب تتوزَّعُ على الجنبَينِ تُضيئُه، إلا أنَ طريقَ الغابةِ خالٍ من أي أمل.

- أعتذرُ عن ردائي المُلَطَّخ بالدم، لقد آذوني كثيرًا، و...

التفتَ لِيَجِد أنه يُكَلِّمُ نفسهُ، كانت تناديه من مكانٍ آخر ركضت إليه. تُلَوِّحُ له بيديْها أن يأتي

مسرعًا... كي لا تفوته تلك الفرصة!

صَعَدَ تلَّةً خضراء، الصعود بذراعٍ واحدةٍ هو الجحيمُ الجديد الذي عاناهُ "آسن". كلما ارتفَعَ أكثر عن سطحِ الأرضِ، كلما ازدادت الألوانُ في الاحمرار. القرصُ الصغيرُ الوهَّاجُ ما عادَ بِحَجمِ عقلةِ إصبع، يكبرُ ويتَّسِع. يَمُد "آسنُ" ذراعهُ، ملأت الكرةُ الملتهبةُ يدهُ بالكامل، كانت لا تزالُ بعيدةً جدًّا.

- أنتَ كسول!...

- أنتِ مجنونة!!

نادَتهُ من أعلى التلَّة، ينظرُ إليها، شامخة، ساقانِ مصقولتان، جسدٌ ممشوقٌ... والرِّياحُ فنانة... تحومُ حولَها... تنحتُ من قماشِ الحريرِ على ذَلك الجسد لوحةً للجنة... لوحة، لم يَقدِر الآسن على خَلقِ مثلها على حوائطِ البئرِ الحزينة، من الفحمِ والحجارة.

القُرْصُ الوهَّاجُ يكبر، لا تتسع يد "آسن" لاحتوائه. خَفَّ وهَجُهُ قليلًا، فباتَ بمقدورِ كليهما النظر مباشرةً إليه. اقتربَت الحسناءُ منه، أشارت بأصابعها إلى القرصِ بالأعلى. كلما حاول أن يتكلم "الآسن" بجانبها، كانت تُسكِتهُ بيدها الأخرى، تأمرهُ بالتَّأمُّل وحسب، تُخبرهُ بأن "الشَّمسَ" تستيقظ كُل يوم من حيثُ لا تدري هي... تسطعُ بالأعلى... تلسعُ بشرتها الخمرية النَّاعمة... توقظها من النوم... تَمُرُّ على المروجِ الخضراء، تسقيها من الأصفرِ الذَّهَبِيِّ، فتبتهج. تَمُرُّ على أشجارِ الرُّمَّان، تَغسِلُ حبَّاتها الأرجوانية التي كان الظلامُ يُنهِكها، فتَغدو حمراءَ بَهيجة. تَمُرُّ على فرعِ النَّهرِ الذي أنهكَهُ السَّفَرُ عبرَ البلاد، تُدفئ مجراهُ، وتُنَقِّيهِ من دَنَسِ الغُربَة، فيغدو مُتَبَسِّمًا. حتى إذا ما أتت على تلك الغابة التي مررنا بها، مهما أعطتها من نورها... لا تتخلَّى عن ظلامها ووَحْشَتِها...

"أحيانًا أشعرُ بأن "الشَّمس" تخشاها، أو، فقدَت الأملَ في إضاءتها... فكانت تهربُ بعد ذلك إلى هنا... حيثُ نقفُ الآن"

كان "آسن" مسحورًا، بنبرةِ الصوتِ، التي تعزفُ نوتة لا تنقطع، تأسِرهُ بوَصفها لتلك الكرة بالأعلى. كانت تضحكُ منه، كلما حاولَ الإمساك بالشَّمس. ينظر إليها ولا يُلقي لها بالًا، يستمرُّ بالقفزِ محاولًا حبسها في قبضتهِ التي باتت صغيرةً بالمقارَنةِ لحجمِ القرصِ العظيم.

- حتى لو أمسكتها... ستحرقُ يدك... دعها هكذا مبسوطة، فَرِحَة، لا تؤذينا ولا نؤذيها..

- أنتِ لا تعلمين شيئًا... لقد بحثتُ عنها في كُلِّ مكان!!

- وها قد وجدتها، لا تُفسِد الأمر!

لا تَكُفَّ عن ملاحقته بِعَينَيها، وهو يقفزُ ويُحاول، حتى أنهَكَهُ التَّعَب... وأذهَلَهُ ذلك اللون البرتقالي الذي طغى على كُلِّ شيءٍ حولهُ. الظلالُ بدأت تظهر، لكنَّها ليست كتلك المَيِّتة التي عهدها قديمًا. الظلالُ اتَّسَمَت بِـ"لون"... لون بنفسجي يتصارعُ معهُ الوهجِ البرتقالي على كُل شيءٍ حولهُ.

- ولكن، كيف؟!!... الظلامُ هنا يتلون!!

- تتحدثُ وكأنَّكَ أتيتَ من الجحيم.

- ربما أتيتُ منهُ بالفعل!

لمَّا خافَت منه بعدَ تلك الكلمات، اعتذَر. كشفَت نسماتُ هواءٍ متسللاتٌ على شَعرها، ذلك الوجهَ،

الذي أمعَنَ "آسنُ" فيه. الوجهَ الملائكي، الذي لا يعيبُهَ سوى مِئات الندوب، حَفرَت خنادِقَ قاسية، أخفَت جمالًا كاد أن يكتمِل. كانت الحسناءُ تراقِبُ نظراتِه، ابتسمَت. سألتهُ عن اسمِه، قال إنهم يُلَقِّبونَهُ بـ"آسن". سألته عن معناه، لم يُجِب، سكتت. بعد لحظاتٍ، سألها عن اسمها بلطفٍ، كَشَّرَت، قالت لا داعٍ، أدارَت ظهرها له و تَمَشَّت بِدلالٍ وتأنٍّ... استوقفها... عرضَ عليها أن يُخبرها معنى الاسمً فقط، لو أخبرته باسمها.

- لا يُهم، لا أريد أن أعرف، لأني بالأصلِ أعلمُ معنى اسمك... أنتَ آسنٌ... تمامًا مثلَ حبَّاتِ الرُّمَّانِ الفاسدة بالحديقة الخلفية، التي أجمعها قبلَ أن تُلَوِّثَ الحبَّاتِ الجميلات، وقبلَ أن تُفسِدَ بهجةَ أزهارِ الرُّمَّان الحلوة!

جَلَسَ مُكتَئِبًا، على الأرضِ الخضراء. يتفادى النَّظر إليها، يرُد بهدوء... "هذا ما يقولونهُ جميعًا". اقتربَت منه، جَلَسَت بجانبه، اقتربَت أكثر، حتى شَعَرَت بارتجافِ جسَدِهِ. أدارَت ذقَنَهُ لِمواجهتها، كان يخجَلُ من النظرِ إليها، لكنَّها، ابتسمَت... ليجد نفسَهُ بلا مقاومةٍ يبتسم!...

- ولكنِّي لا أراكَ آسنًا... تبدو غريبًا، عن أهلِ الخارِج.

- وأنتِ... لَستِ كتلك النساءِ ببلدتنا.

- كيف؟

- هُنَّ... تظهرُ عليهن أماراتُ ال-...

- ماذا؟!..

- اسمعي، تبدينَ مختلفة، لا تسألي أكثر!!

توهَّجَ اللونُ الأحمر في جسدِهِ، بينما كان الأزرقُ يعتريه، يأبى أن يتركهُ. كانت لا تَكُف عن البحثِ في وجههِ، تجوبُ ما بينَ الجبهةِ العريضة، تسحبها تلك الندبة العظيمة، القبيحة، التي تجاورُ عينَينِ حمراوَيْنِ بَديعَتَيْن، وأنفٍ باتَ جميلًا، وفَم مرسومِ الشَّفَتَين. تتأمَّلُ جمالَهُ بدِقَّةٍ، لا يُفسِدهُ سوى تلكَ الندوبَ المُوَزَّعة على خارِطَتِهِ... بينماً... تأمَّلَ هو عينَينِ سوداوَيْنِ واسعتَيْن، وتمنَّى، لو أن كُلَّ الظُلماتِ كانت بمثلِ سِحرِهما... ما كان هَرَبَ من الظَلام أبدًا. كادَ يسألها عن تلك الندوب التي شوَّهَت وجهًا لم يرَ مثلَه من قبل في نساءِ بلدته، لكنَّها استوقفته...

- أتعلم؟! ولِدتُ هنا... ولا أعلمُ حتى كيفَ أبدو... لا أعلمُ كيفَ يُفتَرَضُ بي أن أبدو!!

- أنتِ... أجملُ ما رأيت!

- أتَلَمَّسُ جسدي، أشعرُ به لَيِّنًا... ناعمًا... وشَعري هكذا منذُ أن وِلدت، لم يقصر ولم يطُل... لكن... لماذا وجهي ليسَ ناعمًا أيضًا؟!

- في الحقيقة...

- حاولتُ أن أراهُ، في كُلِ مكانٍ، لا فائدة... حتى النَّهر، ما عادَ يَصْفَى، ماؤهُ جارٍ، أتذكَّرُ فقط عندما كنتُ صغيرةً، رأيتُ وجهي مرَّةً واحدةً... كانَ سعيدًا، دائريًّا، وكانَ الماءُ راكِدًا... وكان... وجهي ناعمًا... قبلَ أن يحدث ما حدث..!

- ماذا حدث؟!

- أنا خائفة!!...

ابتعدَت عنه، بَكَت بُكاء شديدًا، حتى رأى "آسنُ" ذلك السائلَ الشَّفَّاف، ينسابُ من عينَيها، نهرًا

جاريًا. ينظرُ إليها بِعَينَينِ باردتَيْن، يربتَ على كتفِها، تهدأ وتلتفتَ إليه. تَخبرهُ بأنه منذ أن حدث ما حدث، وهي تتلَمَّسُ وجهها بعد أن استيقَظَت، لم تجدهُ ناعمًا، بل مليئًا بِحُفَرٍ وخنادِق تُزعِجُها... ومع الوقت... اعتادَت عليها.

- لو أنِّي أرى وجهي مرَّةً واحدةً فقط... أنا خائفةٌ.

- لا تخافي، أنا هنا.

- أنتَ مثلكَ مثل أهلِ الخارِج، ربما تختلف عنهم، لونك ليسَ لونهم... لكنَّكَ سترحل.

- ولكن، أنا هنا أسعَد مما تظنِّين، أعتقد أن هذا المكان هو وطني الحقيقي...

أخذَ يحكي لها، عن بَحثِهِ الدائم، عن ذلك الذي يعلمُ ما بين الأحمر والأخضر. يحكي لها عن الظلام الذي عاشَهُ، عن تلك الألوان التي رآها عندما كانَ صغيرًا، عن البئرِ والمحرقةِ العظيمة... عن قوم الرُّمَّانِ الذينَ آذوه... وعن قوم الدَّابَّةِ الذينَ قَطعوا ذراعهُ اليسرى. كانت تفرَحُ وتبتهِج، كلما ذكرَ حديثهُ السَّاخِر عن الأقوام، وتبكي كلما سَمِعَت عن المرَّات التي آذوهُ فيها... لكنَّها كانت تستعجِبُ من عينَيهِ البارِدَتَين، العينيْن اللتيْن لا تخشيانِ شيئًا، لا تفتقدانِ شيئًا... ولا تتذكَّرَانِ صديقًا أو حبيبًا.

- ولكنَّكِ لم تُخبريني باسمكِ الحقيقي بعد..

- لأنِّي لا أعرفهُ.

- أنتِ تكذبين!!... بعدَ كُل ما حَكَيتُهُ لكِ؟!... ما زلتِ خائفةً منِّي؟

- لا... لا أقصد... لكنِّي لا أعرفُ اسمي... حتى الذين يأتونَ من الخارجِ لا يسألونني، يأتي كُلٌّ منهم ليقضي حاجَتَهُ، وينصرف!

- إذن، سأُسَمِّيكِ كما رأيتُكِ...

- ماذا؟!

- "شمس"...

****

21

" " "..." "

لا تسألني عن اسمي، فإنِّي أجهله...

لا تسألني عن سِنِّي، فالوقتُ هنا على المروجِ الخضراءِ لا يعنيني...

لا تسألني عن شكلي، صِفْني كما تراني وحسب...

لكنِّي سأخبرك، حتى لو لم تسأل، سأخبركَ بِكُل شيء...

سَئِمتُ من إخبارِ أشجارِ الرُّمَّان، سَئِمتُ من البَوحِ بأسراري إلى السماءِ الزرقاء، إلى الشمس بالأعلى...

سَئِمتُ هذَياني المستمر، من الجنون الذي شارَفتُ على عتباتِهِ أكثر من مَرَّة... وحينما أصرخُ وحيدةً... لا شيء يَرُد وحدتي سوى صدى صوتٍ يُخيفُ الطيور فتُهاجِر أعشاشها...

سأخبِرُك، لأنّك الوحيد من أهلِ الخارِج الذي أعطيتَني شيئًا... حتى وإن كان مجرد رداء من حرير مُلَطَّخٍ بالدَّم.

وجدتُ نفسي وحيدةً، على تلك الأرضِ التي لم أعرف غيرها. أيقظتني حرارةُ تلك الكرةِ العجيبة بالأعلى، حيثُ لم تَكُف منذ وقتها عن إيقاظي كل يوم. عندما حدَّثتني عن حكاياتِك العجيبة، وعن المكان الذي أتيتَ منه... لم أستوعب... لأنّي لم أرَ ظلامًا في حياتي من قبلُ. كُل شيءٍ هنا مُلَوَّن، هادئ، آمن... أو هكذا فَهِمتُ معنى الأمنِ... بعد أن حدثَ ما حدث. تجوَّلتُ بتلك الأراضي الشاسعة، أبحثُ عن شيءٍ وأبكي، حتى وجدتُ شجرةً عظيمةً، تتعلَّقُ بها كُراتٌ حمراء وأخرى أرجوانية. كنتُ جائعةً، أبكي، ولا أحدَ سوايَ هنا. أتت رِيحٌ شديدةٌ، أسقطت بضعَ كُراتٍ من تلك على صخورٍ حادةٍ أسفلَ الشجرة... تهَشَّمَ بعضُها، وأفرغت ما بجوفِها من حباتٍ حمراءَ صغيرةٍ. التقطها، قرّبتها من لساني، استسغتُ طعمها... وأخذتُ آكل منها بلا توقف. شبعت، تأمّلتُ تلك الشجرة، نظرتُ حولي لأرى بستانًا أخضرَ تصطفُّ فيه كُراتٌ حمراءُ كثيرة، وأشجارٌ عالية تحمِلُ ذاتَ الكُراتِ.

لا شيء هنا جميل ولا سيئ، فقط، لأنّي لم أكن أعرفُ الفرق. أستيقظُ كل يومٍ، أبحثُ عن حدائِق جديدة، أتابِعُ ما يسقطُ منها من تلك الكُرات التي عَلِمتُ فيما بعد أنها تُسَمَّى بالـ"رُمَّان"... أتلقفها... وأجمعها في مكانٍ معلومٍ. أراقِبُ أشياءَ أخرى كانت تنمو أيضًا بجانبِ كُل رُمَّانةٍ... زهورٌ حمراء... أوراقُها رُمحِيَّةُ الشَّكلِ، لامِعٌ سطحُها... بديعة المنظر. في فصلٍ ما من فصولِ العامِ، كانت أفرع أشجارِ الرُّمَّانِ تستَطيل، تتحوَّلُ إلى أشواكٍ قصيرةٍ. حاولتُ في أحدِ الأيام أن أقطُف تلك الرُّمَّانة الكبيرة، جَرَحْتُ أصابعي بتلك الأشواك القاسية، وبكيتُ حتى جَفّت دمائي.

"أحدهم قادم... أشعُرُ بخطواتِ أقدامِهِ تَدبُّ على الأرضِ"

اختبأتُ بينَ الأشجار...

كانوا... عماليق... أكثرُ من ثلاثة... لا أذكر..

كنتُ خائفةً..

لم أكن أعلمُ أن هناك من هم أكبرُ حجمًا...

وما أخافني أكثر، هو أنَّهم أتوا من تلك الغابة الموحِشة، كثيفة الأشجار.

أتى ثلاثةٌ منهم في البداية، كانوا يبحثونَ عن شيءٍ لم أكن أعرفه. تلاهم اثنان أكثر قُبحًا، ثُمَّ حُرَّاس كُثُر، يقطعون الأشجارَ بسيوفِهم العملاقة، يصرخونَ فَيُخيفونَ الطَّيْرَ عليها. توقفوا على مقربةٍ من الحديقة، التي جَمَعتُ فيها كل حبَّاتِ الرُّمَّان. تهللت وجوههم، قفزوا في فرحٍ، نادى أحدُ العماليق بصوتٍ ارتَعَشَت له الشَّجَرة الكبيرة خوفًا، وبكَت من حبَّاتِ الرُّمَّانِ أعلاها...

- **أحضروا الأقفاص!!...**

أقفاصٌ خشبيةٌ كبيرةٌ، جمعوا ما استطاعوا من الرُّمَّانِ الأحمرِ الطازج، بينما، لم يُلاحِظوا ذلك الأرجواني الحامض، الذي كنتُ قد جمعتهُ بعيدًا عن الأحمر، في الحديقةِ الخلفية.

عادوا من حيثُ أتوا، من الغابَةِ الموحِشة. اقتربتُ بحَذَرٍ، عَلَّ أحدهم لا يزال موجودًا. كانوا قد حصلوا على كل حبَّةٍ تقريبًا، ركضتِ إلى حيثُ الحديقةِ الخلفية، وهناك، كانت حبَّاتُ الرُّمَّانِ الأرجوانية الفاسدة قد أصدَرَت رائحةً كريهةً. عُدت إلى الأشجار، كانت حزينةً، بائسةً، وكنتُ إلى جانِبِها أجلس... أربتُ عليها بحنانٍ، أواسيها، أقول لها لا تحزني، لن يأتوا ثانيةً. بينما كنتُ أبكي بذلك السائل الشفاف الذي لا يَجفُ من عينَيَّ، والأشجارُ تبكي ورقًا وأزهارًا حمراء ذابلةً... لمَحتُ شيئًا! أشياء صغيرة، سرطانات كانت خارجةً بِجوارِ الأشجار. ألمسها بأصابعي الصغيرة،

أحملها، خَيِّلَ إليَّ أنها أبناؤها الصغار، كانت عبوسة جدّا...

- أتَبكون كما تبكي أمُّكُم؟!!

حملتها، جميعها، ووضعتها بِتُربَةٍ قُربَ النَّهرِ الجميل. غطيتها بالطِّينِ، خبَّأتها، كيلا يأتونَ مرَّةً أخرى ويخطفونها مثلما فعلوا مع الرُّمَّان.

لن تصدق هذا، تمامًا مثلما لم أصدِّق أنا في البداية!!

مرَّت مدَّة، لا أعلمها، ولم أهتمَّ بِعَدِّها...

عُدتُ إلى النَّهرِ من جديد، صُعِقتُ مما رأيت!!

السرطانات التي كنتُ أخفيها تحت الطين، أبَتْ أن تختبئ وتهرب من العماليق!!... لقد نَمَت من جديدٍ... نَمَت أشجارًا وحبَّات رُمَّان، تكسو بعضها زهورٌ حمراء رُمحيةُ الشَّكلِ!!...

حديقة جديدة من الرُّمَّانِ قد تشكَّلَت!!

أنا أقضي هنا، على تلك الأرض، فترةً غيرَ معلومةِ الأجل. لا يحدُثُ بها سوى أنِّي بِتُّ أجمَعُ السرطاناتَ المُجاوراتِ للأشجار، أُخبِّئُها في التربة، أهمِسُ بها، أرجوها ألا تصعد من جديدٍ كيلا يأتوا ويخطفوها... لكنَّها تأبى الاختباء... تكبرُ وتعلو أشجارها... حتى في تلك الأيام التي كان الجفافُ يضرِبُ بها الأرض، وتتشقَّقُ التُّربة، لا تتوقف أشجارُ الرُّمَّانِ عن النمو أبدًا... حتى يأتي يومٌ، آخرُ، وتأتي العماليق الكريهة، من الغابة، تحمِلُ أقفاصها الكبيرة، تعرِفُ وجهتها ككُل مرَّة. أختبئ من جديدٍ خلفَ الأشجارِ، أراقبهُم... إلى أن جاء يومٌ... أتى أحدهم. كانَ غريبًا، لكنَّهُم كانوا ينحنونَ أمامَه... يلقبونَهُ بال-"أخ الحنون"... أتى غاضبًا، ثائرًا، يُفَتِّشُ عن شيءٍ وسط حباتِ الرُّمَّان الحمراء النَّضِرَة...

- ليسَت تلك، ولا تلك... لا لا... ولا هذه... ولا... آاااه، لا تُشبِه تلك الحبات الحمراء اللعينة...

كان يضربُ الأرضَ بقدمَيه، يمسِكُ بَحَبَّة رمان حمراء، يشمّها، يشقّها نصفين بسِكِّينِهِ، يتذوَّق ما بها، ثم يقذفها على الحرَّاس أو العماليق. كان يصيحُ بهم قائلًا:

"الأخرى كانت أرجوانية يا أبناء العاهرات... أرجوانية لا حمراء، ألا تفهمون؟!!"

كان الجميع يردون عليه بأن الحبة الأرجوانية كانت حامضة... لكنه ظل ينعتهم بأبناء العاهرات ويقول بأن طعمها كان يُشعِرهُ بِلَذَّةٍ عجيبة، تجعلهُ يرتعش ويقفزُ حتى يكاد يلمِسُ السماء!!

أرعبتني نظراته، تراجعتُ إلى الوراء، حتى هشَّمتُ أغصانًا على الأرضِ أسفَلي!!...

- من تِلك؟!!... أمسكوها...!!

ركضتُ...

أركضُ.. أركضُ.. أركضُ...

لا شيء سوى الركضِ...

لا أفكرُ، لا أنظرُ خلفي..

وأصواتهم تصرخ، ودبيبُ أقدامهم يَرُجُّ الأرضَ...

- أمسكوا تلك العاهرة... لا تجعلوها تُفلِت... لم أعُد أريدُ رمانًا من تلك الأشجار... أوَدُّ

أن أقطف تانِك الرمانتَينِ السَّاخِنَتَينِ المُتهدِّلتَينِ على ذلك العود المُقوَّس!!

هكذا كان يصرخُ، وهو مَحمولٌ على كَتِفِ أحد العماليق، يكاد يسبقني...

أوَّلُ ما جالَ بِخاطري، كان الهربُ إلى الحديقةِ الخلفية...!

اختبأتُ بينَ أشجارِها، كانت هناك تلك الشجرة... شجرةٌ عظيمةٌ أخرى... لا تطرحُ إلا حبَّاتٍ أرجوانية، وكان الشَّوكُ على فروعها مُخيفًا... قاسيًا لا يرحم...

لم أجِد أعلى منها كي يكونَ مهربًا، من العماليق الفارعة. تسلقتها، وما تركتني أشواكها إلا وجرحتني. ظللتُ أتسلق وأجرح، بينما في الأسفلِ كانوا قد تجمعوا، وتوقَّفوا...

- أووووه... ها هي ذي!!...الرُّمَّانات الأرجوانية...!!

صاحَ مُهَلِّلًا، نَسِيَني تمامًا. أخذَ يتفقَّد بعضها، يتذوقها، تعلو وجههُ القبيح نظراتُ اللذَّة. أمَرَهُم أن يجمعوا ما يقدرونَ على حملِهِ، بحثَ في الأشجارِ الأخرى، لم يَجِدني، ولم يَجِد حبَّاتٍ أخرى. تركوا المكان، بينما كنتُ مُعَلَّقة بالفرعِ المُشَوَّكِ، تقطَّعَت يداي، تركتُ نفسي أسقُط... حتى وقعتُ بِكومةٍ من الشوكِ الضاري، تقلَّبتُ فيه، كنتُ أصرخُ وأتأوَّه، أتدحرجُ على منحدرٍ امتلأ بأشواكِ تلك الشجرة...!

لم أدر بنفسي، إلا عندما أفَقتُ، وقد كانت الشَّمسُ بالأعلى قد هربَت إلى ذلك التَّل حيثُ أخَذتُك... هربَت وتَخَلَّت عني... لم توقِظني! أفَقتُ وأنا أشعرُ بأنَّ وجهي يتقطع، أتلمَّسُهُ، فتغرق يدي بالدماء الحمراء!!... ذات الدماء التي نزفَت حينما جَرَحتُ يدي أوَّلَ مرَّةٍ من تلك الأشواك. بكيتُ مرة أخرى... بكيتُ إلى أن هدأت...

أتعلم يا "آسن"؟!...

ذلك السائِلُ الشفاف، الذي دومًا ما كان لا ينساب من عينَيَّ إلا عند الشعورِ بالألمِ أو بالوحدة...

ذلك السائل عجيب!!...

لكن هذه المرة، لم يغسل فقط الدماء التي نَزَفَت من وجهي...

بل... شَعَرتُ كأنما غَسَلَ ذلك الشعور الغريب، الذي أتاني لمَّا كانوا يُطاردونني. شعورٌ باردٌ، أزرق، بعيد، هكذا أحسستُ... أزرق... لكن ليسَت تلك الزُرْقة بالسماء...

السائِلُ الشفاف الذي لا أعرفُ سببًا له، أراحَني جدًّا... لكنه... بعدَ أن جَفَّفَ دمائي... تركَ وجهي مليئًا بالتعاريج والحُفَر... خنادِق بالطولِ وبالعَرضِ كانت وما زالت هنا، تتوزَّعُ على وجهي كلّه!! لا أقول إني لا أتمنى أن أعرف شكلي الآن، لكنِّي خائفةٌ، أنا دومًا خائفة، إلا أنِّي سأخاف أكثر لو لم يُعجبني شكلي بتلك الخطوط والحفر على وجهي!!

قد تجِدُ ما أحكيه غريبًا، لعلَّكَ الآن تفكر بأن هذا المكان... ربما ليسَ وطنك كما ظننت. ربما عليكَ أن تهرب، لأن أهل الخارج هؤلاء لن يتوقفوا عن القدوم، أعجبهم الرُّمَّان الأرجواني الفاسد أكثر من الأحمر الطازج. أخذوا ما أخذوا من الأرجواني، بينما كانوا يتركون الطازج، أحيانًا يُضرِمونَ فيه النَّارَ بِشُعلاتِهم الذَّهَبية... يستخدمونَ أحجارًا سوداء لم أرَها من قبلُ، لكنِّي كنتُ أجمعها، أخبِئها كلما ألقوا منها هنا. أدفنها في مكانٍ بعيدٍ كي لا يجدونها، ويضرِمونَ النار من جديدٍ... ومهما حاولت... كانوا يأتونَ بكمياتٍ أكثرَ في المرات التالية!! سَئِمْتُ من جمعِ السرطانات ودفنها في التربة، ما داموا لا يبحثون عن الرمان الصالح. يستمرَّون في تركِ الصالح... حتى يَذبُل، ويتبدَّلَ لونهُ، ليصيرَ أرجوانيًّا، حامضًا... فيأخذونهُ هكذا!

****

22

الأيامُ الذَّهَبِيةُ على المروجِ الخضراء، لا تنتهي. "آسنُ"، بعدَ ما حكَتهُ "شمس"، لم يَعُد يُفارِقها. كانا يستكشِفانِ كل شِبْرٍ من جديدٍ، يهمِسانِ بالحَجَرِ، ويستمِعانِ إلى الألوانِ من حولهما. اصطَحَبَتهُ إلى الحديقةِ الخلفيةِ، حيثُ رأى أطنانًا من الرُّمَّانِ الفاسِدِ، الأرجواني، يملأُ تربتها. رائحتهُ المُسْكِرة تُهَيْمِنُ على الهواء، لونهُ الأرجواني، شكلَهُ الذي تذكَّرَهُ من الوهلةِ الأولى، وذَكَّرَهُ بالأيامِ السالفةِ وأهلِ الرُّمَّان. ينظرُ بالأعلى، لا حدودَ لِسماءِ المروج، لا أسوارَ حولها، لا ينقَطِعُ الضوءُ الأصفَرُ هنا... حتى إذا ما خَجِلَت الشَّمسُ منهما... تركتهما قليلًا، هاربةً إلى التَّلَّةِ المكسوة بأزهارِ البنفسج، تاركةً ضوءًا برتقاليًّا رائقًا... وظلالًا بنفسجية تحتوي نَومَهُما الهادئ.

- ولكن... ما كُل هذا الفَحم؟!
- قُلتُ لك، يأتونَ بِهِ لإضرامِ النَّار.

عيناهُ الحمراوان، تستطيع أن تُفَرِّق الفحمَ الأسود عن أي حجرٍ آخر. أمسكهُ بيده، لم يَكُف عن إخبارها بكل خواص تلك الصخور السوداء الفريدة. كان يقولُ إن شغله الشاغل في المحرقة العظيمة هو أن يستكشِف الفحم، ويُخَمِّن من أي جُثةٍ أتى، وكانت "شمس" تستمِعُ باستغراب. يحكي لها عن لوحاتِهِ على جدران البئر، لا يكف عن سرد ذات الحكاية حتى وإن ذَكَّرَتهُ "شمس" بأنّه قد رواها من قبل مائة مرَّة. يعتذر منها، ثم ما يلبث أن ينسى حتى يتذكر لوحة أخرى، يحكي تفاصيلها... وهي تبتسم، ولا تكُف عن ملاحقةِ شَفَتَيْهِ في الحديث... حتى ما إن كاد يقوم من مقعدِهِ على الأرض... اقتربَت منه... قَبَّلَتْهُ بِشَفَتَيها الطريَّتَنِ على خَدِّهِ الأيسر...

قُبلَةً، طويلة...

دافِئة...

دَفَعَها...

أطال النَّظَرَ إليها، يُحَدِّقُ في الشَّفَتَينِ الوردِيَّتَينِ، والبَشرَةِ التي بَدَت أكثَرَ ذَهَبِيَّة، تحتَ شَمسٍ ساخِنةٍ...

شيءٌ ما يتحَرَّك خَلفَ ضلوعِهِ..!!

يضطرِب، يحاولِ كسرَ الضلوعِ والتحليق بعيدًا...

شيءٌ ما، خلفَ ضلوعِهِ، يَشعُرُ بِهِ يتقافَز للمرَّةِ الأولى..

- ماذا فَعَلتِ بِي؟!!
- ماذا؟!...

الشيءُ الذي نَبَتَ خَلفَ تلك الضلوعِ الخاوية، ظَلَّ يقرَعُ طبولَهُ، يَضُخُّ سائِلًا شَعَرَ "آسِنُ" بِهِ يتغَلغَل في كل شِبرٍ بِجَسَدِهِ. لم يتوقفَ، حتى جَعَلَ من وجنَتَيْهِ حمراوين ملتهِبَتَين... هَرَبَ اللونُ الأزرَقُ تمامًا، من الجَسَدِ البارِد... بينما... غَلى الأحمَرُ، بُركانٌ فائِرٌ، ينبِضُ بِقوة، يوَتِرُ الآسن الذي ما عادَ آسنًا.

"شَمس" تَضحَك...

تراقِبهُ وتُصَفِّقُ بيَدَيها...

- انظر إلى عينَيك!!...

لا يَسَعهُ إلا أن يَبتَسِم، مُجبَرًا، أمام تلك الشَّمس السَّاطِعة...

وهو لا يفهم، إنها المرَّةُ الأولى، التي يزولُ فيها الأزرقُ البارِد...

المرَّةُ الأولى، التي يَهربُ فيها الخوفُ، من الجَسَدِ الآسِنِ، فَيَسكُنُ الدِّفءُ خواءَهُ...

المَرَّةُ الأولى، التي ينبتُ له "قلب".

****

23

"

... ...

"!!!..

كلما بدأت "شمس" بالبكاء، كان يُمَلِّسُ على شعرها بحَذَر، يتقرَّبُ منها، يُحَدِّثُها عن تلك البلدةِ التي لم يعرِف بها رِجالًا. يُحَدِّثُها عن النساء اللاتي يَدَّعينَ الشَّرَفَ في العملِ بالبيتِ الذي كان أصفر. يحكي لها، عن ذلك الرجل قوي البنيةِ، الذي كانَ يُقَبِّلُ أقدامَ الحرَّاسِ أمام البيت، يترجَّاهُم أن يتركوهُ يعمَلُ بالداخِلِ كعاهرة. كلما رآها تَبكي، كان ذلك الشيءُ النَّابِضُ الذي نَبَتَ له خلفَ ضلوعِهِ يتألَّم. كلما كانت تبكي، كان يَشكو لها ضعفَه، يَصِفُ لها كم يراها أقوى من رِجالِ بلدةِ الرُّمَّانِ بأكملها... البلدة التي يتسكَّعُ فيها الرجال بينما تعملُ نساؤُهُم...

- لو أنَّهُم يأتونَ هنا، يَرَوْنَ كم أن محصولهم من الرُّمَّانِ تزرعهُ أنثى فاتنة مثلكِ... لَغاروا مِنكِ يا غبية... لا تبكي..!!

- ولكن... أنا لا أريدهم أن يأتوا... ابقَ أنت فقط!

"البقاء"...

كلمة باتت غُصَّة في حلقِ الآسن.

تُكَرِّرُها "شمس"، تنظرُ إلى العينَينِ الحمراوَينِ اللتينِ ما عادتا جاحدتَينِ، عينانِ أصبَحتا أكثَرَ لَينًا... وقَلَقًا! يُغَيِّرُ دِفَّةَ الحديث، يسألها عن ذلك الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر، تتأفف منه.. وتتركهُ هاربةً إلى صَخرَةٍ ما، تستندُ إليها وتبكي. "آسِنٌ" لا يفهم سببَ بُكائِها المتكرر، كلما ذُكِرَت كلمَتَا "الرحيل" و"البقاء"، الأولى تجعلها تعيسة، والثانية تَخلقُ منها البهجة... لكنه أيضًا لم يَعُد يفهَم ذلكِ السبب الذي باتَ يجعَلُ من الشيءِ النابِضِ خلفَ ضلوعِهِ بركانًا ثائرًا، مُضطَرِبًا... كلما رآها قلقة.

- تريد أن تتركني؟!!... تراني قبيحة أليسَ كذلك؟!...

- لا!..

- أنتَ غَبي... أغبى مخلوق حَطَّت قدماهُ على تلك المروج..

- صدقيني أنا لم أقابِل مثلكِ يا شمسي!!

- تشتاقُ إلى نساءِ بلدتكم، إلى تلك التي لا تكُف عن الحديث عنها!!

- قُلتُ لَكِ أنتِ لَستِ مثلهنّ... الأمرُ فقط أني... ما زِلتُ لا أعرفُ من أنا!!

- أنت "آسن" فحسب، وهذا كَل ما يهمُّني...

ينظرُ إليها، بعينين حزينتين...

- أرأيتِ؟!... حتى أنتِ تنعتينني بالآسِن..

- وما أدراني باسمٍ غيرهُ يا غبي... أنا أكرَهُك!!

تعودُ للبكاءِ من جديدٍ، لا يَسَعهُ أن يفعل شيئًا لها... ما زال يتأمَّلُها في صمتٍ... لا يفهَم ماذا تريد.

انقضت مُدةٌ، لم يَهتَمَّا بِحسابِها، كانا فيها لا يتحدثان. الشمسُ بالأعلى تدورُ دورانها المعتاد، بينما الشمسُ بالأسفَلِ عبوس، أبَت أن تَمْنَحَ الأصفر، فكانَ وجهُ الآسنِ مُظلِمًا، مُعتمًا، بارِدًا لم يطأهُ الدِّفءُ. كانَ يستيقظُ قبلها، يأتي بِفحمٍ من الذي كانت تُخَبِّئُهُ، يرسمُ لها لوحاتٍ على صخورٍ راسِخاتٍ بجوارها. يرسمُ أناسًا وحيواناتٍ، يرسمُ زهورًا وطيورًا.. ويرسِمُ الشَّمسَ بالأعلى، تُضيءُ للجميع. كانت تستيقِظُ لترى ما يفعل، ومهما رَسَمَ لها، تلتقط حِجارة صغيرة من الأرض، تَقذِفها بِقسوةٍ على الرسومات... تصرخُ بِوجهِهِ...

"كُلّها سوداء... كلها كاذبة... تمامًا مثلك... الشمسُ سوداء، والزهورُ سوداء، الناسُ سود، وتلك الطيور اللعينة ليسَت ملونة، سوداء أيضًا... أينَ الألوان الحقيقية؟!!... أتَكذِب؟!... انظر للشمسِ بالأعلى... أتراها سوداء يا أعمى؟!!... كاذِب، تمامًا كلوحاتك!!"

كلما صَرَخَت أكثَر، اهتَزَّ القلبُ النابِضِ خلفَ ضلوعِ "آسِن"، كانَ يُشعِرهُ بِذاتِ الشعور عندما كان أهل الدَّابَّةِ يركضونَ خلفَهُ، وعندما قَطعوا ذراعَهُ اليُسرى... شُعُورٌ مقيت...

- ولكن ماذا أفعَل لكِ؟!!... لم أجِد سِوى الفحم الأسود.

لا تَكُف عن الصراخ والبكاء، ترميهِ بالحجارة، ثم تهدأ. كان البكاءُ قد أعياها، ذَبَلَت كَتِلكَ الزهور على المروجِ الخضرَاء. بينما كانَ يتأمَّلُ الشَّمسَ بالأعلى، يبحثُ عن مَشرِقها، يبحَثُ عن هويتها، ويُحاولُ أن يَلتقطها بِيَدِهِ اليُمنى... وقفت...

حدجته بنظرةٍ لائمةٍ، أشارَت إلى موضِعِ ذراعِهِ اليسرى المقطوعة...

- ألم تسألني حتى لماذا لا أخشاك؟!... لماذا اطمأنَّ قلبي لك، رُغمَ تلك الذراعِ المقطوعة، وكُل النُدبات التي تملأ جسدَك؟!!... نعم لم أكن وحدي هنا على تلك الأرض... كَذِبت... كان هناك آخر... يُشبِهُك، ذراعاهُ قويتان، أتعلَمُ من أينَ أدركتُ قوَّتَهُما؟!... من تلك الصفعات التي كان يوَجِّهُها لي كُل صباحٍ ومساء، حتى خُيِّلَ إليَّ أنه قد وُجِدَ في تلك الحياة ليضربني وحسب. لا أعلمُ من أينَ أتى، لكَنَّهُ كان يذهَبُ ويَجيءُ من الغابةِ الكثيفة، المُرعِبة. كنتُ أجمَعُ السرطانات وأزرعها في البداية لأجلِهِ هو، كانَ يَلتَهِمُ الرُّمَّان بِنَهَم لا ينقَطِع، ولمَّا تنتهي الكمِّية المزروعة، يصرخُ بي أن آتيه بالمزيد، فأقوَل له بأننا سنَضطر لزراعة محصولٍ آخر... يضربني بِقسوةٍ. أزرعُ من جديدٍ ما يكفيه، لكنَّهُ لا يكتفي... حتى كانَ يوم... يَقِفُ فيهِ على تلك التَلَّة التي تذهَبُ إليها الشمسُ مع نهايةِ اليوم، هناك، كان يسحبني رُغمًا عني لأشاهِدَ الشمسَ معه... هناك، لم أفهم أبدًا لمَ يُجبرني على فعلِ ذلك... حتى... بَدَت لي التلة عاليةً ذاك اليوم، ونظرتُ للأسفلِ، وجدت كل شيءٍ بعيدًا... سحيق... والزهورِ متناهية الصِّغَر، حتى الصخرة الكبيرة التي كنا ننامُ أسفلها، باتت بعيدة من الأعلى... لم أفكِر... كُل ما أردتهُ هو أن أدفعهُ بعيدًا عني، كي لا يضربني بذراعَيهِ القويَّتَين... دَفَعتهُ من أعلى التَّلَّة... كانت آخرُ نظرةٍ على وجههِ غاضبة، ربما، لم يَكُن يُصَدِّقُ أنَّ بِمَقدوري فعل ذلك... وعندما أتيت أنت!!... لم أخافك، ربما ذراعك المقطوعة تلك طمأنتني، أنك على الأقل لن

تؤذيني مثلما فعل هو... ربما جِراحُك وندوبك التي تكسوك تَشبِهَ تلك التي تملأني... ربما لا ملجأ لنا سوانا، أنتَ تُشبِهني في كُل شيء، لقد آذوا كِلَينا... لا تذْهَب...

كان "آسنُ" يستمِعُ بإنصاتٍ، يرى على وجهها للمرة الأولى علاماتِ الاحتقان، الكُره، تلك المشاعِر، التي كانت تكنّها لذلك الغريب الذي قَتَلَتهُ لا توصَف. كانت تَخشاهُ أكثر من خشيتها للآخرينَ الذينَ أتوا من نفسِ الغابة. حاول أن يَرُد على كلامها، يُقاطعها، لكنَّها نَهَرَتهُ بِغِلظة...

- لا تتكلم!!... لقد سَمِعتُ ما يكفيني من هرائك، أنت لا تفعلُ شيئًا سوى الكلام وأنا أسمع... لا تفهم... تبحثُ عن مجهولٍ قد لا تَجِد له وجودًا... أقول لك أنتَ الوحيد الذي أعطاني شيئًا فابقَ معي، وتقول لي "أريد أن أعرف من أنا؟!!"... وماذا إن عرفت؟!... هل ستعود إليَّ؟!

- حتى هذه لا أضمنها يا شمسي... لعَلِّي أجِدُ أصلي مَسْخًا بالفعل، وقتها، لا أعلمُ إن كانَ بمقدوري أن أعود أم أبقى وحيدًا..

كلماتهُ الأخيرة، أخرستها. تنظرُ إليهِ بِتَعَجُّب، بينما يديرُ وجهَهُ لها، ينظرُ إلى الشَّمس بالأعلى، يقفزُ من جديدٍ محاولًا الإمساك بِها. القُرصُ بعيدٌ، بحجمِ عُقلةِ إصبَعِه، يُغضِبهُ أنه لا يتمكن منه أبدًا.

- أتَعلَم؟!... بِتُّ أكرهها، لا أريدُ رؤيتها على تلك الأرض... أتمنَّى أن تتمكَّن من الإمساكِ بها يومًا، فتنطفئ هالتها، وتحرِقُ يَدَكَ الأخرى... وأرتاح أنا..

انتبهَ لحديثها، اقتربَ منها، قَبَّلَ رأسها بِهدوءٍ، قال لها كَم يراها جميلة، وكم كان يتمنَّى لو أن تأتي معهُ إلى بَلَدِ الرُّمَّان، فيُرِي الناسَ هناك تلك المرأة التي يأكلونَ بِسَبَبِها، يُري النساء هناك كيف تكونُ الإناث الحَق... لكنه حتى لا يعلمُ إن كان سيعود أم لا، لا يذكرُ من ذلك البلد سوى الخرابِ والآلام التي سببوها له... لا يذكُر منها سوى النَّبذِ والبِئرِ القذرة، حتى إن رائحتها لا تزالُ عالقة بِجِلدِهِ لا تُفارِقهُ.

- أنا أبحثُ عن الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر... أبحثُ عن حقيقةِ الألوان، التي وجَدتُ نفسي مفطورًا على رؤيتها في تلك البحيرة... سامحيني، لا يمكنني أن أعشقَ وأنا مجهولُ الهوية...

أيقَظَتها الشمسُ بالأعلى، والسماءُ التي خَفَّت زُرقَتُها. بَحَثَت حولها، لم تَجِدهُ نائمًا أسفَلَ الصَّخرة. وجدَت بِضعَ أحجارٍ من الفحمِ، مُفَتَّتَةٍ على الزَّرعِ، وجدَت على الصخرةِ لوحة...

اقتربَت منها، تتبَيَّنُ ملامحها...

وجهٌ بديعٌ لِفتاةٍ، عيناها سوادٌ مُهلِك، يتوِّجُهما ليلٌ مُموَّجٌ يتدرَّج للأسفَلِ...

شَفَتانِ ممتلِئَتانِ، وأنفٌ دقيقٌ...

بالأعلى، شمسٌ، لكنَّها ليسَت سوداء، كان قد ألصَقَ أوراقَ أزهارٍ صفراء فاقعة، ملأ بها دائرة مرسومة، أكبَرُ من حجمِ عقلةِ إصبَعِه، أرادها أن تَعي أنه ليسَ بأعمى... فقط... لا شيء سوى الفحمِ يملُكهُ...

أمعَنَت النَّظَرَ في الوجهِ المرسوم...

وجهٌ خالٍ من الندوب...

****

الغابة والنهر، طريقانِ يغشاهُما المجهول، والآسِنُ هَرَبَ من الشَّمسِ بلا رجعةٍ. تأمَّلَ ظلام الغابة، اضطرَبَ القلبُ الجديدُ من وحشتها، لم يتقدَّم خطوةً واحدةً لاستكشافها. كان يشتَعِلُ من ذلك القلب، الذي ما عاد يترك له خيارًا إلا وتَدَخَّل به. يمنعهُ من المُضِيِّ قُدمًا تارةً، يُجبِرهُ أن يُفكِّر مرَّتَين تارة أخرى، يدفعهُ إلى الجنون أحيانًا، وفي أغلبِ الأوقات... يدفعُهُ نحو الهاوية. يضرِبُ صَدرَهُ محاولًا إخراج ذلك الشَّيء التي زَرَعَتهُ "شمس"، يضربُ رأسهُ بالصخور علَّهُ يختفي، لكنهُ يشعرُ بآلام أقسى. تركَ الغابة، بَحَثَ عن النَّهرِ من جديدٍ. النهرُ جارٍ لا توقِفهُ رياحٌ مُعاكِسةٌ، يتمَعَّنُ "آسنُ" بنهايةِ المجرى، فلا يلتقِطها بِعَينَيه. لا مَفر آخر، فقفزَ بِهِ يسبحُ باتجاهِ التيار، تاركًا جسدَهُ يُسَاقُ إلى مجهولٍ آخر... قد يدلُّه على هويته.

العَومُ بذراعٍ واحدةٍ شاق، كُلِ شيءٍ بعدَ فقدانِ ذراعِهِ الحبيبةِ شاقٌّ، ومكانُ البَتْرِ يَقتُلُهُ كل يوم، يُذَكِّرُهُ بالقومِ المُلَوَّنين. حمَلَهُ النهرُ الجارف على طولِ طريقٍ بدا مُخضَرًّا، انسَلَخَ الأخضرُ منه شيئًا فشيئًا، غَلَبَت الصُّفرةُ من جديدٍ. رمالٌ صفراء، ليسَ كذلك الصفار من الشَّمسِ التي رآها. صفارٌ مؤلِمٌ لِعَينَيهِ الحمراوَين، صفارٌ لا ينتهي، والطريقُ أمامهُ أبَديٌّ. مياهُ النَّهرِ جُنَّت، تسارَعَت، تَلهَثُ بأمواجِها الصغيرةِ التي كانت تصفعُ الآسِنَ على وجهِهِ كلما غفا واستَسلَم، تتسارَعُ كأنها تلحق شيئًا. "آسِنُ" فَقَدَ كُل أمل، الطريقُ الرملي على جَنبَي النهرِ لا ينقطِع... والآسِنُ يصرخُ ولا يتوقَّف...

- لم أعُد أريدُ شيئًا... أريدُ العودة!!... أريدُ العودةَ إلى الألوان... آاااااه... كَرِهتُ الأصفَر..!!

يصمُت لوهلةٍ، كلما نظرَ للأعلى... تلكَ الشمس المُدَوَّرَةُ لا تزالُ هُناك... كأنها تنظرُ إليه، تبتَعِد، حتى باتت أصغَر من عُقلَةِ إصبَعِه. يصيحُ بها، يستنجِدُ...

- ألا تذكُريني؟!... أنا الذي تركَ كُل شيءٍ ليراكِ... أنا الذي بَحَثَ عن أصفَرِكِ في كُلِّ بُقعةِ ظلامٍ دامِسة... أتبتعدينَ عني الآن وأنا تائِهٌ في الملكوتِ الشاسِع؟!...

تبتَعِد، يبتَعِدُ أصفَرُها، يَخْفُتُ سطوعها، بينما يناجيها الآسِن. صورةُ البئرِ والمحرقةِ تأبَى أن تترُكَه، ينظرُ من جديدٍ إلى أعلى...

- بَحَثتُ عن الذي يعلَمُ ما بين الأحمرِ والأخضر... فما وَجَدت أحمر ولا أخضر... لكنِّي وجدُّتكِ أنتِ... أخرجيني من تلك الغُربَةِ، بِحَقِّ كُلِ نُدبَةٍ على ذلك الجَسَدِ المقهور، بِحَقِّ كُل قطرة دم خَسِرتُها... إن كُنتِ خاصَمتِني لأنِّي حاولتُ الإمساك بِكِ على أرضِ المروج فهذا من لهفتي للقائكِ... العطشانُ لا يُلامُ على سَرِقَةِ الماءِ المُقَدَّس... أليسَ هذا ما كان "ودود" يُرَدِّدهُ؟!... أليسَ هذا ما كانَ يتلوهُ من كتابِ القدير؟!... وأنا... عطشانٌ للألوانِ، بَحَثتُ عن كُلِ أصفَرَ في البلاد، فما وجَدتُ في غَيرِ أصفَرِكِ أصفر... إذا كُنتُ قد أزعَجتُكِ بمطاردتي، فأنا آسف... أنا بائِسٌ تائهٌ يبحثُ عن أصلِه... لا... لا تبتَعدي أرجوكِ... إذا أردتِ تركي، على الأقل أعيديني، أعيديني إلى المروج... لا أريد العودةَ إلى بلدِ الرُّمان... لا أطيقُ البقاءَ في البئرِ الكريهة، والمحرقةِ العظيمة... لا أطيقُ رؤيةَ الألوانِ الباهِتة، التي يُطفئُ بهجَتَها الظلام، ولا يُسعِفُها ضوءُ الشُّعلاتِ المُرتَعِش، الذي لا حول له ولا قوة، لا يُدفِئُ من أحدٍ من أهلِها، ولا يُضيءُ له الدَّرب... اسمعي، أيتها الكرةُ اللعينةُ بالأعلى... أنتِ من أخرَجتِيني من غفلَتي، ليتَكِ كُنتِ تركتِني!!... أنتِ السَّبب... أعيديني كما كُنتُ... جاهِلًا بالنورِ، أعمى بالألوان... انتظري!!... لا تَذهَبي!!... يا كُرةَ النُّورِ يا كاذِبة!!... انتظري...

أصابَهُ صَفارُ الرمالِ الذي لا ينتهي من حولِهِ بدوار، راحَ يُجَدِّفُ بذراعٍ يَتيمَةٍ نحوَ الهاوية، التي سَقَطَ فيها مَغشِيًّا عليه... حيثُ العينَينِ المتثاقِلَتَينِ غَفَتا.

****

25

" ... "

يفتحُ عينَينِ، لم تبرد حُمرتهما بعد...

تلتقطانِ بقايا ضوء برتقالي، يُعافرُ وسطَ غيومٍ بدينةٍ، لا شَكلَ يَحِدّها، ولا لونَ يطليها... يولَدُ منها، جنينُ ضوءٍ ضئيل، يَهرَعُ إلى أرضٍ سوداء!!...

رمالٌ سوداء...

صخورٌ سوداء...

يتحسس موضع الذراع المقطوعة، يجدها كما هي. يبتسم، ظن أنه في كابوس، وربما حاله في الكابوس بذراعَين، حتى يفيق من إغمائِهِ ليجدَ أنه ما زال على أرض الواقع. يتأمَّلُ السواد من حوله، ليسَ ظلاماً كما اعتاده. كُل شيءٍ أسود، الرمال الدافئة التي التصقت حبَّاتُها بجسدِهِ ووجهه سوداء، يَفرُكُ بها تلك الأصابع الخائفة، المتردِّدة، لا يزولُ سوادُها. يتابعُ الضوء البرتقالي، يصيح عاليًا...

"ألن أهربَ منك أبدًا؟!"

المكانُ خاوٍ حولهُ، لا صوتَ لِطَيرٍ أو مخلوق، فقط، هو ذلك الحجر على ضفَّةِ النَّهرِ حيثُ وجدَ نفسَهُ. يتحسَّسهُ، حجَرٌ بِحَجمِ جَسَدِهِ، أسود، رائحتهُ عَطِرة، كرائحة تلك الأخشاب على أرض المروج... أرض المروج... "شمس"!!... يتذكرها، يتنهَّد طويلًا، ينظرُ للأعلى إلى الضوء البرتقالي الباهت...

- وأينَ هي الشمسُ الآن؟

يطردُ صورتها من ذهنِهِ المُرهَق، يتنبَّهُ لأصواتٍ قادمةٍ من الخلف، من حيثُ طريقٍ رملي تَحدُّهُ الصخورُ عن الجَنبَين، وتكسو ما حولَهُ نَخيلٌ مِعوجَّة القامات، مُنْحَنِياتٌ للأمام كأنهن ساجِدات، أوراقهن سوداء كالباقي. اختبأ خلفَ إحداها، يتوجسُ خيفة وينبِضُ قلبُهُ الجديد فيضطرب. دبيبُ الأقدام المتسارعة، والهواءُ الذي يضربُ على أقمِشَةٍ فضفاضَة كالدفوفِ... أصواتٌ شَتَّى... وحصَى على الأرضِ الرملية يتأوَّهُ مستنجدًا ممن يدفنونهُ بأقدامهم.

الوجوه سوداء، مهما وقعَ عليها من ضوءٍ برتقالي لا يقدِرُ على إضاءةِ سوادها. الأجسادُ عَفِيَّة، مفتولةُ العضَلِ، تُشبهُ عماليق بلد الرُّمَّان... إلا من قاماتٍ قصيرةٍ، قِزمةٍ. خَرَجَ "آسِنُ" من خلفِ النخلاتِ السَّاجِداتِ يتحسسُ خُطواته، يشاهِدُ بِعَينَينِ مذهولَتَينِ جماعةً من الأقزامِ سود الوجوهِ والأجساد، مفتولي العضلات... يسجدونَ أمامَ تلك الصخرة عَطِرَة الرائحة...

- بَحَثنا عن الذي يعلَمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر... فما وجدنا أحمر ولا أخضر... ولكنَّا وجدناكِ... يصبغُكِ السَّوادُ مثلنا، عَفِيَّةٌ مثلنا، عَطِرةٌ سيرَتُكِ، مِثل كُل من أتوا من النَّهرِ المَديد، وكُل من جَلَسوا على عَرْشِ النَّخيل...

خَرَجَ الآسِنُ عن صمته، أحدهم يذكُرُ ذاك العراف الذي يبحثُ عنه. هَلَّلَ فرحًا، اندفعَ مبتعدًا عن النخلاتِ الساجِداتِ يركضُ نحوَ جماعةِ الأقزامِ السُّود..

- أنا بَحَثتَ عنه، أنا مثلكم، تركتَ كَل شيءٍ خلفي... بَحَثتَ عن العرَّاف...!!

فَزِعوا منه، تَفَرَّقوا كما النَّمل بأرجاءِ الأرض، يصرخونَ من الخوف. "آسِنُ" يركضُ بينهم عملاقًا مُشَوَّهًا، تملأهُ الندوب، يُلَوِّحُ بِذراعٍ واحدةٍ، لونهُ الأحمر القاني بُركانٌ مُتَّقِد. الأقزام يصرخون، يتوافد المزيد منهم، يحملونَ سيوفًا وحِرابًا نَصلُها حاد، يأمرهُ الوافدون الجُدُد منهم بالتوقفِ، بينما يحاول هو تهدئتهم بإشاراتٍ من يدهِ. جَثا على ركبتَيهِ رافعًا ذراعهُ باستسلام. توقفوا عن الحراك، فَعَلوا مثلما يفعل، جَثوا على ركبهم يُلقونَ بأسلحتهم أرضًا ويرفعونَ أذرُعَهُم لأعلى. كان "آسِنُ" يراقِبُ أفعالهم، يقفُ على قدمَيهِ من جديدٍ ليجدهم يُقَلِّدونَهُ. يتحَرَّك صوبَ الصَّخرةِ السوداء العَطِرَة، تعلو وجوههم الدَّهشة...

يسجدونَ له، تمامًا كالنَّخلات...

يقتربونَ منه، يَعمَلونَ دائرةً حولهُ وحولَ الصَّخرة بجانِبه...

أحدهم يشير، بإصبَعٍ سَبَّابة قِزم...

- هو!!... هو يَعلَم...!!

يسجدونَ من جديدٍ، و"آسِنُ" يتأمَّلُ اتجاهَ سجودهم واتجاهات سجودِ النَّخلِ. هدأ اضطرابُ ما خلفَ قفصهِ الصدري، عَلِمَ أنه ما من خَطرٍ الآن، لكنَّهُم لا يَكُفُّونَ عن السجودِ له والتلويحِ بأياديهم القِزمة المُدَوَّرَة تجاههُ. سألهم إن كانَ بإمكانهم أن يُتركوه يبقى بعض الوقتِ ريثما يجدُ ضالَّتهُ، ظهرَ عجوزٌ مُتَهَدِّل البَطن، أفتحُ لونًا بمراحل منهم. حاول "آسن" أن يوَجِّه كلامهُ إليه، العجوز يأمرهُ بالنَّظرِ إلى الصَّخرةِ العَطِرة...

- انظر... أنتَ أتيتنا بعدَ حين، وما فقدنا الأملَ...

- أنا؟!... صدقوني ربما.. أعني.. من تبحثونَ عنه قد لا يكون أنا، أنا فقط مجرد...

- أنتَ من تعلم، لقد كُنَّا على وشك الهلاك، كان الضلالُ يحومُ حولنا منذُ أشهُرٍ، شبحًا جاثِمًا على صدورنا، تمامًا كتلك الغيماتِ الشريرات الملعونات التي تُجاهِدُ لِحَجْبِ النورِ عنَّا... لم نَكُن بهذا السواد من قبل...

- ولكن يا شَيخ أنا لستُ...

- انظر للصخرةِ وستعلم من أنت!!

الصخرة...

التي ما زادها ضوء السماء البرتقالي سوى لمعان، ولم يَخفُت سوادها...

كانت واقِفة بجانبهِ، شامخة. يرمقهم بنظراتِ استعجاب، لا يستوعب ما يرمونَ إليه...

- الصخرة... ذات الذراعِ الواحدة!!

لا يفهم ما يقولون، لكنهم لا يتوقفون عن السجود والتمتمة بلغةٍ لا يفهمها. ينظرُ من جديدٍ، يبتعِد عن الصخرة، يتراجع إلى الوراء...

صخرةٌ بِحَجم جَسَدِهِ، تُقارِبُ طولَهُ، تُماثِلُ عَرضَهُ، حوافُّها ناعمة ومتآكلة، هيئتها كأنها نُحِتَت على شكلِ جسَدٍ. يبرزُ منها جزءٌ طويلٌ من جانبها، يمتدُّ كأنما يريدُ أن يلامسَ السَّماءَ...

الشيخُ لا يتوقف عن ترديد جملته، لا يتوقف عن تشبيهِ "آسِن" بتلك الصخرة ذات الذراعِ الواحدة...

- يا أحمر الصبغة، يا من تعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر... دُلنا على أخضَرِك!!

****

26

“ ...

... ...

...!”

يُقال إن كُل من يُشبهُ الصخرة، السوداء العطرة، على ضفَّةِ النهر، هو الأجدرُ باعتلاءِ عرشِ النخيل. يُقالُ أيضًا، إن تلك هي أكبرُ الصخور حجمًا على الأرضِ السوداء. يُقال إن شكلها يتغيرُ كُل فترةٍ من الزمن، غير معلومةٍ، ولا يمكن حسابها... لكن بتَغَيُّرِ الشَّكلِ.. يتغيَّرُ أيضًا من يعتلي العرش. يُقالُ الكثير هنا، على الأرضِ السوداء، التي لم تُفلِحُ بقايا الشَّمسُ بالأعلى في تفتيحِ قتامةِ لونها... لكن... تبقى تلك مجردَ أقاويل تُلقى على مسامعِ الآسنِ منذ أن جَلَسَ على العرشِ المُزَيَّنِ بأوراقِ النخيل السوداء.

- الحياة كـ”مَلِك”... لا تضاهيها حياة...

كانت تلك أول كلماتٍ تخرجُ من فَم ”آسن”، بعد جلوسهِ على العرشِ لأوَّلِ مرة. ينظرُ إلى الأقزام السُّودِ من الأعلى، ساجدونَ له، لاَ يقومونَ إلا بأمرٍ منه. الشَّيخُ البدين يجاورهُ، يجيبُ عن أسئلتهِ ويسأله عن سِرِ الأحمرِ والأخضر. ”آسن” يتهرَّبُ من الإجابة، يقول إنه يبحثُ عن ذاك العرَّاف الذي يعلمُ كُل شيءٍ، يعلمُ الماضي ويصنعُ الحاضر وبذلك سيحكي له عن المُستقبل. الشيخُ يستمعُ إليه بإنصاتٍ، ثم يُقَدِّمُ له من العطايا والكنوز ما يُغنيه عن الكَونِ بأكمله، يرجوهُ أن يبقى معهم، بينما يتأمَّلهُ ”آسن” ويتأمَّل لونهُ الفاتح.

- أنتَ لا تُشبِهُ قومَك!!

- أنا أكبرهُم سنًّا، أقدمهُم عمرًا على تلك الأرض السوداء...

- هناك آخرون يُماثلونك في العُمر... أنت فقط... لونكَ...

صمت العجوز، يُفَكِّر، رَدَّ بكلماتٍ قليلاتٍ هادئاتٍ..

- ربما أعلمُ أكثر منهم..!

على العرشِ النخليِّ استكانَ الآسنُ، الذي ما عادَ آسنًا. يُمَجِّدونهُ ويُهَلِّلونهُ حتى يُعييهم التعب من الرقصِ والتمجيد طوال اليوم. ينظرُ للسماءِ ذاتَ الغيماتِ البديناتِ السَّبع، بالكاد يتساقطُ منها فُتاتُ ضوءِ القُرصِ الوهَّاج المُختَبئ. يستعجِبُ من تلك البلدة، قومها لا يشتغلونَ بشيءٍ سوى بِحَملِ الحجارة من مكانٍ ليضعوها بمكانٍ آخر. كلما أرادَ أن يتجوَّلَ بالبلدة، أمرَ الشَّيخُ بعضَ الأقزام بِحَملِ حاكمهم على عرشٍ آخر متحركٍ، قائلًا بأن ”لا يجوزُ لسماحةِ المَلِك أن يُدَنِّس قدمَيهِ الطاهرتَينَ على الأرضِ السوداء”. يحملونهُ ويسيرونَ بِهِ حولَ أرجاءِ أرضهم، يرى بِعَينَينِ مذهولتين معالمها السوداء. ليست بكبيرةٍ، الأقزام يحملونهُ ويركضون، يُدَغدِغونَ الرمال السوداء بأقدامهم الصغيرة، يُدَلِّكونها حتى يستوي ظهرُ البلدةِ من ذهابهم وإيابهم. يسألهم الآسن بتعجُّب عن البلدة الصغيرة، التي ما فَكَّروا أن يُغادروها... ليخبرهُ أحدهم بأن رجالًا منهم فقط من يَسمَحُ لهم الشَّيخُ بالسَّفرِ خارجها... ليجوبوا الأرضَ عارضينَ كنوزهم على بلدان أخرى ومقايضتها بالبخور العطرة أو حبَّاتِ الرُّمَّانِ...

- أو حتى النساء الحلوات من بلدةِ الرُّمَّان...

أحدهم قالها بِخَجَلِ طِفلٍ...

احمَرَّت وَجنَتَا القزمِ السَّوداوَانِ لما سأله "آسن" عن نساءِ بلد الرُّمَّان. حَكَى القزمُ عن آخرِ شُحنةٍ من النساء وهَبها "الأخ الحنون" للأرضِ السوداء، قائلًا بأسَفٍ أنها كانت تتضَمَّنُ أجمَلَ منَ مَرَرنَ عليهم، لكن الملك الذي كان يسبِقُ "آسن" لم يوافِق على تركِ نساءِ الرُّمَّان هنا.

- ولماذا لم يوافق؟

- لأنَّهُن كُن لا يُجدنَ شيئًا سوى إلهائنا عن عملنا الرئيسي، الذي كان المَلِكُ قبلَكَ يا سيدي الأحمر يأمرنا بِهِ على الدوام..

- عَمَل؟!!... أتسمُّونَ نَقلَ الحِجارةِ من مكانٍ لمكانٍ آخر دون فائدةٍ تُذكر بِعَمَل؟!!

- هكذا وجدنا أنفسنا نفعلها...

كانت الرحلة التي دارَت بـ"آسن" على عرشِهِ المتنقل حول البلد الصغير قد انتهت باكرًا. أمَرَهُم "آسن" برحلةٍ أخرى، قال بأن الوقتَ لا يزالُ أمامهم، قال بأنه لم يَكتَفِ بعدُ من حكاياتهم. ارتَسَمَت بَسمَةٌ على وجوههم، ألقى أحدهم بكلماتٍ مرتعشةٍ فيها شيءٌ من الفرحةِ...

- إنها المرَّةُ الأولى التي يستمِعُ فيها حاكمٌ لنا!

وقال آخر: "أتعلمُ يا سيِّد أحمر؟... لم نَكُن بهذا اللونِ من قَبل"

قال آخر: "أذكُرُ جيدًا أن لوني كان قريبًا من لونِ الضوءِ بالأعلى.. لا أعرفُ بماذا يُسمى، لكنِّي أذكر أن لوني يُشبِهُهُ"

أراد "آسِنُ" أن ينزِلَ عن العرشِ المحمول، لتلتقط عيناهُ الإشواكَ المُسَنَّنَةَ على امتدادِ الأرض، تفترِشُ مساحاتها بالكامل، تَحيَا من باطِنِ الرمال التي لا يَقِلُّ سوادها. يسألهم عن تلك الأشواك، يُجيبونَ بأن الأرض تلفظُ أسنانها هنا كلما أتى حاكمٌ جديدٌ، وأنَّهُم لا يعلمونَ سَبَبًا لكراهيَّتِها تلك.

قال الذي تَوَرَّدَت وجنتاهُ من قبل:

"إننا هنا يا سيِّدي الأحمر نعملُ دونَ انقطاعٍ، منذُ أن أتانا المَلِكُ ذو الجَسَدِ المُدَوَّر. قال شيخُنا إنه لا يجوز أن يَحكُمنا أحدٌ من الخارِج... كأن يقول هذا... مع أول شخص أتانا من خارج تلك البلدة، وكان وقتها شيخنا ليس بِشيخٍ، ولونه أسودُ مثلنا. مع قدوم أول غَريبٍ إلى البلدة، هممنا نحاولُ الانقضاضَ عليه، كان هزيلًا، سَهل الهزيمة، وشيخنا أمرَ باحتجازه. بعدَ أيام، وجدناهُ مقتولًا، رأسهُ مُدَلًى من رقبتِهِ يكادُ يُفارقها، أحدهم ذَبَحهُ".

انتابَ "آسنُ" القلق، حتى استكملَ القزم...

"وكُنا يا مَلِكنا الأحمر العظيم نبحثُ فيمن قام بتلك الفَعلةِ الشنعاء، إذ وقتها، كانت المرة الأولى التي تُراقُ فيها دماء أحد. في ذلك اليوم، صاحَ شَيخُنا بأن المهم هو أن تلك الدماء لِغَريب، وليست دماء أهلِ البلدة. طلبَ منَّا أن نصنعَ مركبًا، وجمعَ فيه من المؤنِ ما يكفيه للمدة التي قرر أن يبحث فيها عن أرضٍ جديدةٍ، أرض تحتوينا بعيدًا عن لعنةِ الدماء التي حطت علينا... أرض لا يدخلها غريبٌ... هكذا قال هو".

- ولكن لم تُجيبوني، هذه الأشواك...!!

رَدَّ قِزمٌ آخر: "منذُ أن غادر شيخنا، لم تتوقف وفودُ الغرباء من الخارج، واحدٌ تلو الآخر... أشكالهم وأحجامهم لا تُحصى... لكننا لم نتوقف عن تنفيذ وصيةِ شيخنا التي أوصانا بها حتى يعود إلينا"

- وماذا كانت؟!

نظروا إلى بعضهم البعض، أطرقوا رؤوسهم للأرض، ثم اقتربوا من "آسن" يهمسون...

- نَذبَحُ كُل غريبٍ عنَّا...

****

27

البقاءُ على عرشِ النخيل، لفترةٍ، ليسَ بالأمرِ السَّيِّئ. البقاء على أي عرشٍ سيكونُ أفضلَ بكثيرٍ مما عاناهُ ببلدِ الرُّمَّان. لا يَمُر يومٌ على البلدة السوداء إلا وكان الآسِنُ يتساءلُ بِحَق، عما إذا كان يُفترضُ به البقاء كَمَلِكٍ يأمرُ وينهى، أم أن طريقهُ في البحثِ لم ينتهِ بعد. الأقزام يُفاجئونهُ بخدماتهم، يُقبِّلونَ قدمَيهِ كُل يوم، يسجدونَ له ولا يعصونَ له أمرًا. الحياة بذلك المكان الأسود تليقُ بِمن مثله... أو... هكذا أقنعهُ الشيخ... لما سألهُ الآسِنُ عن الغريب الذي وُجِدَ مذبوحًا. الشيخُ دائمًا يحيدُ عن تلك السيرة، يستفسرُ على الدوام من "آسِن" عمن أخبرهُ بها، فلا يطلعهُ. أيُّ شيءٍ كان يُقَدَّمُ للمَلِكِ الجديد الأحمر، شريطةَ أن يتوقف عن السؤالِ فيما لا يعنيه.

"الحياةُ هنا رغيدة، يتمناها كُل غريب، يتمناها كُل آتٍ من المهالكِ وكُلُّ باحثٍ عن مأوى... وكُلُّ عطشانٍ لِوَطن"

قالها الشَّيخُ، الذي أخذَ مع الوقتِ يزدادُ لونهُ تَفَتُّحًا.

"آسِنُ" كان ينتظرُ ميعاد الجولة اليومية، التي يصطحبهُ فيها الحراس الأقزام على العرشِ المتنقل، ليسمع حكاياتهم. لم يتوقفوا عن سردِ الحكايات عن كُل سِرٍّ بالبلدة، لا يعيبهم إلا أنهم قومٌ جاهلون، لا يعلمونَ بالفعلِ أي شيء خارج حدودها. كرر "آسن" سؤاله عن تلك الصخرة العطرة التي يتخذونها مرجعًا لرئيسهم...

قال أحد الأقزام: "لقد كُنا فقط ننفذ وصية شيخنا، هو أعلمنا وكان وقتها أكثرنا معرفةً بأولئك الغرباء، إذ كان يعيشُ على ضفةِ النهرِ... يُراقبُ من يأتون ويتبادل معهم البضائع. نحنُ لا ندري من تلك الأمور شيئًا، هو يعلمُ كُل شيء... لكن دعني أخبرك عن أمرِ سوادنا.."

أسكتهُ قزمٌ آخر قبل أن ينطق، أمرهُ "آسن" بأن يتركهُ يُكمل، قال القزمُ بأنه لن يتكلم إلا إذا أمرهُ الملكُ بالكلام.

عاد يتحدثُ بصوتٍ خفيضٍ:

"لقد كُنا يا سيدي... مُلَوَّنين... أنا أذكر لوني، يُشبهُ الضوءَ الساقط من الأعلى، وكان... كان هذا القزمُ بجانبي لونهُ فاتحٌ، كماءِ النهر... كنا يا مَلِكنا العظيم غير ما نحنُ الآن، لكننا بدأنا في ذلك السواد منذ أن بدأنا تنفيذ وصية الشيخ. مع كُل غريبٍ يدخلُ البلدة، ننقضُّ عليه، نُكَبِّلهُ... ننظرُ إليه بتمعن... لم يُشبه أحدهم الآخر، لكن... كانوا جميعهم طيبين، لا أذى يُرجى منهم، ولا شيء يدعونا لنخافهم. كانت رِماحُنا وسيوفنا ترتعِشُ بأيدينا، لكننا... كُنا ننفذُ فقط الوصية!"

- ولكن ما تفعلونهُ جريمة...

- جريمة؟! ما معنى جريمة؟!

- أقصد... حسنٌ لا عليك، أكمل:

"الأرضُ امتلأت بدماءِ الغرباء، ذابَت أجسادهم الميتة في تلك الرمال السوداء التي التهمتهم كما لم نرَ من قبل... والشَّيخُ...الذي لم يَكُن شيخًا وقتها... لم يَعُد من رحلته. طال غيابهُ، لم نتوقف

عن تنفيذِ الوصية، شيءٌ ما أخذ يتغيَّرُ بنا... لا لا يا سيدي... لم يَكُنِ الأسود... لقد كانت ألواننا الأصلية تَشِفُّ... لم نَكُن نعلمُ وقتها أن تلك كانت التحذيرات الأولى للعنةِ السوداء. اختفت ألواننا، وكُلما توافد إلينا غريبٌ جديدٌ، كُنا نذبَحهُ تلقائيًّا، لم نعد ننظرُ إلى وجوههم كما اعتدنا أن نفعل... مُجَرَّدونَ من أي عقلٍ، نَذبَحهم ونتركُ دماءهم للرمال تتشرَّبُها، وأجسادهم لتأكلها... كانت الأرضُ تزدادُ شراسةً، تنمو لها أسنانٌ وأنيابٌ شائكةٌ، بينما، تختفي ألواننا بالكامل، حتى صرنا نُشبِهُ بعضنا تمامًا... مجردينَ من الرحمة... مُجَرَّدينَ من الألوان...!"

توقف القزمُ عن الحَكي، بكى بكاء شديدًا...

للمرة الألف يرى "آسن" السائل الشفاف الغريب، ينهمرُ بِغزارةٍ من عَينَيْ مخلوقٍ آخر...

انهارَ الأقزامُ الحاملينَ للعرشِ المتنقل، قالوا للآسن إن تلك الحكاية لم يحكوها لأحدٍ من الملوكِ قبلهُ، لا أحد منهم كان يهتمِ، إذ كان حَكْيُها اليوم ألمًا كبيرًا، يجعلهم يُفكِّرونَ في تلك الوصية اللعينة. ربتَ "آسِنُ" على كَتِف القزم الراوي، هدَّأ من روعهِ، طمأنه بأن ما يقوله أو يقولونه جميعًا لن يخرجَ من تلك الدائرة.

- ولكن، ما سبب اللون الأسود... لم أفهم بعد؟

ردَّ قزمٌ آخر: "لأننا لم نَنتَهِ عما اعتدنا عليه، لم نتَّعِظ يا سيدي... حتى أتانا غريبان آخران. كانا أغرب من أتونا، أكثرهم جدلًا..."

- مَن؟!... كيفَ كانا؟!

"رجلٌ وامرأة... رجلٌ يرددُ كلامًا لم نفهمه، يقول إنه كلامُ القدير... كنَّا نضربهُ بالسياطِ حتى يُخبرنا عن هذا القدير الذي يتحدث عنه، نُجبرهُ على أن يأتينا به، فيقول إنه بالأعلى... وامرأة لم نرَ في جمالها مخلوقًا، كانت تفوحُ منها رائحةُ الرُّمَّان، أسالت لعاب كل من بالقرية، اشتهَتها كُل امرأةٍ قبلَ الرِّجال. كانا يبحثانِ عن أحدٍ... عن صديقٍ، كما قالا... لمَّا آذيناهما بِشِدَّةٍ كي يتكلما، قالت المرأةُ ذاتُ النهدَينِ الممتلئينِ إنهما يبحثانِ عن رجلٍ كان سيتزوجها، وبأن ما تحملهُ ببطنها ابنه، وإن هذا الرجل بصحبتها هو صديقهُ الوحيد. لقد كانا يرجواننا أن نُساعدهما، لكننا يا سيدي كما قال صديقي كُنا قد اعتدنا على ذبحِ الغرباء... لكن هذه المرَّة... كان من بيننا قزمٌ قبيحٌ، مُشَوَّه، من الحرَّاس... اشتهى المرأة".

اضطربَ قلبُ "آسن"... دبَّت الدماءُ بجسدهِ، تندفعُ لتزيدهُ وهجًا. شَعَرَ بشعورٍ شنيعٍ، مقرفٍ، للمرةِ الأولى يغزوه... ليست برودة، ولا خوفًا، ليسَ غضبًا، ولا كُرهًا... شعورٌ زادهُ سوءًا ذلك الشيء الغبي الذي نبتَ خلفَ ضلوعهِ بسببِ "شمس". حافظَ على هدوئه، حدج القزم الذي يحكي بنظرةٍ قاسيةٍ، أمرهُ بأن يُكمل:

"أنا آسف يا سيدي... آسف... دعني أكمل لك. لقد... كانت المرأة بديعة، كانت تتحدثُ إلى الأقزام وتستنجدُ بهم ليبحثوا عن ذاك الذي تقول بأنه زوجها، لكنَّهم كانوا يتفحصونَ جسدها، يلتهمونَهُ بأعينهم، لم يَعوا من حديثها شيئًا، حتى صرخَت بهم، رَكَلَت أحدهم ببطنه... ركلت القزم القبيح. قامَ يصيحُ بها، يتألم من ركلتها، أرادَ أن يضربها، حتى سَمِعَ ذاك الرجل الآخر الذي أتى معها يقول: "

...

". تلك الكلمات أثارت غضب القزم القبيح أكثر، جذبَ الرجل من قدمَيهِ يَجُرُّهُ على الرمال السوداء، التي نبتت أنيابها تنتظرُ جسدًا جديدًا. كانت المرأة تصرخ، حتى أمسكَ القزمُ القبيح بِحَجَرٍ ضخم، انهالَ بِهِ على ساقِ الرجل يُهَشِّمُها... يتلذذ بصراخهِ وتألُّمِهِ، والمرأة تصرخُ... تترجَّاهُ أن يتوقف... والرجل الذي... ارتوت الرمال السوداء بدمائهِ... كان يُردد:

" ... ... !..."

... ...

...

... "

..."

ما زلتُ يا سيدي الأحمر أذكرُ تلك الكلمات، ما زلتُ على يقينٍ من أن كُلٍ من شَهدَ ذلك اليوم قد حَفِظَها جيدًا... إذ إن الرجل لم يتوقف عن ترديدها وتكرارها، بينما هشَّمَ القزمُ القبيح عظامهُ بالكامل، فظَلَّ يزحفُ على بطنه ويُكرر كلمات القدير هذا... حتى كانت آخر ضربةٍ على رأسِهِ... هَشَّمَته.

علا صراخُ المرأة ذات النهدَينِ الكبيرَين، وكان القزمُ القبيحُ قد فَرغَ من الرجل، هَروَلَ نحوها يريد أن ينقَض عليها. أوقفناهُ، جميعنا، لكنه حدجنا بنظرةٍ نعرفها جيدًا، كأنه يقول: "كلنا شركاء في ذلك، وتلك الوصية"... نعم... ربما كنا ننفذ وصية، لكنها تقتضي بأن نذبحَ فقط... لكن ما فعله القزم كان..."

- كان ماذا؟... ماذا فعل؟!!

"أمسكَ بالمرأة التي بالكاد كانت تتحرك، مزقَ ثيابها، فتَبَدَّى لنا بطنها... الذي كان... كان منتفخًا! كانت تبكي وتصرخ، حتى خفتَ صراخها... قالت: "لا تؤذوا طفلي، لا ذنبَ له"... لكن القزم القبيح لم يتوقف عما كان يفعله، كان يهتكُ فَرْجَها بلا رحمةٍ، وكنَّا فَزعين، نراقبهُ مذعورين، وكُلما تقدمَ أحدُنا لإيقافه كان ينظرُ لأعيننا جميعًا ويصيح: " ...

... ...

... ...!!

... ..."!!

كانت تصرخُ، بينما يَدُقُّ هو رمحَهُ المُنتصبَ، يلهثُ، يريدُ أن يُنهي ما بدأهُ قبل أن يذبحها... وكُنَّا نشاهد... البلدة بأكملها تشاهد... نساؤنا تُشاهد... أطفالنا يشاهدون... كنا يومها نعلمُ بأن شيئًا خاطئًا يحدث، لا ندري ما هو... لكننا فقط اكتفينا بالمشاهدة..".

بَكى القزمُ الراوي، بَكى جميعُ الحاملينَ للعرش أمام "آسن"، حتى استكمَلَ قزمٌ آخر، قائلًا:

"وأنا.. أنا يا سيدي أيضًا كنتُ أشاهد، ترتجفُ قدماي، لم أشعر هكذا من قبل... ولكني شاهدتُ أيضًا الأقزام من حولي، الذين يتفرَّجون، كان الأسودُ قد بدأ يطلي جلودهم... نظرتُ إلى يدَيَّ، كانتا قد اسودَّتا، كان اللون الأسود بدأ يتسللُ إلى أجسادنا، كنا نبكي بكاء شديدًا على حال المرأةِ الجميلةِ، لكننا بكينا أكثر لما صرخَ القزمُ القبيح وهو يضربُ بطنها... كانت تُداري بطنها المنتفخ بيديها، تقول: " " ... ويقول القزم القبيح: " !...

" ... كان يضربُ ويركلُ بطنها المنتفخ وهي تصرخ، أطفالنا يصرخون... وكلما اقتربنا، كان القبيح يصيحُ فينا بألا نُعرقِلهُ وإلا سيُخبِرُ شيخنا عند عودتهِ بأننا لم ننفذ الوصية... حتى... توقفت المرأةُ عن الصراخ... ماتت.

وقتها فقط، كان اللون الأسود قد أغرقَ بقاع أجسادنا كلها، لو بَحَثت عن بقعةٍ يا سيدي ما وجدت فيها إلا أسود... حتى صرنا... مرة أخرى... نشبهُ بعضنا تمامًا... كلنا أسود... لقد أخرستنا الصدمة... وما أخرسنا للأبد هو أن الغريبَيْن لم يُذبحا... قَتَلنا غَريبَيْنِ بلا داعٍ... قتلناهما قبلَ تنفيذِ الوصية".

"آسنُ"... الذي اشتعلَ من داخلهِ عندَ سماع تلك القصة... صرخَ بأعلى صوتهِ، حتى أفزَعَ الطيور على النخيل، وأيقَظَ الأقزام السود بالبيوتِ الحجرية والأكواخِ البدائية، فَخَرَجوا يُسرِعونَ

إلى الصوتِ المتألم. قفزَ من العرشِ المحمولِ على القزم الراوي، يَخنق رقبتَهُ القصيرة السمينة بيَدٍ وحيدةٍ قابضةٍ، تأبى أن تتركهَ حتى يَلفظ أنفاسَه. الحراس الأقزام يتقدمونَ لمحاولةِ فض الاشتباك، لكنهم يتذكرون أن المَلِكَ لا يجب منعهُ من شيء، يبتعدون تاركينه ينهال بالضربِ والصَّفعِ على وجهِ وجسد القزم الراوي، والأخير يبكي ويُردد بألمٍ:

" ... ... "

"آسن" يصرخ، يزأرُ و هو ينظرُ إلى السماء، لونهُ الأحمر يتوهج، قلبهُ الجديد النَّابت يضطرب، مشاهِدُ البئر والمحرقة، الظلام الدامِس والشعلات المرتعِشة، البحيرة المقدسة والشيوخ الاثني عشر، "الأخ الحنون" وبلد الرُّمَّان... جميعها تتخبط بعقلِهِ المُشَوَّش، يلتفت ليجد الشيخ البدين وقد افْتَحَّ لونهُ أكثر، حتى صار غريبًا عنهم، يربتُ على كتفهِ، يُهَدِّئ من روعهِ، ينظرُ للآسنِ الغاضب ويقول:

- هذا وطنك... انسَ الماضي، أنتَ هنا مَلِك... تَفعَل ما تشاء.

ثم، اقتربَ أكثر من أذنِ "آسن"، يَهمِسُ بها...

- هنا... يُمكننا أنا وأنت أن نحكم...

****

28

على منصَّةٍ حجريةٍ، مُزَيَّنَةٍ بأوراقِ نخيلٍ سوداء، وأحجارٍ خلَّابةِ الألوان، جلسَ "آسنُ" والشيخ يجاورهُ. خلفهما وحولهما حشدٌ كبيرٌ من أهل البلدةِ، أقزامٌ سودٌ تتباينُ أعمارهم وأشكالهم. ساحةٌ رمليةٌ فسيحةٌ، تتوسَّطُ البلدة، حيثُ يجتمعُ أهلها بأوامرِ الشَّيخ البدين كُل فترة، تُقامُ هناك مراسِم "تَعظيم الغريب الحاكم"... هكذا أطلقوا عليها. في تلك المراسم، تُقالُ الأشعار وتُقَدَّم رقصاتٌ خاصة للترحيب بالغريب الذي شابَهَ الصخرة السوداء العطرة على ضفة النَّهر، وتم اختيارهُ للحكم بمفارقةٍ قَدريةٍ مع صخرةٍ مباركةٍ. "آسنُ" يتأمل أولئك القوم، الذينَ لا يعلمون، حتى هذهَ اللحظة، أنه هو ذاك الذي أتى من بلد الرُّمَّان، ذاك الذي أتى الاثنانِ يبحثانِ عنه. يتأملهم بوجهٍ حزينٍ، يشوبهُ شيءٌ من الرهبة، قتلوا أهلهُ، ويحتفلونَ به قائدًا... لكنه هدأ... وكان يهدأ دائمًا... كلما وقعَ بصرهُ على نُدبةٍ من تلك الندوب على جسده... الندوب التي حكَت ولا تزال تحكي عن تاريخه مع بلدته، عن أولئك الذين يحزنُ عليهم الآن وهُم أكثر من آذوه. ينظرُ إلى النُّدوب بباطن قدمَيه، ليتذَكَّر تلك "الرُّمَّانة" التي عرضَت عليه الزواج، ولما رفض، صاحت تَسُبَّهُ أمام أهل البيت الذي كان أصفر، فضربوه وألقوا عليه الزجاج فكسروه عليه وجرحوه، ليركض هاربًا، يدوسُ على ما تبقى من زجاجٍ فيرسم تلك الخريطة البديعة من النُّدوب على قدمَيه. يتذَكَّر صديقهُ "ودود"، الذي بكى مما فعلهَ به القزمُ القبيح... لكنه سرعان ما ينظرُ إلى مُلْكِهِ الآن... يبتسم، ويفكر...

- وماذا فعلَ لي صديقي الودود، وكتابه الذي ما نَفَعهُ عندما قُتِل؟!... الآن يُصَدِّقني؟!... بعد أن طردوني من بلدتي؟!... الآن يبحثون عن الألوان؟!... بلدتي طردتني شر طردة والآن تبحثُ عني؟!... ولكن... بلدتي؟!... أي بلدة؟! أنا لم أرَهَا بلدتي منذ اليوم الأول... لم تَكُن كذلك، ربما كُنتُ أنا فقط من بَحَثَ في المكان الخاطئ... بلدي هنا، حيثُ أستحِق أن أحكم... وطني هنا.

قَطَعَ شرودهُ في الماضي أبواقٌ ذات صوتٍ غريبٍ، ليسَت كأبواق بلدِ الرُّمَّان. أصواتها تنعر،

عالية، يضطربُ لها قلبهَ. انتبهَ للأقزامِ الذين نزلوا الساحة، الشيخَ البدين يلكزهُ بكَتِفِهِ ويوَجِّه بصرهُ إلى العرضِ. أخذَت الأقزام تُرَتِّلُ الأشعار في كُلِّ جزءٍ من جسدِ المَلِك... فهذا القزمُ النحيلُ يَصِفُ قوةَ جَسَدِ الآسن المفتول، يُعَظِّم من شأنهِ وجبروته... وذاك القزمُ الأقصرُ بينهم يسردُ القصص والحَكَايا عن تلك الذراع الواحدة، يتلو للمُتَفرِّجين عن معركةٍ وهميةٍ، ابتدعها أمامَ ذهولٍ من "آسن"...

"وإنه يا سادة... كانٍ في خضمِ عراكٍ مع عماليق الغرباء... يعيشُ على ضِفَّةِ النَّهرِ الأخرى التي لا نجرُؤ على تَخَطيها- نحنُ الأقزام الضِّعاف- وإلا قُتِلنا... سيِّدنا وحاكمنا الأحمر العظيم، الذي ترك بلدتنا لفترة، باحثًا عن الأخضر، يعود إلينا، يُعارِكُ الوحوشَ التي قطَعَ أحدها ذراعه، تلك الذراع التي حملَت دِرع النخيل العظيم المنحوت من حجارةِ السَّلام. فقَدَ ذراعهُ في حربٍ ضاريةٍ، مدافعًا عن بلدتنا... لكنه أبى الاستسلام، ضربَ بالذراعِ الأخرى حتى اقتلعَ الرِّقابَ وأسالَ الدِّماء... فلتمجِّدوا حاكمنا"

تعالت أصواتُ الهتافِ والتمجيد، بينما يرمقهم "آسن" بنظرةِ ذهول. الحكاية أعجبتهُ، تبدو أكثرَ إقناعًا مما حدثَ من أهلِ الدَّابَّةِ و"الأبيض العظيم"... تبدو أوقع... يبتسمُ في سخريةٍ، الأقزام لديهم قدرةٌ لافِتةٌ على صُنعِ حاكم حقيقي... حاكم كـ"الأخ الحنون"، أو "الأبيض العظيم"... الأقزام رائعون...

ينظرُ إلى الشَّيخِ البدين الذي قد ابتعدَ لونهُ تمامًا عن الأسود، حتى ما عاد يُشبههم. يرى بعَينَيهِ المُصَوَّبَتَينِ إليه كُلَ شيء... يرى بأنه يعلمُ أن أمرِ الحُكمِ والجلوس على العرش قد أعجَبَهُ، يرى بأن هذا الشَّيخ يَعلَمُ ما لا يعلمهُ الأقزام، ولهذا تَغَيَّرَ لونَهُ، قام أحدُ الأقزام على السَّاحة ببعضِ الرسوم على الرمال السوداء، يستخدمُ رُمحًا يحفرُ به خطوطًا على الرمال. اكتملَت الرسوم، كانت كخَريطةٍ مُكَبَّرةٍ، بدأ القزمُ يحكي ويبتَهل...

"لمَّا عادَ مَلِكُنَا الأحمرِ المَهيب من حَربِ الضَّفَّةِ الطاحنة، وجدنا على جسدهِ تلك الخطوط المحفورة والخنادق تملأُ بقاعَه... تأمَّلناها... نَقَلناها إليكم ها هنا... لِتَشهَدوا عَظَمَة الرحلة التي قام بها المَلِكُ الجبار... كُل نُدبةٍ أوجِدَت على هذا الجسدِ المُقاتل، تحكي عن موقفٍ وحربٍ خاضها للدفاعِ عنَّا..."

كان "آسن" يزداد انبهارًا بأولئك الأقزام، وبالحياة الرغيدة التي لم يَعتَدها من قبل. يستمعُ إلى حكاياتِ الاحتفال، يقِفُ ليروي لهم بعضًا من رحلته، وحينما يبدأ الحديث عن البحيرة المقدسة والأحجار الملونة التي فَتَّحَ عينَيهِ عليها أول ما وُلِد... يُغَيِّر الشيخ البدين الحديث... يدعوهُ ليأكل من المأدبة المقامة على شرفه، وأن ينسى ما مضى. سأله "آسِن" على غفلةٍ، بينما كانوا يَهمُّون بالرحيل...

- سَمِعتُ يا شَيخ أن الحاكم الذي جاء قبلي قد ذُبِحَ...

- مَن قال لَك هذا؟!

- إياكَ أن تكذِب، وإلا أمرتهم بتقطيعكَ إربًا كما فعلوا معه... إذا كُنتُ سأحكمُ بحق، فعليَّ أن أعرف كل شيء.

ارتاب الشيخ، ابتَلَعَ ريقَهُ بصعوبةٍ، بينما يراقبهُ "آسن" الذي كان ينتظرُ إجابة...

- ماذا أقولُ لك؟... أنا لا أفهمك... أنتَ تسأل كثيرًا، من جاءوا قبلكَ لا يسألون، لكن، إذا كان هذا سَيُريحُك... فلتعلم أنه ذُبِحَ لأنَّهُ ارتكبَ فعلةً شنعاء...

- شنعاء؟!!... أتقصد أسوأ مما فعله الأقزام؟!... أسوأ من الوصية؟!

- مَن أخبرك بهذا؟!

- لا يهِم!!... أكملْ وإلا أمرتهم أن يفعلوا معكَ مثلما فعلوا بالغريبَيْن الأخيرَيْن...

اعتَلَى القلقُ وجه الشَّيخ، حتى لاحقه "آسن" قبل أن يَرُد...

- أنسيت أنني أعلمُ ما بين الأحمر والأخضر؟!

ازدادَ قلقهُ، أجابهُ باقتضابٍ:

"لقد... أرادَ هذا الحاكم الخبيث أن... أن يُحَطِّمَ الصخرةَ السوداء العطرة!!... يومها، سمعنا طرقًا مُدَويًّا أيقَظَ أقزام البلدة... خرجنا من أكواخنا وبيوتنا... وجدنا اللعين يضربُ الصخرةَ بِحَجَرٍ صَلدٍ، يحاولُ أن يَشُقَّها"..

- ولماذا عساهُ أن يفعلَ ذلك؟

- اسألهُ هو... لا تسألني... لقد منعناهُ بالقوة، وما كان منا سوى أن نمنع تلك الجريمة!!

كان الجميعُ ينظرونَ للآسن، ينتظرونَ رَدَّهُ على كلام الشيخ الذي ابتسمَ بِخُبثٍ. امتنعَ "آسن" عن الرد، اكتفى بالأكل حتى أبدى شَهيَّة مفتوحة فاجأت الجميع، يلتهمُ كُلَ ما وُجِدَ على الطاولة العريضة، يتجنَّبُ النظرَ إلى الأقزام، بينما ما زالت بضعُ نظرات ريبةٍ وتَشَكُّكٍ تُصَوَّبُ تجاه الشيخ الخبيث... حتى أتاهُ أحد الأقزام، يَتَسَوَّلُ منهُ قِرشًا، وكانت عُملة البلدة من الأحجار الصغيرة. ألقى "آسنُ" إليه بواحدةٍ رخيصةٍ، نظرَ إليهِ القِزمُ وعيناهُ تدمعانِ، قال: "

" . تذكَّرَ "آسنُ" بلدَ الرُّمَّان، تذكر عملات النقود التي نُقِشَ عليها "مَجِّدِ القدير"، وكيفَ أن تلك الكلمات كانت تُعِينُ أكثر الناسِ فقرًا على الصَّبر، لكنه تذكر أيضًا، أن أولئكَ الأقزام لم يتعرفوا على "القدير" عندما أخبرهم بِهِ "ودود"... نظرَ إلى الشَّيخ الذي لم يتوقف بعدُ عن تلك النظرات الخبيثة...

- ...

" ...

"

****

29

في الجولةِ الصباحية المعتادة، أصر "آسنُ" على التجولِ وحيدًا، كلما هَمَّ الأقزام برفعونَهُ ليضعوه على العرشِ كان ينهالُ عليهم بالشتائم، يلعنهم ويلعن ضعفهم وذُلَّهُم. الأقزام يُذَكِّرونهُ بأهل الرُّمَّان، كلاهما ارتضى بالظلام، ظلام الفضيحة وظلامِ العار... كلاهما ظلام... كلاهما ضلال. مهما حاولوا رَفعَهُ على العرش المتحَرِّك، ينزل منه قائلًا: "أليسَ لديكم ما تقومونَ به هنا سواي؟!!... فارقوني... اتركوني أتَجوَّل، أود أن أرى معالم مَملَكَتي بنفسي... أنسيتم أنِّي من أعلمُ ما بين الأحمرِ والأخضر؟!، لن يؤذيني شيء!". كانوا يردونَ بأنها أوامر الشيخ، فيَهتاجُ "آسنِ"، يركلهم بقَدَمَيه، يُكَسِّرُ الأشياءَ من حوله ببيته الجديد... يصيح: "أنا هنا من يَحكم"... ثم تَذَكَّر أمرًا... هَدَّأ من ثورتِهِ، وطلبَ مُرافقة اثنَينِ من الأقزامِ الحُرَّاس... أحدهما كان القزم الراوي الذي كاد أن يقتلهُ خنقًا.

خرجا من البيت الكبير، يتحسسانِ طريقهما عبرَ سلالم صخرية غير مستويةٍ، نزولًا إلى أرضٍ من الرمالِ السوداء، تكادُ تُكَشِّرُ عن أسنانها الشوكِيَّة. يتأمَّل "آسن" زمرة من الأقزام يعملونَ في باحَةِ البيت، ينقلونَ أحجارًا كبيرةً ويضعونها في مكانٍ آخر غيرَ مكانها، ما إن ينتهوَا من نقلها،

حتى يحملونها من مكانها الجديد ليُعيدوها إلى المكان القديم.

- قُل لي... لماذا أمركم من قبلي بهذا العمل؟

- ليسَ من المُفترضِ أن نسأل يا سيدي الأحمر

- ولكن، ألا تتعبون؟!... ألا تُفكرونَ حتى فيما تقومونَ به؟

- كُل حاكم يأتينا ويُشبهُ الصَّخرة السوداء العطرة عليهِ أن يأمرَ ويُطاع... لقد أمرنا حاكمنا الأسبق بذلك العمل الشاق لما بدأنا نسأل..

- تسألون عن ماذا؟

قَرَّبَ القزمُ الراوي فَمَهُ من "آسن"، همس...

- نسألُ عن المسكوت عنه...

نظرةُ الرعبِ على وجوههم بادية، يتبادلونها بينَ بعضهم البعض، حتى يُكمل القزم الآخر...

- عندما بدأنا نسأل عن أمرِ الصخرة، عندما رمى أحدنا بِسؤالٍ عما يجعل شكل الصخرة يتغير...!

أمَرَهُما "آسن" باصطحابهِ إلى ضفَّةِ النَّهرِ، إلى حيثُ الصخرة. أسرعوا قبلَ أن يعرفَ الشيخُ بأمرهم، والقزمُ الراوي لم يَكُف عن الاعتذار ل-"آسن" عن ذاك اليوم عندما أغضبه. سامحهُ الحاكم الأحمر، على أن يُجيبهُ هو وزميله عن أي شيء.

الصخرة السوداء، لا تزالُ رائحةُ الأخشابِ العطرة تفوحُ منها، تدفعُ بالآسنِ للاقتراب واستنشاقِ تلكَ الرُّوح العَطِرة. قال القزمُ الراويَ ل-"آسن" إن الحاكم الأسبق كان يَفعلُ تمامًا مثلما يفعل، يتقَرَّب إلى الصخرة بهيام، يحتضنها، يتحسسها كأنما يَحفَظ تفاصيلها بأناملهِ، يستنشِقُ عطرها، يبتسمُ طويلًا... لكنهُ ما يلبث أن ينظر للسماءِ كثيفةِ الغيوم بالأعلى... حتى يبكي، يَغسِلُ وجهَهُ الضوء البرتقالي الضئيل المُنْسَلُّ من بقايا الشمس، ثم يَسري على جسدهِ المُستَطيل الضخم ليرسم ملامحهُ، فيبدو مُشابهًا تمامًا لشكلِ الصخرة التي كانت مُستَطيلةً. توقف القزمُ عن الحكي، بينما، أشارَ إلى سَفحِ جَبَلٍ مُجاورٍ للنهرِ. اطَّلَعَ عليهِ "آسن"، ليقرأ القزمُ الآخر السؤال بِالعينَينِ الحمراوَينِ، ويُجيب...

- من هُنا يا سيدي... انجَرَفَ سيلٌ من الصخورِ أتت راكضة من أعلى الجبل. لا نعلمُ سببًا لها، ولم يَكُن زلزال وقتها، فقط، سَمِعنا الصخور والحجارة تتدحرجُ بِسُرعةٍ كبيرةٍ على الجبل، كأنَّها تعرِفُ وجهتها... إلى النَّهر!

- وماذا حدث؟!

- تقافزَت الحجارة والصخور بِالنهرِ، لكنها كانت تتلاحَمُ بالصَّخرةِ السوداءِ العطرة، تضربُها هُنا وهُناك، تَخدِشُها تارة، وتُهَشِّمُ قِطَعًا منها تارة أخرى، حتى كان سيلُ الصخورِ والأحجار قد انصَبَّ كُلُّهُ بالنهر... يسبَحُ الخفيف منها باتجاهِ التيار، بينما يَغرَقُ الثقيلُ بالقاع...

"آسنُ" يستمِعُ إلى حديثِ القزم، بينما يتحسس الصخرة السوداء. لا تزالُ علامات الخدوشِ والقِطَعِ المُتَحَطمة ظاهرة، طرأ ببالهِ أن يسألهم عن الشيخ...

- ولكن أخبروني، إلى أينَ ذَهَبَ شيخكم خارج البلدة؟... وماذا حدثَ لِلَونِهِ؟!

- أمرهُ غريب... كما أخبرتَكَ يا سيدي الأحمر كان قد جمعَ المؤَنَ لِرحلةٍ طويلةٍ، يبحث فيها عن بلدٍ آخر لم تُلَوَّث بعدُ بِلَعنةِ الدماء، وكُنَّا طوال غيابهِ نُنَفِّذُ وصيتهُ... لكنهُ عندما عاد... كان الكثيرُ قد تَغَيَّر بِهِ!!

- كيف؟!... تقصِد لونهُ؟

- اللون لم يَكُن أغرب شيء... كان قد افتَحَّ لونه... لكن تلك الأشياء التي قام بِفعلها هي ما زادت هروب الأسود منه... لقد كان يحمِلُ صُحُفًا وجريدَ نَخلٍ مرسومًا عليها أشكال لم نفهمها... وألواحًا وصفائحَ حَجَرِيةً منقوشًا عليها ذات الأشكال الصغيرة، التي علمنا فيما بَعد أن اسمها حروف!!... وأن الحروف تُشَكِّل كلمات، والكلمات تُشَكِّل جُمَلًا. كان يحمِلُ الكثير الكثير منها، بل ربما ملأ بها المركب الذي كان يتنقل به عبرَ البلاد. لم يأتِ ببضائع كما أخبرنا قبلَ سَفَرِهِ، فايَضَ كُل شيءٍ من خيرات وكنوز حملها معه من بلدتنا بتلك الصفائح والحجارة والجريد. كُنَّا نُلاحِظهُ كثيرًا ينعزِل عن الجميع، ينظرُ ويُدَقِّقُ فتراتٍ طويلةً بتلك الكلمات والجُمَل، نسألهُ، فَيُجيب بأنه "يَقرأ"!!... لم نفهم الكَلِمة، ولم نَعرف أبدًا ما تعنيه تلك الرسوم أو الكلمات كما يُسَمِّيها... لكنه كان يفعلها على الدوام، وكلما أنهى صفيحةً أو جريدة كُلما افتَحَّ لونُهُ أكثر ونمَتَ له تلك اللحية البيضاء. كان يَعمَلُ أشياء يُسَمِّيها "جداول حسابية"، يَحسِبُ منها كُل المعاملات التجارية، لم يَكُن بِوسعِ أحدٍ أن يَسرِقَ قرشًا واحدًا، حتى الغرباء الذين يأتون لِتبادلِ البضائع، كان حكيمًا للغاية معهم.

قاطعهُ "آسن":

- مهلًا... وماذا عن أمرِ الصخرة؟!!

- هو من أخبرنا بِها... تلك الصَّخرة لم تَكُن بهذا الشَّكل... لم تَكُن هُناك صَخرة على الضِّفة!!... حدثَ زِلزالٌ عظيمٌ، أسقَطَ أحد الجبلَين... نسيتُ إخبارك يا سيدي الأحمر... آسف يا سيدي الأحمر... هذا الجبل كان يُجاورهُ جبلٌ أصغَر، عندما قام الزلزال ارتَجَّت الأرض السوداء، حتى دَكَّت الجبل الأصغر تمامًا كأنه لم يَكُن... الجبل كانَ أسود!!... كُل ما تَبَقى منه ظاهرًا هو تلك الصخرة السوداء التي كانت أطول وأضخم وقتها. تدحرجت حتى استَقَرَّت بِسُكونِ الزلزالِ على ضِفَّةِ النهر. كانت واقِفة، شامِخة، ومن هنا، أتى الشيخُ الذي، كان يعلمُ أكثر منَّا، بتلك الفكرة...!!

- إن الصخرة العطرة هي الحَكَم في اختيارِ الحاكم...

- هو قال ذلك... وقد أرانا ذلك في الكلمات المكتوبة على الجريد والصَّفائح والألواح...

تأمَّلَ "آسنُ" حال القِزمَين، المذهولَين من سكوتِهِ. نظرَ حولَهُ، إلى مجموعةٍ أخرى من الأقزام، يمارِسونَ عملهم المعتاد، حيثُ حملِ الحجارة صارَ بِلا أدنى جهدٍ. ينظرُ إلى الجبلِ والصخرةِ والنَّهر، ينظرُ إلى حالهِ... وإلى تلك البلدةِ البائسة... تَتَسَوَّلُ الضَّوء البرتقالي بالسماءِ، وترضى بِمُجَرَّدِ الفُتات منه... بلدةٌ ذليلة... لا تَستَحِقُّ عناءَ الحُكْم.

نَدَت منه ابتسامَة ساخرة، يُوَجِّهُ سؤالًا للقِزمِ الراوي...

- تقول إذن... إن الشَّيخَ قد أراكُم أمرَ الصَّخرةِ على تلك الألواح..

- نعم، لقد رأينا الكلمات... تَرَكَنا جميعًا نتَفَحَّصُ... قال: هنا يوجد كُل شيء، انظروا إن كُنتم لا تصدقوني...

انقَلَبَت ابتسامَتُهُ نَهرًا مُتَفَجِّرًا جاريًا من الضَّحِك، استلقى على الأرض يضحَكُ، لا يضَبْطِ نَفسَهِ. لم يَسَعهُم سوى مراقبته، حتى تزايَدَت أعدادُ من سَمِعوا ضَحِكاتِهِ المُجَلجِلة، تَجَمهَروا حولَه يرمقونَهُ

بنظراتِ التَعَجُّب، بينما كان الآسِنُ يضحَكُ ويُرَدِّد:

- ولكنَّكُم لا تَقرأون...!!

****

30

" ... !!..."

الأقزام يحملون الحجارة، يلهثونَ عَطِشينَ إلى شربةِ ماءٍ من النَّهر. يحملونها من أمام بيتِ الشَّيخ إلى الضِّفةِ، حيثُ الصَّخرةِ السوداء العطرة، التي قاربَت على التَّحَوُّلِ لِشَكلها الجديد بَعد أن ضَرَبَت الرياح المُحَمَّلَة بالرمالِ والحجارة الأرض السوداء. رياحٌ عاتيةَ، رآها الأقزامُ بأعلى الجَبَل، تَضرِبُ بلا سُلطان كُل ما يعترضُ طريقها، تَحمِلُ أطنانًا من الحجارةِ المُفَتَّتَة التي تسبَحُ بجوفِها. كُلٌّ لزَمَ كوخَهُ، قبلَ أن تُساويه الرياحُ الغاضبة بالأرض... التَزَمَ آخرون بالغارِ، اتَّخَذوهُ مأمنًا، بينما كان الآسنُ ينظرُ بعَينَينِ قَلِقَتَينِ إلى الريحِ التي أخذت تُهَيئ الحاكم الجديد، تنحِتُ برَوِيَّةٍ وعشوائيةٍ جَسَدَهُ على الصَّخرةِ السوداء، تَخدِشُ وتكسرُ فيها، والأقزامُ يَسجدونَ لِتِلك الرياح التي أرسلتها السَّماء الكَظيمة... يَعلمونَ بأن نهاية الآسِنِ قد اقتربَت.

"آسن" يختبئ بالغار، يبحَثُ فيمن حولهُ عن الشَّيخ. يسألِ الأقزام الساجِدين، يُخبرونهُ بأن في أوقاتٍ كهذه يتقَرَّبُ الشَّيخ إلى السماء، يطلعُ لها راجيًا أن تَقبَلَ رَقصَتَهُ لِتتَوَقف. قالت زوجة أحد الأقزام: " ... ..."

تأمَّلها "آسن"، تبدو واثقةً من حديثها. قال: " ... ردَّت الزوجة: "

...

...

...

...

... ...

..."

تَدَخَّلَ زوجها مُقاطعًا حديثها، أخرَسَها بصَرامَةٍ بينما كانَ يُقَبِّلُ قَدَمَي "آسِن"، يرجوهُ ألا يغضب من زوجته الحامل وألا يُؤاخذها على اندفاعها. تأسَّفَ على حال البلدة السوداء، حَذَرَ "آسِن" من الأيام المُقبِلة، قال إنه لم يَرَ من السَّيِّدِ الأحمر العظيم سوى طيبة القلبِ والكثير من الحكايات عن العالم خارجِ البلدة... قال بأن القزم الراوي، الذي كان يُرافِقُه في كُل رحلة بالبلدة، سَمِعَ منه كُل كلمة، سَمِعَ ونَقَلَ للأقزام عن المحرقةِ العظيمة وعن البئر... سَمِعَ من السيد الأحمر عن أرض المروج، عن الأحجار المُلَوَّنة، عن القرصِ المُلتَهِب الكامِل بالأعلى، المُسَمَّى بال-"شمسِ". قال الزَّوج: "

... ...

... ...

..."

صاح "آسنُ" بِهِم:

- ولكنها صخرة!!... أنتم من رَضِيتم بها، وصدَّقتم قِصَّتَها... اسمعوا يا قوم، لا داعي للاستمرار هكذا، ألَستُ حاكمكم؟!... ألم تُصَدِّقوني من قبل في حكاياتي عن الألوان؟!...

- تقول هذا الآن... لأنّك قاربتَ على الرَّحيل!

قالها أحدُ الأقزام، مُنزَوِيًا عن المجموعة، مُتَرَبِّعًا بزاويةٍ مُظلِمةٍ في الغار. قالها مُقاطعًا الآسِن، علا صوتهُ ليَسمَع الجميع، بينما عَويلُ الرِّياحِ بالخارج لم يَهدأ بَعد...

- كُلّهم يقولون كلامًا كهذا حينما يَقتَرِبُ مَوعِدُهُم... حتى سَيِّد الألوان ها هُنا يُكَرِّرُها.. لا تأمَل أن يُصَدِّقُكَ أحد... هنا يا سَيِّد أقلَعنا عن تَصديق أي شيء... كِدتُ أصَدِّقُك... حقًا كِدتُ أفعل... لكنّي تساءَلت، أتَذَكَّرْ هذا الغريب الآن ما يَبحَث عنه؟!!... أحقًا ما زال يَذكُر؟!!... لقد كان أمامك كُل الوقت لتَهرب وتَبحَث عن ذلك العرَّاف كما تقول، لكنَّكَ نَسيت... شأنُكَ شأن كُل الغرباء الذين سَبَقوكَ إلى هُنا!!... الآن تتذَكَّر الألوان؟!

كان "آسِنُ" يقتربُ بِحَذَرٍ من القِزم الذي أخذَ يقولُ كلامًا لم يَسمَع مِثلَهُ من الآخرين، يَتَعَرَّف على ملامحهِ التي ليسَت بِغَريبةٍ عن زِملائِه، استوقفَهُ لونُ القِزمِ الذي... بدا أفتَح بِقَليل من الأسود... يُحَملِقُ بِالسَّيدِ الأحمر، يقرأُ ذهولَهُ ويَفهَم ما يرمي إليه...

- أنتَ... أنتَ مُختَلِف... قرأتَ من الألواحِ والصُّحُف؟

- لا، شأني شأنهم، لا نقرأ... لكنَّ بعض الأمورِ يا سَيِّد الألوان لا تحتاجُ إلى ألواحٍ وصُحُف..

- اسمَع، أنا...

- أنتَ نَسِيت... كُلُّنا ننسى، لكن أرجوك يا هذا، لا تُخبرنا عن حُلمِكَ الآن... لا تُخبِرنا عن مسعاك... لو كُنتُ مكانك لتَرَكتُ كُل شيء وهَرَبت... بِكَرامةٍ... قبلَ أن تُحَدِّد مصيري سماء عبثية، وصخرةٌ لا حول لها ولا قوة، وقومٌ لا يَفقهون سِوَى اللونِ الأسود..

هدأت الرياحُ عن النَّحيب، إلا من وشوشاتٍ مُتَقَطِّعةٍ. "آسِنُ" يُلقي نظرةً أخيرةً على الأقزام الذين قاموا من السجودِ يبتَهلون للسماء أن ترحَمهم. يسألهم عن مكان الشيخ مرة أخرى، يَرُدَ القِزم الأفتَح لونًا بأنه لا يزالُ على قِمَّةِ الجَبَل... يؤدي رقصةَ الغُفران. هَمَّ الآسِنُ بالرَّحيل، كانوا يستوقفونهُ، يسألونَ عن وجهَتِه، أخبَرَهُم بأن الرِّياح حينما ضَرَبَت بِعُنف، أرعَبَهُ صوتها... ولكن ما جَعَلهُ يَختَبِرُ شعورًا جديدًا... هو عندما تَذَكَّر أمر الصخرة... كان خوفًا... لكنه لم يَكن ذلك الخوف كما كانَ في أرضِ الدَّابَّة... كانَ شيئًا آخر... كان يخشى أن يفقد شيئًا... وهو ما جعلهُ يبتسِم لهم، يخرجُ من الغارِ ناظرًا لأعلى الجبل...

- سامحوني...

الجَبَلُ شامِخٌ، صخورهُ عجوزٌ، مُجَعَّدةٌ، تَحتَضِنُ آلاف الحكايات، تحمِلُ تاريخَ الأرضِ التي جابَ أطرافها "آسِن". يتأمَّل الصَّخرة، التي كانت لها ذراعٌ واحدةٌ تمتَدُّ داعيةً للأعلى... اختَفَت... صارت صخرةً بلا ذراع. ابتَسَمَ ساخرًا، تَلَمَّسَ موضِع الذراع اليسرى المقطوعة، تأمَّل ندوبَهُ المُوَزَّعة على بقاعٍ جسده، يتلَمَّسُها، يَشعُرُ بالهواءِ من حولِهِ... يتحَسَّس الفراغ... الفراغات... يُفَكِّر... في تلك الفراغات التي قَطَعها منذ طَرْدِهِ من البِئر...

ربما هي مُجَرَّدُ فراغات...

نملأها، كي نَشعُر بالرِّضا...

نَقطَعُها، كي نَختَصِر مسافات بيننا وبينَ مصائرنا...

يُحَلِّقُ بِعَينَيه الحمراوَيْن، الذَّابِلَتَين، نحوَ قِمَّةِ الجبَل. يَستَعِد للصعود، تاركًا كُل شيءٍ بالأسفَل، يبحَث من جديدٍ عن الألوان، يبحَثُ عن العرَّاف، الذي يعلَمُ الماضي ويصنَعُ الحاضِر، فيُعَلِّمهُ

كيف يرى ما بين الأحمر والأخضر... ويعرف هويتهَ لمَّا يرى المُستَقبَل...

"آسن" الذي تَعِبَ من الرَّحيل، تَعِبَ من البَحثِ... يتسَلَّقُ الجَبَلَ بذِراعٍ يَتيمةٍ. يسقط، فيبحَثُ عن تجعيدةٍ يدب بها أصابعه، وعن أخدودٍ أو شرخٍ تستنجدُ به قدَماهُ، فيَغرزهُما ويتسَلَّق. تتساقطُ الحِجارةُ الحادة على ظهرِهِ وكَتِفيهِ، تبحَثُ عن فراغٍ جديدٍ على صفحةِ ذلكِ الجَسد المُزدَحِم بالندوب... فلا تَجِد فراغًا... تَنهالُ عليهِ من الأعلَى، تَفتحُ نُدوبًا قديمةً، تُحيلها جروحًا، تَسقي بِدِمائها الجَبَلَ العجوز. الآسِنُ يُجاهِدُ الصعود، والأصابعُ الخَمس اهترأت من قساوةِ الجبل، لم تَعُد قادرة على التَّسَلُّق أكثر. يستلقي بِكَهفٍ صَغيرٍ محفورٍ بباطِنِ الجبلِ، ينتَصِفُ المسافةَ للأعلى. يلتقط أنفاسهُ بصَعوبة، بينما بَدَت البلدة من الأعلى أصغَرَ مما ظَن. يرى نِصفَها بوُضوحٍ تام، تَحدُّها الرمالُ الصفراءِ التي آذَى صفارها عينَيْهِ سابقًا، والنَّهرُ يَمرقُ مُلامِسًا لَها. يَخرُجُ من الكَهفِ المُعَلَّق، يُكمِلُ الصعود... الصعودُ قاسٍ بذِراعٍ واحدةٍ... يتذكَّر ما فعله المُلَوَّنون بتلك الذراع... يصرخ... يصرخ... يصرخ... يصرخ...تتقَطَّعَ حنجرَتُهُ حتى تتألم... يخبط رأسهُ بالجبل، لا يَنسى... لا شيء يُمحى من ذاكرته... وذلك القلب النابِت خلفَ ضلوعهِ يُضِيق صدرهُ، يُعَرقِلُ كُل شيء..

- لم أكُن هكذا من قبل!!... ماذا حدثَ لي؟!!

على الأرضِ السوداء، لم يَرَ "آسِن" نهارًا مُكتَمِلًا، مُبهجًا... ولا ليلًا كامِلَ البهاءِ بعباءتهِ المُظلِمة. علَى الأرضِ السوداء لا شيء يَحكُم الوقت سوى عدد الغرباءِ الذين يَجيئون ويذهبون، وصعودُ الجَبَلِ طال، لا يَدري كَم من الوقتِ قد مَر. سَمِعَ صوتَ الشَّيخِ، يتعالى كُلما اقتربَ من الصعود. ابتَهَج، تسارَعَت خطواته الصاعِدة، لم يَعبأ بألمِ أصابعهِ المُتَقَطِّعة، قدماهُ بالكادِ حملتاهُ باقي الخُطوات.

على القمة، كانَ الشَّيخُ عريانَ، مُتَهَدِّل البَطن، فارِدًا ذراعَيهِ على الجَنبَينِ وإلى الأعلى، يُرَفرِفُ بهدوءٍ، يحاولُ الطَيَران. يدورُ في دوراناتٍ سريعةٍ، حتى يتعَب، فيُبطئ، ناظرًا للسماء التي لا تَبتَهج. يرتمي أرضًا، يسجد، يطلبُ من السَّماءِ أن تَهب البلدةَ حاكمًا جديدًا يليقُ بها، يدعوها بأن تَرْحَمهُ وتَقبَل رَقصَتَهُ، يدورُ من جديدٍ في دوراناتٍ عِدَّة... وقد قارَبَ صفاءُ لونِهِ على الأبيَض، حتى صارَ غريبًا عن أهلِ البلدة...

تَوَقَّف...

شَعَرَ بِوجودِ الآسِنِ...

ابتَسَم، قبلَ أن يُديرَ وجهَهُ إليه...

- أنتَ لا تَخاف..

- لماذا كَذبت؟

- رأيتُهُ في عَينَيك، المُتَّقِدتَينِ بالجَمرِ..

- كان يَعلَم، أليسَ كذلك؟!!

- أنتَ لا تخاف... تَقلَق، على الدوام... لَكنَّكَ لا تَخشى شيئًا..

- كان يَعلَم أن موعِدهُ قد شارَف... لم يَكُن يُدَمِّرُ قُدسِيَّةَ الصَّخرة... كان يُدَمِّرُ كذبَتَك!

- بل كان يعرفُ أكثرَ مما ينبغي... جميعكم تأتونَ إلى هُنا حُثالةً، تهربونَ من كُل شيء، تبحثونَ عن أشياء لا يمكنكم أن تنالوها...

- كان يَعلمُ أن الصَّخرة ستتغيَّر، وسَيَرحَل كالبَقيَّة!

- لقد أراد الخلود... بعد كُل ما فعلتهُ من أجلِه ومن سَبَقوه... لم يَكتَفِ بزَمانِه، أخَلَّ بالاتفاق، طمعَ بكُلِّ شيء... هل أنا مُذنِبٌ لأني لا أخِل باتفاقي أبدًا؟!!

- أردتهم مِثلك... يذبحون ويَرْوُونَ الأرضَ بالدماء... ينفذونَ وصيةً كاذِبةً!!

- ابن العاهرة، تَسَلَّلَ إلى مخبئي، قَرَأَ صفائحي وألواحي، ابن العاهرة، الأسود، الذي كان قد قاربَ أن يُشبِهَهُم، صارَ يَرى ويَعي مِثلي... وقتها فقط بدأ يبكي كُلما يَرى الصَّخرة... بات يَعلَم ما ينتَظِره... صدقني يا هذا، الأمرُ يستلزِمُ فقط أن تَعي..

البلدةُ من الأعلى، دائِرةٌ صغيرةٌ، تَحوي قومًا يُتقِنونَ حَمْلَ الحِجارةِ على الدوام. السماءُ لا تُوَزِّعُ سعادةً مَجَّانيةً، الوقتُ ذائِبٌ على تلك الأرض، تُمحَى كُل معانيه مع كُل غريبٍ جديدٍ يَصنَعُ منهُ الشَّيخُ حاكمًا، وتؤيِّدهُ الصَّخرة، وتَدعَمهُ الرياحُ الشَّرسة والزلازلُ الجبَّارةُ. "آسِنُ" يَمسَحُ الأراضي بالأسفل بعَينَيه، صفارُ الرِّمالِ الفسيحة لا يَشوبهُ سوى بُقعةِ البلدة السوداء، والنَّهرُ خَطٌ أبيض يُلامِسها، يَشُقُّ طريقَهُ لاهثًا نحوَ غُربَةٍ جديدةٍ... حتى يُدَقِّقَ النَّظَرَ إلى وجهَتِهِ... يرى نهايتها... تَصُبُّ في بُقعَةِ أرضٍ لم يَرَ للونها مثيلًا... لونٌ تَمتَزِجُ فيه الألوانَ بأصفر الرِّمال، تنصَهِرُ درجاتها، تَذوبُ الفواصِلُ بينَ فروقها، يُشعِلُ أسخَنُها أبرَدَها، ويُطفِئ أبردها أكثرها اشتعالًا ووهجًا... هُناك، حيثُ ينتهي النَّهر.

- ولكنَّها صخرة... مُجَرَّدُ صخرةٍ، حتى لو كان قد دَمَّرَها لأتَيتَ بغَيرِها!!

- صخرة؟!!... مُجَرَّدُ صخرة؟!... استَغرَقتُ عُمرًا بأكمله لإقناع أولئك الحمقى المَعزولين عما رأيتُ وسَمِعتُ برحلَتي... كُل تلك الدِّماء التي سَقَت الأرض، كُل أولئك الذين التَهَمَتْهُم الرمال السوداء مَذبوحِين... أتظن أن هذا سهل؟!... فلتَحتَرِق البلدة بالكامل... لقد ضاعَ عُمري بهذا الهراء أيها الغبي!!... أظَنَنتَ حقًّا بأنَّكَ تعلَم ما بينَ الأحمر والأخضر؟!!

أشارَ الشَّيخُ إلى تلك الأرضِ الترابية ذات الألوان الذائبة، من أعلى الجبل...

- هُناك، سَتَجِدُ من تَبحَثُ عنه...

نظرَ إليه، ساخِرًا، قبلَ أن يُغادِرهُ نزولًا إلى البلدة، يستَعِدُّ للغريبِ الجديد...

- لو أرَدتُكَ مَيتًا، لَدَفَعتُكَ مِن أعلى الجَبَلِ، وسيأتي غيرُك... هُم دائِمًا يأتون، لا يَرَوْنَ ولا يُجادِلون، ولكن أنت!!... أنا حقًّا أشفِقُ عليكَ يا فتَى... أنتَ تُثيرُ قَرَفي!

****

" "

النهرُ راكِدٌ، يأبى أن يرافقهُ قارب الآسِن. تَسَطَّحَت مياهُهُ، خَلَت من الأمواج الصغيرة، و الأقزامِ يدفَعونَ بالقارب نحوَ وجهَةِ الأرضِ الترابية. الشَّيخُ يُراقِبُ الحاكم الأحمرَ يرحَلُ بعيدًا، وزُمرةٌ من الأقزام يكتمونَ الدَّمع، يتهَيَّأون لغريبٍ جديدٍ، قصير القامة تمامًا مثل الصخرة السوداء التي قَصُرَت قامتها. الشَّيخُ الذي كان بانتظارِ تلك اللحظة، كان يَحتَرِق من الداخِل، تتفَجَّرُ بِجَوفِهِ مائَةُ شَمسٍ حارقةٍ، لهيبها يطفَحُ بالأحمَرِ على جِلدِ وجهِهِ الذي باتَ أبيَضَ من اللَّبَن. يُتابِعُ "آسنَ" ينزوي بعيدًا بقاربِهِ، تاركًا له تلك المُعضِلة... حيثُ صارت الصَّخرة قصيرة القامة تُشابِهُهُ تمامًا... ظَنَّ أنَ الوَقت قد حان لِيَحكُم أهل البلدة... حتى تَأمَّلَ لونَهُ الذي ما عاد يَمُت للأسود بصِلةٍ... فيغضَبُ... وينتَظِرُ غريبًا آخر.

"آسِن" يُجَدِّف بذراعِهِ الواحِدة، ينحَرف القارِبُ عِدة مراتٍ عن المسار، يتخَبَّط بالضِفةِ اليُمنى. يُسَيطِرُ "آسن" على غضبِهُ، لا تُفارِقهُ صورةُ البلدة السوداء. الأقزام كانوا الأبرع في سردِ الحكايات، الأقزام أعطوا لِكُل نُدبَةٍ على جَسَدِهِ المُهانِ مَعْنَى... الأقزام سيفعلونَ ذات الشيء مع غريبٍ جديدٍ وينسونَ أمرَ الحاكم الأحمر. يؤنِّبُ نفسَهُ على تلك المُزحة، التي صدقها أكثر منهم... إنه حقًا الحاكم الأحمر، الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر... كان ينعتهم طوال فترةِ حكمهِ بالمساكين، الذينَ يَتسَوَّلونَ الشفقة من السماء فَتُعطيهم ما لا يكفيهم من الضوء البرتقالي الباهت... ويَتَسَوَّلونَ الحُكمَ والذُّل من غرباء لا يَمتُّونَ بِصِلةٍ لبلدتهم... لكنهُ سُرعان ما يبتسم، يقول: "   ...   ...

...   !".

القارِبُ يتباطأ، مياهُ النَّهرِ ثقيلةٌ، باردة، تُعَرقِلُ الآسن عن بلوغ الأرضِ الترابيَّة. الغيومُ بالأعلى تنسَحِبُ من المَشهَد، يرى الآسِنُ، بِعَينَينِ لم تَخلُوانِ بعدُ من الدهشةِ، ضوءًا أشدَّ وهجًا من تلك الشَّمسِ على أرضِ المروج، يَختَرِقُ السحابات فوقَ الأرضِ الترابية، يُذيبُها، يُخلِي السماءَ من الضَّبابِ، يُعَرِّي زُرقَتَها ويَكشِفُ عن صفائها. ينتصِبُ "آسن" واقفًا، يُجَدِّفُ بأقصى ما مَلَكَت ذراعُهُ المُتعَبة، يهربُ من الرمالِ الصفراء على جَنبَيْ النهر العجوز، ينادي بِصوتٍ جَهْوَرِيٍّ:

- يا عرَّاف!!... يا من أخرجتني من كُلِّ أرضٍ باحثًا عن أسرارك... أتيتُكَ من بلادِ الرُّمَّان... أتيتُكَ أبحَثُ عن الألوان... يا من تعرفُ ما بينَ الأحمر والأخضر... أصابَني أحمَرُك، فَدُلَّني على أخضَرِك!!

النهرُ الراكد، الخامِل، يأبى مِن جديدٍ وصول الآسِن. المياه تَلَوَّنَت، تُعَكِّرُها الأرضُ بالطِّين كُلما اقتربَ القارِبُ منها. يُجَدِّفُ بكُلِّ قوَّةٍ أوتِيَ بها، يُلقي بالمجداف ويَقفِزُ بالنهر، يتركُ القارِب العَصِيَّ عليه ويُكمِلُ طريقَهُ سابحًا نحوَ الأرضِ الترابِيَّة.

الطِّين يُتْخِمُ الماء، "آسِنُ" يُجاهِدُ للوصول. يخرجُ منهُ، يستلقي على شاطئ طينيٍّ من الألوانِ المَيتة، الباهتة، تتصاعَدُ منها رائحة اللحمِ النَّيئ. تسري حرارةٌ بِجِلدِهِ، تزدادُ بمرورِ الوقت، يشعرُ بأنها تتهاوى عليهِ من الأعلى، تخترقُ جلدهُ المُبَلَّل بماءِ الطِّين. يرفَعُ وجههُ للسماء التي كاد يُعميِهِ وهَجُ الضوءِ الأصفرِ المُتَشَبِّعة بِهِ. خمس كُراتٍ حارِقة، مُتباينةِ الأحجام، شموسٌ صارخةٌ بالأصفر، تتلذَّذُ بِحَرقِ الآسِن... تَحلِبهُ...فَينِزُّ عَرَقًا، وظِلًّا باهتًا، سرعان ما يتبَدَّدُ ظلامُهُ على الأرضِ الترابِيَّةِ الفسيحةِ.

يَخطو "آسن" على أرضٍ جافَّةٍ، فرشُها ترابٍ، تزدادُ جفافًا كُلَّما ابتَعَدَ عنِ النَّهرِ، تغزوها شقوقٌ أقسى، كُلَّما عَطِشَت الأرضِ البَعيدة عن ضفةِ النَّهر. يتَلَفَّتُ حولَهُ، تَلهَث عيناهُ الحمراوَانِ في المُحيطِ الشَّاسِعِ حولَهُ. أرضٌ فارِغة من أي شيء، لا هويَّة لها، لا مَلمَحَ يُستَدَلُّ بِهِ، رياحٌ شَقِيَّة تلهو من خلفِهِ، تمرقُ فجأة لِتَلفَحَهُ بأتربةٍ تلتِصقُ بالجَسَدِ المُبَلَّلِ فَتُجَفِّفهُ.

- يا عرَّاف!!... يا عالِم الماضي وصانع الحاضِر... يا من تَملك مفاتيح الأحمر والأخضر وما بينهما..!!

صاح، بِصوتٍ مكتومٍ يُحاولُ الظهور، يُجادِلُ صوت الريح الذي تعالى، كأنها تصرخ. يصيحُ أكثر، فيعلو صوتها، تَمنَعهُ من البَوحِ...

- أظهر لي نفسَك... لقد تَبِعتُكَ من آخِرِ بلادِ الكون... أعلمُ أنك تسمَعني!!

يصيحُ أعلى، ورائحةُ التربة المُتَشَقِّقة أسفل قدمَيهِ تستوطِنُ أنفَهُ أكثر، رائحةُ لحمٍ نَيئ يمتزِجُ بالدماء... رائحة يعلمها جيدًا، لمَّا أُلقِيَ بالبئرِ أول مرة، لمَّا نَبَتَت له تلك الكُرة المَشوَّهة التي صارت أنفًا... رائحة اللحمِ النَّيئ أثارت غثيانه، ذَكَّرَتْهُ بالظلمة، بالوحشة، بالجُثَثِ التي كان

يدوسها بالممرِ المُظلم الواصِلِ بينَ البئرِ وكهفِ البُحَيرةِ المقدسة. تَقيَّأ ما بِجوفِه، استلقى على ظهرِهِ، يتألَّم من الرائحة، لا يقدِرُ على النَّظرِ إلى السماءِ التي كانَ أصفَرُها مؤذيًا. يتقَلَّبُ على بطنِهِ، يدفِنُ وجهَهُ بالأرضِ الترابية، يشعُرُ بِراحةٍ عظيمةٍ...

تَخبو ولولةُ الرياح، يهدأُ صفيرها...

يسمعُ الآسِنُ صوتًا...

يأتيه من بعيدٍ...

ضَحِكاتٌ رنَّانة، أصواتٌ تتراقَصُ بالجَوِّ لأطفال، بناتٍ وبنين...

أصواتٌ تلهو، تُزَقزِقُ أحيانًا...

ورائحةٌ دافِئة، مُسَكَّرَة، تدفَعُ بالآسِنِ لإخراجِ رأسِهِ من التراب...

البراحُ أمامهُ لا حدودَ له، وكثافَةُ الغبارِ تَحجِبُ الرُّؤية، لم تَخفت بعدُ رُغمَ سكونِ الرياح...

يتَتَبَّعُ الرائحة المُسَكَّرة، يتَّخِذُ من الأصواتِ الطفوليةِ والضَّحِكاتِ الشَّقِية طريقًا يسلُكهُ. يقتَرِب حتى تَغرزُ قدماهُ، المليئتانِ بالندوب، في عُشبٍ أخضر... تزيحُ الشموس الخمس الغبَار بِأضوائِها، لِيَتَجَلَّى كُل شيء...!

****

32

الضبابُ الترابيُّ ينقَشِع، الآسِنُ يَسعُل منه، يضَربُ الهواءَ من حولِهِ بِذراعِهِ مُحاولًا إزاحةِ الغبار. صوتُ الأطفالِ يتوقَفُ لِلَحَظات، يقطعهُ صوتٌ جَهْوَرِيٌّ، زئيرٌ مُتَقَطِع، يبكي، يهدأ للحظاتٍ... تحل مَحلَّهُ الضحكات الطفولية المائِعة، الخجول... يقطعها من جديدٍ الصوتُ الجهوري، يصرخُ بِألمٍ:

- أخرجوني من هنا!!... أرجوكم!!... لا تتركوني لَهُم!!

كانت ضحكاتُ الأطفال تتعالى أكثر كلما صرخَ الصوتُ بالزَّئير، بينما الآسِنُ الذي كان قد توقف عن المُضِي خُطوة لِلأمام، يحاولُ استيعاب ما يجري. ينقشعُ الضبابِ المُغَبَّر، ينسلخ من الجو مُعَرِّيًا قفصًا كبيرًا، قُضبانهُ أسنانٌ معدنيةٌ صَدِئةٌ، يحبِسُ بِأحشائِهِ وحشًا يصرخ ويَركُل القُضبان، يَستنجِدُ بِـ"آسِن" فور أن رآه...

- أخرجني من هنا!!... أرجووووك!!... آاااااه، لا تتركني، سَيَقتلني أولئك الوحوش!!!

يتأمَّلُ الآسِن، بِعَينَينِ مَرعوبَتَينِ، ذلك المَسخَ الذَّميم الصَّارِخ بالقَفَص...

يتأمَّلُ ذلك الرأس المُدَوَّر، الذي هو عينٌ واحِدةٌ كبيرةٌ، مَفتوحةٌ عن آخرها، لامِعةٌ، يَظهَرُ بِلمعانها شَبَحُ صورةِ "آسن" التي تنظرُ صوبهُ مباشرة... تنبتُ من جَنبَيها أذنانِ كبيرتانِ كالأجنِحة، وتكسوها بُقَعُ شَعرٍ مَنتوفٍ. يتأمَّلُ الذِراعَينِ المَهولَتَينِ في الحجمِ والطول، اليدانِ اللَتانِ تَسَلَّحَتا بِمَخالِبَ تَحتَك بالقُضبانِ الحديدية فَتُوَلِّدُ شرارًا. يتأمَّلُ ذلك المَسخَ الذي تنبَثِقُ من عينهِ الواحدة أسنانٌ حادةٌ، لا يَحويها فَمٌ، كأنَّها لِحية... وذلك الجَسَد العجيب... الكَرَويَّ الضَّخم... يتعَلَّقُ بِه ثديا امرأةٍ كبيران، ممتلِئان... يتدَلَّى منهُ عُضوٌ ذكريٌّ عظيم، بِحَجمِ بَقَرَة...

نَظَرَ المَسخُ إلى "آسِن"، سَكَتَ للحظاتٍ، أعياهُ الصراخُ وأهلَكَ بَدَنَهُ التخبيط وركل القُضبان. أطالَ النَّظرَ إلى الآسِن، حتى تعالَت أصواتُ الضحكاتِ الطفولية مرَّة أخرى، عاد يصرخ ويَهز

القفص...

- لا تنظرِ إليَّ هكذا!!... أخرجني من هناااا.... قُلتُ لك سيقتلونني... لا أطيقُ يومًا آخر!!... أتوسَّلُ إليك أيها القبيح!!...

ارتمى الأحمرُ على الأرض، جاحِظةٌ عيناهُ، تعالَت أصواتُ الأطفالِ من جديدٍ، حتى تَبَدَّلَت ملامِحُ المَسخِ في القَفَص... ينظرُ للآسِنِ مُرتَعِبًا... يقول: " !!!" ...

زُمرةٌ من بناتٍ وبنين، مُتباينةٌ أعمارهم، يأتي أكبرهم مشيًا على الأقدامِ بينما يَحبو صغيرهم فيَجْتَرُّ العُشبَ. أطفالٌ وجوههم ضاحكة، شموسٌ صغيرةٌ تلهو بالحلوى والسَّكاكِرِ المُلَوَّنة، يُداعِبُ أكبَرُهُم أصغرَهم، يُدَلِّلونَ الصغار ويحملونهم عن الأرضِ بينما يتقافزونَ من أيادِيهِم يحاولونَ الفرارَ بِحَماسٍ. جميعهم بديعو الجمالِ، رَقيقو الملامح، بِبَيْضِ الألوانِ تضرِبُ الحُمرةُ وجناتهم، عُراةٌ إلا من بعضِ أوراقِ شَجَرٍ كبيرةٍ مُلَوَّنةٍ لم يَرَ "آسن" مثلهُ في شجرِ البلاد.

تَجَمَّعوا حولَ القَفَص، يُشاهِدونَ المَسخَ الذي انكَمَشَ حولَ نفسه، يُراقِبُ نظراتهم الضاحكة البريئة، تَذبَحهُ ذبحًا... بينما يقتربُ الآسِنُ منهم... يرى بِعَينَيْ المَسخِ رُعبًا واستنجادًا بِهِ. الفتيات الصغيرات، اللاتي كُن يُجاهِدنَ في الوقوفِ على أقدامٍ بدينةٍ ممتلئةٍ، يَتَحَسَّسْنَ الخطوات في المَشْيِ، كُن يتَقَرَّبنَ من الآسِنِ. يَلْمسنَ جِلدهُ المُجَعَّد الجافّ، يضحَكنَ من ذلك الغريب الذي يفوقهن طولًا، ينظُرْنَ للأعلى، لِوَجهِهِ، يتعلَّقنَ بِساقَيهِ ويَحتَضِنهُن... يَضحَكْنَ بِخَجَل... بينما تُخرِجُ إحداهُن بعضَ الحلوى المُلَوَّنة تُعطيها له. يَقبَلُ هَدِيَّتَهُن، يتناولُ الحلوى، يُذيبُ سُكَّرُها لسانَهُ الجاف لِيَنزِفَ لُعابًا حُلوًا... يَشبَع بَطنُهُ الجائع منذُ زمن...

- أخرجني من هنا!!... أو اقتلني... أنهِ عذابي هذا أتوسَّلُ إليك!!

أفزَعَ صُراخُ المَسخِ الأطفال...

تَعَلَّقَت الفتيات بالآسِنِ أكثر...

اقتربَ عددٌ من الأطفال الأقل عمرًا، يَحْبونَ على بطونهم نحو القفص، والمسخُ يرتعِبُ منهم. يضحكونَ ببراءةٍ، ما إن وصلوا على مشارِفِ مُلامَسَةِ القُضبان حتى مَدُّوا أيادِيهم الصغيرة المُدَوَّرة إلى داخلِ القفص، يفتحوها، ممتلِئة بالحلوى والسَّكاكِر...

يُقَدِّمونها للمَسخِ بِهدوءٍ، يبتسمون ويتحدثونَ بِلُغَةٍ مُدَلَّلةٍ، بِكلماتٍ لا مَعنى لها، أقرَبُ إلى الأصواتِ المُزَقْزِقَة:

- لا أريدُ شيئًا!!... ابتعدوا عني أيتها الوحوش اللعينة!!... أخرجووووني، ارحموني أرجووكم... لا ذنبَ لي!!...

صَرَخَ بِهم، علا زَئِيرهُ حتى ارتَجَّت الأرضُ، ارتعبَت ملامِحهم، وتَبَدَّلَت وجوهُ الصغار أمامَ القَفَص من الضاحكة إلى السَّاخِطة... انكَمَشَت... تَبكي وتُزَعِّقُ بِحُزنٍ لأن المَسخ لم يَقبَل هدية الحلوى. كانَ صوتُ بكائهم ونحيبهم يعلو، فَيَسُد المَسخُ أذنَيهِ الكبيرتينِ ويبكي... يصرخُ ويتدَحرَج على الأرضِ...

- صراخهم يقتلني!!... اجعلهم يسكتون يا هذا!!... آاااه!!!

تركت البنات الصغار "آسن"، اقتربنَ بِغَضَبٍ والآخرون، كُل من يمشي على قدمَينِ ومن يزحَف. التفُّوا حولَ القفص، عَملوا دائرة كبيرة، أغلقوها بِتَشابُكِ الأيدي، وبدأوا يُغَنُّون، بينما كانت الشُّموسُ الخمسُ بالأعلى تُنعِشُ البُقعة الخضراء من الأرضِ أسفلهم، وتَروِي الأزهار حولهم بالألوانِ أكثر...

- طيري يا عصفورة، فوق، في السحابة... طيري، طيري... طيري، عصفورة في السحابة... طيري... طيري، طيري... عصفورة، عصفورة... جميلة... طيري...

الأكبرُ سِنًّا يُغَنُّونَ ويَلِفُّون مُتَشابِكِي الأيدِي حول القَفَص، يُكَرِّرونَ ما حَفِظوهِ فقط من كلمات، يتقافزونَ ويرقصون... بينما جَلَسَ الأصغرُ سِنًّا على مؤخراتهم الصغيرة، يُصَفقون ويضحكون، تَضيقُ عيونهم الصغيرة اللامعة من الدَّمْعِ، يُغَرِّدونَ بأصواتٍ مَرِحةٍ...

المسخُ يصرخ...

يتوقفون عن الدوران، يلتقطونَ الحلوى والسَّكاكِر من الأرضِ، يبتسمونَ بِوَجهِ المَسخِ المَذْعور... يُلقونَ بالحلوى عليه!!...

- توقفوا أرجوكم!!!....

- طيري... طيري... عصفورة سيئة...!!

يتحرَّك بِسُرعةٍ مضطربةٍ بداخلِ القفصِ، يُرَفْرِفُ بِذراعَيهِ الضخمَتَين، كُلما أصابَتهُ قِطعة حلوى أحرقتهُ... أذابَت من جَسَدِهِ تاركةً حرقًا مؤلمًا يُعَذِّبهُ، فَيُرَفْرِفُ بِذراعَيهِ أسرع...

- طيري، طيري... طيري في السماء...

- ارحموني أرجوكم... لا أستطيع!!... أنا أحاول!!

- عصفورة سيئة... طيري... طيري...!

يُراقِبُ الآسِنُ المَسخَ يتألَّم، لا يَفهَم. يبحَثُ بِعَينَينِ لا تزالانِ ذاهِلَتَين، هُناكَ... حيثُ الأرضُ عادت تُرابيةً جافَّةً.... إلا من طريقٍ بدت مخلوطةً بالماءِ فصارَت طِينِيَّة! تَرَكَ "آسِنُ" البقعة الخضراء، لم يُفارِق أذنَيهِ صراخُ المَسخِ بالقفص يستنجِدُ بِهِ، راجِيًا ألا يَترُكهُ يومًا واحدًا بذلك الجحيم... لم يُفارِق الصراخُ أذنَيهِ حتى كانَت قدماهُ قد تلوَّثَتا بالطِينِ على الطريق الجديد... الذي قادَهُ إلى طِينٍ أكثرَ رطوبة، تَغرزُ بِهِ الأقدام، بينما، بدا على جَانِبَيْ الطريق آثارُ أقدامٍ لِطِينٍ جاف على الأرضِ الترابية... آثارٌ عديدة، لا حصرَ لها، تتَخَبَّطُ في اتجاهاتها خارج المَسار، أحجامُها ومقاساتُها عِدَّة... كأنَّها تَهربُ من شيءٍ ما...

تلك الرائِحة...

يَعرِفها...

يَحُكّ أنفَهُ، يضطرِبُ قلبهُ من جديدٍ...

الرائحة لا تزول، تفوحُ حتى التصقَت بجِلدِهِ...

يَلمَحُ بابًا، خشبيًّا عريضًا، واقِفًا وحيدًا في فراغِ الأرض، ينتهي أمامَ عَتَبَتِهِ الطريقُ الطِّينيّ. لا تَحدُّه حوائِطٌ ولا أسوار، يَتوَقَّف الآسِن أمامهُ. شَيءٌ ما يُخبِرهُ بأنه لا يَجِبُ أن يتجاوز ما وراء الباب إلا عبرهُ... يجبُ ألا يتفاداهُ من الجنبَين...

يتحرك الآسن حول الباب، ما خلفهُ أراضٍ ترابيَّةٌ شاسعةٌ، وما حولَهُ. يَعودُ إلى أمامِ الباب، يَدفَعُ إحدى دفَّتَيهِ... يتأمَّل الطريق الخَفِيَّ إلى داخِلِ الفراغ...

يرتَعِب....

يَفزَع!! يستلقي أرضًا أمام الباب المفتوح إلى جوفِ بَهوٍ فسيحٍ بِقاعةٍ مُظلِمةٍ...

الرائحة، تزداد!!...

يُحاوِل أن يَتَذَكَّرها... يَخطرُ بِبالِهِ الرُّمَّان...

"...!!"

هكذا قال، يتأمَّل الباب العجيب الواقِف في الفراغ...

يستجمِعُ قواه، يُنادي بِصوتٍ خفيضٍ: " ... "

يتجوَّلُ بِحَذَرٍ في ظلامِ البَهْو، تاركًا البابَ مفتوحًا، يتسرَّبُ الضوءُ منهُ، يُهَيِّئ له طريقًا من نورٍ...

يَشُلَّهُ صوتٌ بارِدٌ رخيمٌ، يُثلِجُ قدمَيْهِ ويُرعِشُ يَدَيْهِ، يسألهُ...

- لماذا تأخَّرْت...؟

****

33

برودةٌ تتسَرَّبُ إلى أرضيةِ البَهوِ المُظلِم، تُثلِجُ قَدَمَيْ "آسن". الباب الذي دخلَ منهُ ما زال مفتوحًا، يهتدي بالنُّورِ القادم عبرَهُ، يَحفِرُ في الظلام نَفَقًا نورانيًّا لِبابٍ آخر، يراهُ الآسِن ويركضُ نحوهُ. يضطربُ القلبُ النابِت خلف ضلوعِهِ، القلبُ الذي كان سببًا في كُل تَرَدُّدٍ وُضِعَ فيهِ منذ أن نَبَت... القلبُ الذي كانَ سببًا في خوفِهِ وذُعرِه. يركضُ هاربًا عبرَ النفق النوراني في الظلام، صوبَ بوابةٍ خشبيةٍ، بعيدةٍ. يطرقها، لا أحد يُجيب، يطرقُ أقوى...

تنفتح، على غُرفةٍ فسيحةٍ...

لا سَقفَ لها...

غُرفةٌ كالوِعاء الكبير، تملأها الشَّمسُ نورًا، والسَّماءُ الزرقاء الصافِية تعلوها، لا حِجابَ بينهما...

ورجلٌ طويلٌ، يتَّخِذُ من منتصفِ الغُرفَةِ مَوقِفًا...

يُديرُ ظهرهُ للباب، لا شائِبة تشوبُ الجِلباب الأبيض الناصِع الذي يَكسو جَسَدَهُ العَفِيَّ.

يقتربُ الآسِنُ، تَغرزُ قَدَماهُ بالطِّين، الذي عادَ من جديدٍ... يملأُ أرضَ الغُرفَةِ الفسيحة. تُلَوِّنُ الشمسُ بالأعلى، الجلباب الأبيض بالأصفر... تَشِف قُماشهُ عن جَسَدٍ غريبٍ أسفلهُ، جسدٌ غامِق، أسود، بينما الرأسُ أصلع لامع، والوجهُ أبيض، فاتح. ناداهُ "آسن"، لم يَستَجِب، اكتفى بإيماءةٍ باليَد. كان يَفعَلُ شيئًا بِيَدَيهِ، على منضدةٍ أمامهُ، يَكبِشُ بِيَدٍ من الطِّينِ بالأرض، يضعها على المنضدة، يعجِنُها بِيَدَيهِ عجنًا.

- لماذا تأخرت...؟!

لم يَرُد "آسن"، اقتربَ بِحَذَرٍ من الرجل الذي لم يتوقف عن عَجْنِ الطِّين على المنضدة. التَفَّ حولهُ يتفَقَّدهُ، بينما الآخر ساكِنٌ لا يلتفت. العينانِ الباردتانِ على الوجهِ الأبيض المُشرِق، اللحية البُنِّية المُمَشَّطة التي تنتهي عند صدرٍ قويٍّ منحوتٍ، الرأسُ الأصلع صحراء ناعمة تَدهِنُ سَطحِها آثارُ الشَّمسِ... كُلها علامات حاولَ الآسِنُ قراءتها.

- قُلتُ له، إنِّي أقدِر... قالَ لي: ليسَ بِهَيِّن...

نطقَ الرجل من جديدٍ، كَرر تلك الكلمات التي حاول "آسن" أن يستفسرهُ عن معناها، لم يُعِرهُ

اهتمامًا.

- أنتَ... ولكنَّكَ... لستَ عرافًا!... لا تُشبِه العرَّافين ممن رأيتهم في بلدتنا!

لم يَرُد الرجل، اكتفى بِنَظرَةٍ باردةٍ، لا يهتزُّ بها جفنٌ ولا يُحرِّك لها حاجبًا. النظرة أخافَت "آسن"، وجهُ ملامحهُ بلا مَلمَح، حركاتهُ كأنَّها السكون ذاته. يجاهِدُ لِقراءةِ وجههِ، غيرُ قادرٍ على اقتناص ابتسامةٍ منهُ أو غضب... لا يُمكنهُ التنَبُّؤ بأفعاله. يشعُرُ بِحالَتَينِ متناقِضَتَينِ، الطمأنينَة والاضطراب، السكينة والزوبعة، القسوة واللين... الأحمر والأخضر.

- أنا الصَّانِع... انتَظَرتُك... جميعهم يأتون سَعيًا، لا يتأخرون...

- أنا...

- كانَ من المُفتَرَضِ أن تَصِلَني قبلَ أيام... لماذا تأخَّرت؟

الصوتُ البارِد يُقَشْعِرُ بَدَنَ "آسن" الجاف، تصطكّ أسنانُهُ، تطوفُ بِجَسَدِهِ رجفةٌ دامَت لِثوانٍ...

- بَحَثتُ عنكَ طويلًا... سألتُ عنك كُل من قابلتهم، جميعهم قالوا...

- أنتَ أغبى مخلوقٍ مَشَى على تلك الأرض... لا عَجَبَ في أنَّكَ تركتَ كُل شيءٍ خلفَك... تركتَ الوطن، الزوجة، الهويَّة والحَبيبة... تَرَكتَ المُلكَ والجاه...

- ولكن... كيفَ عَرَفت؟!

- لا أحد يَصِلُ إلى هُنا، إلا إن تَخَلَّى... لا أحد يصِلُ إلَيَّ إلا إن تَرَكَ وراءهُ كُل شيء... لكنَّها لَسَابِقة أن يأتيني من تَخَلَّى أيضًا عن عقلِه...

الطِّينُ بينَ يَدَيهِ القَويَّتَين، طويلةِ الأصابِع، باتَ عَجينًا، يُقَطِّرُ عليهِ من ماءٍ بِقِدرٍ خشبيٍّ أسفل المنضدة، يَعجِنُ من جديدٍ، بينما يُراقِبهُ الآسِنُ مذعورًا.

- ولكنِّي... بَحَثتُ عنك... تركتُ كُل شيءٍ لأنِّي بَحَثتُ عنك... لدي الكثير لأسألك بشأنِه، لقد تَعِبتُ من البَحثِ يا من تعلم ما بينَ الأحمر والأخضر... تَعِبْتُ من وحشةِ الظلام... لا أبحَثُ عن وطنٍ وعَودة، ولكنِّي أنْهكتُ، لا أوَد المُضِيَّ أكثر... أنتَ من تعلَم الماضي، وتَصنَع الحاضِر، فعَلِّمني كيف أرى مُستَقبَلي... لأنِّي تَعِبتُ من البَحثِ...

- أنا لَستُ "هو"... لم أعلَم قط ما بينَ الأحمرِ والأخضر، مهما اجتَهَدت... لا تسألني عن ماضي، فماضِيَّ غير ماضيك، لن يُهمَّكَ أن تَعرِف... ولا تسألني عن حاضِر، فالحاضِرُ ها هُنا أمامك، شخصٌ آسِنٌ بِذِراع مبتورةٍ وأخرى يتيمة بائسة، يعتريهِ البؤسُ وتَنهَشُ عِظامَهُ الغُربَة، يرسمُ الزمنُ نُدوبَهُ على جَسَدِه حتى أهلَكَهُ وأفقَدَهُ هُويَّتَهُ، الحاضِرُ أمامي ها هُنا، تائِهٌ آخر يأتيني، يطلبُ منِّي إصلاح عاهاتِهِ، كأنِّي أنا من تسببتُ بها... أنا لستُ "هو" لأعلم ما بينَ الأحمرِ والأخضر... ولكن... يمكنني أن أعلِّمَكَ المُستَقبَل... هذا... إن استَطَعتَ أن تَلحَقهُ!

****

... " " ...

أرى بعَينَيكَ الحمراوَين الكثير، أرى بهما الرِّيبة مما أقول... ألمَحُ شَبَحَ الأملِ بهما... الأمل الذي يتبقى دائمًا وأبدًا بِعيونِ كُل من أتوا إلى تلك الغرفة... يتخَلَّونَ عن كُل ما مَلَكوا، يَظَل فقط الأمل.

هُنا لا سَقف يحمي من مطر... ولكن... لا مَطر يهطل. هُنا لا سَقف من نورِ الحقيقةِ يَستَر... تراها تَصُبُّ بالغُرفة... جَلِيٌّ أمري، لا أختبئ... أنتظرُ تائهًا جديدًا... لكنَّ الذينَ يُشبِهونَك يُثيرونَ حنقي.

سامِحني إن كُنتُ خيَّبتُ ظنَّك يا أحمر العينَين... أو لا تُسامِح.. لَستَ في وضعٍ يسمحُ لك باختيار. لكن اسمع، سأتلو عليك من أمري، سأتلو عليكَ من أمرِ الطينِ في الغُرفة... وبعدها... سأعَلِّمُكَ كيفَ تَرى مُستَقبَلَك. الأمرُ هَيِّن، أبسَطُ من الموت، أبسَطُ من إزهاقِ روح، كُنتُ أخبِرهُم بأنِ المستقبل بسيط، فَيَبكون. كُنتُ أقول: " ... يبكون ويُقَبِّلونَ قَدمَيَّ الشريفتَين... وأعيُنُهُم لا تزالُ تحمِلُ ذاك الشيء... الأمل.

أنا "الصَّانِع"...

الذي يَعجِنُ الطِّين...

أنا الصَّانِع...

الذي يَعمَلُ من الطِّينِ كهيئةِ العجين، يصهِرهُ بينَ أصابع ماهرةٍ...

يضعُ فيهِ من ماءِ النَّهرِ...

يَبصقُ فيه...

يَعجِن...

لِيَصْنَع...

لا تنظر إليَّ هكذا وإلا أحرقتك...

أتعلم؟!... صياغة الطينِ ليسَت بالأمرِ المُعجِز. نعم، هذا ما حاولتُ أن أخبِرهُ بِهِ. قُلتُ له: " ... ... "

غَضِبَ مني...

أغضَبَتْهُ كلمة "أبصق"... تخيل؟... غفرَ لي الكثير من زلاتي، لكنَّ تلك الكلمة أغضَبَتْهُ... ولكن، كيفَ لكَ أن تتخيل!!

قال: " ... "

كلماتهُ قاسِيةٌ، تؤلمني، تُشعِرني بِعَجزٍ شديدٍ. أعودُ إلى ظلامي، أفَكِّر بِكُل كلمةٍ، أفكِّر بأن من صنعَ أهلَ الرُّمَّان وغيرهم لم يَقُم بالشيءِ العظيم...

أهلُ الرُّمَّانِ مَعيبون...

مَنقوصون...

يأتونني كُل يوم، كُلُّهم يأتون، يُقَبِّلونَ قدمَيَّ ويُقَدِّمونَ فروض المَحَبَّة، طالبينَ قَضاءِ الحاجة. أهل الرُّمَّان وغيرهم ليسوا كامِلين، وقد عَهِدتهم منذُ اليوم الأول.

لقد رأيته... "هو"...

رأيتهُ يومَ أن صَنَعَ أوَّلهم...

حَفِظتُ كُل حَرَكَة قامَ بها، بِتُّ أكبِشُ الطِّين مثلما يفعل، أُشَكِّلهُ تشكيلًا. "هو"، الذي يعلمُ ما بينَ

الأحمرِ والأخضر، بديعٌ في تشكيل الطين، دقيقٌ بِمُكوناتِه، عارفٌ بأسرارِه، عَليمٌ بِتَكوينِه... "هو" من صَنَعَ الطِّين! لكنِّي كُنتُ مثله... دقيق... فَطِن... أعي تمامًا صياغَة الطين.

صنعَ الزمرةَ الأولى منهم، وصَنَعتُ زُمرَتي...

نَفَخَ فيهم، شَهِقوا، قاموا مذعورين، يتخبطونَ من المَسِّ، حتى هدأوا...

فَعَلتُ مثلهُ، لكنِّي لم أكن أجيد النَّفخ... كنتُ أبصق... ليتحرك ما صنعت، تدبُّ فيه الحياة للحظاتٍ، ثم يَحتَرِق...!

مهما حاولتُ أن أشَكِّل وأنحت من الطِّين، كانوا يحترقون. أصنعُ ذات الأشكال، أفعلُ بهم مثلما يفعل، أبصق... فيحترقون. السنواتُ تَرمَحُ كالخَيلِ، تَمرقُ كالبَرقِ، أعمارٌ لا حاجةَ لِمَن مثلك بِحِسابِها، كُلها تَمُرُّ أمامي، أسعى فيها لِتَشكيلِ الطين، أسعى فيها لِتَطويعه، وكان يُراقبني!!. أعلم أنه كان يراقبني، ربما كان يصعبُ عليه أن يرى بديعًا آخر يُنافِسهُ... "هو" كان غريبًا... لم أفهَمهُ أبدًا مهما حَييتُ. في البداية يقول إنه صَنَعني... ثم يتباهى بِبَديعِ صُنعي أمام أولئك الذينَ حُرِّمَ عليهم القُرب من الطين أو حتى محاولة لمسه.

أتعلم يا وجه الندوب؟!... لقد أحببتهُ...

لا أنكر، أحببتهُ حبًّا شديدًا...

كان يتباهى بِي، يَذْكُرُنِي في كُل أمر، خُيِّلَ إليَّ أنه لم ولن يَصنَعَ مِثلي...

أعطاني تلك القُدرات الفائقة...

لكن عندما حاولتُ أن أنافِسَهُ في الصُّنع، آلمني بِكَلِماتِه...

" ... "

ليتَهُ ما صَنَعني!!... إذا كُنتُ قد "خُل..." صُنِعتُ لِكَي أعبُد، لماذا أعطاني كُل تلك القُدرات؟!... لماذا لم يَجعَلني كالذينَ حُرِّمَ عليهم المُجادلة في أمرِ الطين؟!!...

قُلتُ له: " ... "

كانَ هادِئًا، كَلِماتهُ جاءت هادِئةً، كان بِوِسعِهِ أن يمحِوني... لكنَّهُ لم يَفعَل.

قال: " "

لم أفهَمهُ أبدًا...

ثُرتُ يومها، أقسَمتُ له بِما لديَّ أن أصنَعَ من ذات الطِّين مخلوقًا كامِلًا... بلا عيوب. كلماتهُ لا تُفارقني... "ليسَ الكَمالُ بالكَمالِ"... لكنِّي عَجَنتُ الطين بِماءِ النَّهر، شَكَّلتُ منهُ أوَّل صُنعي...

أوه... أعتقدُ بأنَّكَ تَعَرَّفتَ عليه...

البديع الذي حَبَسَهُ "هو" في القفص...

أردتُ أن أصنَعَ المخلوق الكامِل، اختَزَلتُ العينَين بِعَينٍ واحدةٍ، كبيرةٍ، بَصيرةٍ، تَبلُغُ بِرُؤياها عرضَ الكَونِ وطولَهُ، تخترقُ السماواتِ وبواطِنَ الأرض... شَكَّلتُ من الطين أذنَين تسمعانِ هسيسَ الملائِكة، الذينَ كانوا يتسحبونَ بِخِفَّة، لإلقاءِ نظرةٍ خاطِفةٍ على أوَّلِ الصُّنع. شَكَّلتُ منَ الطينِ أسنانًا تَقضِمُ الجِبالَ قضمًا، وذراعَين تَحمِلانِ الأرضَ حملًا هَيِّنًا... صَنَعتُ مخلوقًا لا هو بِذَكَرٍ ولا بِأنثَى... هو الاثنَانِ... يتوالَدُ حتى آخرِ أيامِ الأرض، يَرضَعُ ويُرضِعُ من ذاتِهِ... لا

يَجوعُ أبدًا.

كان يقول... من جديدٍ... "ليسَ الكَمالُ بالكَمالِ"... وكُنتُ أقول: "

".

كانَ يُخَيَّلُ إلَيَّ، أنه كان يَصنَعُ الخلقَ ناقصين، معيبينَ بِنقاطِ ضعفهم تلك... فقط لِيَظَل "هو" الأبقى والأعظم، ليظل هو الكامل...

لا... لا تَضحَك من قولي!!... لا تنظر إلَيَّ هكذا أيها الآسِن البائِس...

لقد قُلتُ له غاضبًا منه: " ... ...

... ...

!!"

كان هادئًا... سكونهُ يَبُثُّ الذُّعر بداخلي، يُمَزِّقُني... لماذا لا يغضب من كلماتي؟!!... لما "هو" هادئٌ هكذا...!

كُنتُ أتأمَّل ما صنعتُ، أتأمَّل عملي الأوَّل على الأرض، وأتأمَّل صُنعَهُ "هو". شيءٌ ما خاطئ... شيءٌ ما ناقِصٌ بِصُنعِي. أغضب غضبًا شديدًا، أهتاجُ مما أرى. جميعُ ما صنعَ "هو" دائمًا ما كان منقوصًا... لا شيء كاملا... جميعهم بِهِم عيبٌ... أهلُ الرُّمانِ كانوا ضِعافًا، أجسامهم أضعَفُ من مخلوقي، أعينهم أضعَفُ بصرًا، يمرضونَ ويتعبون... يَموتون... مخلوقي أنا كامِلٌ... وضَعتُ فيهِ كُل الكمال... فلماذا هو مَسخٌ ذميمٌ؟!!...

ألا يُفتَرَضُ بالكامِلِ أن يكونَ جميلًا؟!...

" "...

تلك الكلمات تَحرِقُني، تَحرِقُ بَدَني... الآن يقولها لي لأنِّي خَسِرت.. وما ذنبي إن كان الطِّين سيئًا؟!!... أنا صَنَعتُ مخلوقًا كاملا لا يعيبهُ عيب... إذن العيبُ بالطين... فكرتُ بأن أصنَعَ من غيرِ الطين... لكنِّي، لا أعرفُ سواه! حاولتُ أن أصنعَ شيئًا يُشبِهُ الطين كي أصنَعَ منهُ مخلوقاتي...

صُعِقت...

وجدتُ نفسي عاجزًا...

خَارَ جسدي القوي أرضًا...

وجدتُ نفسي، رغمًا عني، أمامَ قدمَيهِ سَجَدت...

كانت أول مرة، وآخر مرة سَجَدتُ له... حتى هذهِ فعلتها مُرغمًا...

ألفَيْتُ نفسي ها هنا، في تلكَ الغُرفةِ التي لا يدخُلها سوى الضَّوءِ. بلا قُدُراتي حُبِستُ هنا، تحت قدمَيَّ الطين، أعجِنُ منهُ مهما عَجَنت... لا يتشكَّلُ الطِّيْر.

****

35

الشمسُ لا تغيبُ، الغرفة عاريةٌ من سَقفٍ يحجبُ عنها النُّور... والأصلع الطويل لا يزالُ للطِّينِ عاجِنًا، يستَمِعُ إليهِ الآسن، الذي بدا مَهمومًا. "آسنُ" الذي أثارَهُ حديثُ الرَّجُل، أخذَ يتأمَّلُ حالَه، يأمُرُهُ الصَّانِعُ بأن ينظر إلى مرآةٍ مُعَلَّقَةٍ على أحد حوائِط الغرفة. يقترب منها بِتَرَوٍّ، يرتجف

وينبِضَ القلبُ خلف الضلوع، يتوقف، يلتفت للصَّانِع لِتَجحَظ عيناهُ من الذعرِ...

وجهُ الصَّانِع بِلا عَينَين، ممسوحَتَيْنِ كأنهما لم تَكونا...

يبتسم له، سرعانَ ما تنفَرِجُ الابتسامَةُ ضَحِكًا، كاشِفَةً عن صَفَّيْنِ من الأسنانِ المُكَوَّرَةِ كالخَرَز، صغيرة، مُتزاحِمة ومُزعِجَة. يَعجِنُ الطين بِقَسوةٍ، يَصهَرهُ بينَ أصابِعِه، يقول للآسِن: "

... ...

"

حَدجَهُ "آسن" بنظرةٍ حادةٍ، يتحدَّاه، تأمَّل حال هذا الصَّانِع الذي يتحَدَّثُ عن القدرات والخوارِق، بينما هو حبيسُ الغُرفَةِ تمامًا مثله...

- أنا خائِفٌ؟!... إذن لا تعرفني، لقد تركتُ كُل شيء، فقط لأبحث عن ذاتي، لأبحث عن شيءٍ آمنتُ بِهِ... عن الألوان... التي ما رآها أحدٌ سواي..

- وما أدراك ألا أحد رآها سواك يا وجهَ النُّدوب؟

- أنا أبحَثُ عمَّا أستَحِقه...

- إذن انظر... انظر في المرآة... أنت خائِفٌ مما سترى...

- بل أنتَ الخائِف، أنتَ الضَّعيف... محبوسٌ هنا بِغُرفَةٍ بلا سَقفٍ، تدَّعي أنَّكَ صانِعٌ، ومما أراهُ، أنكَ تَعجَزُ حتى عن إحياءِ بعضِ قِطَعِ الطين، تَعجَزُ عن الهروبِ من تلك الغرفة المفتوحة...

"آسِنُ" يصرخُ، يُنادي الذي يَعلَمُ ما بَينَ الأحمرِ والأخضر. يركضُ بالغُرفَةِ الفسيحة، يناجِيهِ بِكَلِماتٍ راجيةٍ، يرجوه بأن يظهر. يسد أذنَيهِ عن حديث "الصَّانِع"... الذي لم يَتَوَقَّف عن التَّفوُّهِ بِكلماتٍ باردةٍ...

"أبناءُ الرُّمَّانِ وغيرهم، دائِمًا ما وجدتُ بِهِم تلك الثَّغَرات. جميعها ثغراتٌ وعيوبٌ يُمكِنهم إصلاحها أو تداركها... إلا واحدة... واحدة غَبية لا يلتفتونَ إليها أبدًا، يرجونها ويبحثونَ عما يَدُلّهم إليها... ثَغرةُ "الأمل". قبلَ أن يَحبِسني "هو"، وكُنتُ أعلَمُ أن هذا اليوم آتٍ، طفتُ الأكوانَ طوفًا، أبحَثُ عن الأمل تمامًا مثلهم، وددتُ لو كان الأملُ شيئًا ملموسًا... أتعرف؟... سعِدْتُ أكثر عندما أيقَنتُ أن ذاك الشيء ليسَ بِمَلموسٍ... هو فقط... يحتاجُ أن تَخلُق له داعِيًا.

كان يقول لي: "

"

ربما... ربما فقط... لم أستَطِع أن أخلُق من الطِّين... لكنِّي خلقتُ شيئًا آخر، شيئًا خالصًا، يُنسَبُ إليَّ وحدي...

خَلَقتُ حاجةَ أولئِكَ البؤساء إلى الأمل...

أبناء الرُّمان وغيرهم، يطمحونَ إلى الأفضل. يبحثونَ عن الأعلى، الأزهى، الأجمل، الأكثر خلودًا... وفي الطموحِ يا ذا العَينَينِ الحمراوَين... تبدأ الرحلة... رحلة الخروجِ من النُّورِ إلى الظلمة، رحلة تَركِ الشَمس بالأعلى، بحثًا عن نورٍ آخر... لا يَنقَطِعُ ولا يَغيبُ، مِثلَ شَمسِهِم".

"آسِن" يركضُ بالغُرفة، يصرخُ، يُنادي على الذي بَحَثَ عنهُ. يضطربُ قلبهُ، يتعرَّق، يضرِبُ الحوائِط الأربعة... بينما تَضيقُ الغُرفة عن مساحتها السابِقة.

- لن يَرُد عليك... لن يَظهَر لك... أنا فقط من يَظهَر، أنا فقط من لا يُخفِي حقيقته عنك، أقفُ أمامك صوبَ عَينَيك... أتراني أتهَرَّب؟

- اسكَت... لا أريدُ سماعَك... يا من تَعلمُ ما بَينَ الأحمَرِ والأخضر... أينَ أنت؟!!... اسكت أنت لا تتكلم!!... أنتَ حبيسٌ مثلي... لا تَملِكُ شيئًا... لا تَملِكُ أمرًا ولا نَهيًا...

يتمادى فجورُ ضحكاتِ الصَّانِع، الذي كَبَشَ بِيَدَيهِ من الطِّينِ بالأرض، يَنثُرهُ بالسماءِ لِيَسقُطَ على الآسِنِ المُرتاب... ويقول: "... ". يتلفَّت "آسن" حولهُ، يبحَثُ عن شيءٍ يمسكهُ ويَضرِبُ بِهِ ذاك الصَّانِع الذي قرأَ بالفِعلِ ما يُقدِمُ الآسِنُ عليه...

- أَتَوَدُّ أن تقتلني؟... بعدَ كُلِّ ما أخبرتُكَ به؟... إذن، لماذا لا تُجَرِّب أن تَعمَلَ من الطِّينِ سيفًا تقطَعُ بِهِ لساني؟... أو رُمحًا تَدُقُّهُ بِقلبي؟... هذا إن كانَ لي واحِد!

خَرَّ الآسِنُ على رُكبَتَيهِ، يَكبِشُ من طِينِ أرضِ الغُرفة. يُحاولُ أن يصيغَ ما بينَ يَدَيهِ سلاحًا، يتفَتَّتُ الطين الذي تبَخَر منهُ الماء، يتخَلَّل ما بَينَ أصابعِ الآسِن المُرتَعِشة، بينما يُرَدِّدُ "الصَّانِع":

" "

يصرخُ الآسِن: "اسكُت"!!!...

يُكمِلُ "الصَّانِعُ" حديثَهُ البارِد...

"ألم تَفهَم بَعد؟!... حتى إن سَكَتُّ، ما عادَ شيءٌ يَمنَعني. أتُصَدِّقُ حقًّا أنِّي حبيس؟!... أنا هُنا... لكنَّ عَمَلي على تلك الأرضِ بالخارج... مخلوقي... مصنوعِي الأول والأكمَل. ذلك الجميل البديع في القفص، عندما أطلَقتَه على حُكَّامِ الأرض، الجائعين دومًا لا يشبعون، أرضَعَهُم من ثَديَيْهِ اللّذينِ لا ينضبانِ أبدًا... فَباؤوا بالخَرابِ على بُلدانِهم. لو أرَدت أن أخلق الأمل، عليَّ أولًا أن أخلقَ الحاجة إليه... كُلُّ حاكِمٍ رَضَعَ من مخلوقِي، قامَ بِفَضيحة... الأمرُ يحتاجُ فقط إلى فضيحةٍ... فضائِح لا تنتهي، أشَعَلَتِ النار، أحرَقَت البُلدان... حتى أخفى دُخانُها ورمادُها رائِحة الشَّمس.

لا أحد يستطيعُ أن يُخفي الشَّمس، لكن يُمكِنُكَ أن تعمي عنها الأبصار. عَمَلي على الأرض حُرٌّ طليقٌ، مخلوقي الأكمل، كانَ يطوفُ بالبلاد وأنا بِتلكَ الغُرفَةِ سَجين... يبحَثُ عمن لديهِ ثأر، يَقتَصُّ ثأرَهُ بيَدَيهِ القويَّتَين... يَبحَثُ عن جائِع، يُرضِعهُ من ثَدْيِ الظلام... يبحَثُ عن جبارٍ عقيم ليسَ لديهِ ولَدٌ، يتمَنَّى وريثًا، يملِكُ مفاتِيح الأرض من بَعدِه، يَنكَحَهُ مخلوقِي الكامِل، يَجلِب لهُ "ابنَ ظلام "... وجميعهم يا هذا... جميعهم... لم يهتموا يومًا بِنَسَبِ هذا الطِّفل!

أنا حبيسٌ بتلك الغُرفة، لكنَّ عملي على تلك الأرض طليق...

تَعِبَ "آسِنُ" من الطِّين، استنفدَ سوائِلَ جَسَدِهِ من العرَقِ المُنهَمِر. استلقى يستَنِدُ إلى أحد الحوائِطِ الأربَعة، يُحَملِقُ بـ"الصَّانِع" الذي توقف عن الابتسام، ينتَظِرُ سؤال الآسِن...

- لماذا فَعَلتَ ذلك؟

- لأنَّني... أرَدتهم أن يَظَلُّوا بِحاجَةٍ إلَيَّ... تمامًا مثله "هو"... كُنتُ أحسِدهُ على ذلك الشعور... أنَّهُم دائِمًا بِحاجةٍ إليه... أنَّ الأمر دومًا ينتهي عندهُ... يفعلونَ كُل شيءٍ ثم يتذللونَ له فَيَفرَح... يَفرَحُ بِجبروتِهِ وقوَّتِه... لأنهُ "صانعهم". لكن، ألستُ أنا أيضًا صانع؟!!!... أقسَمتُ على أن أجعَلَهُم يتذللونَ إلَيَّ بدلًا منه... جَعَلتهم يُخفونَ شَمسَهم بجرائِمِهم، هم من فعلوا وليسَ أنا... والآن... يستنيرونَ بالنار، كم أعشَق تلك الرجفة بداخِلِهم عندما ترتَجِفُ نارُهُم وشعلاتهم، يَخشونَ أن تنطفئ فيَعودونَ للظلام...

وقتها...

يتذَكَّرونني، يحتاجونني..

لاحَت برأسِ الآسِنِ تلك الصُّوَر، عنِ بلدِ الرُّمَّانِ وأهلِه، عن "الأخ الحنونِ" والبيتِ الذي كان أصفر. لاحَت صوَرُ الدَّابَّةِ والقناديلِ المُلَوَّنة، الأبيضَ العظيم، النَّهرِ الذي كانَ حُلوًا... لاحت بذِهنِهِ "الشَّمس"... المروجُ الخضراء... و"شَمس"... تَضحَك... تُداعِبُ الرِّيحُ الشَّقِية جَسَدَها تحتَ قماشِ السُّندُسِ الذي ألبَسَها إياه، تَنفلِت منهُ ابتسامَة مُرهَقة.

يُصَفِّقُ "الصَّانِعُ"، نافِضًا بقايا الطِّينِ عن يَدَيه، مُنَبِّهًا الآسن. يُشيرُ بإصبَعِهِ إلى المِرآة، التي يتوجَّهُ إليها "آسِن" بِخُطى أسرع... يقول: " ..."

وقفَ أمامَ المرآةِ ينظُر، فَزِعَ مما رأى... صَرَخ. رجلٌ بالِغٌ، أعياهُ المَرَض، أتعَبَهُ السَّفَرُ والتجوال، خانَهُ البَحث والترحال. رأى رجلًا بذِراعٍ واحِدةٍ، أصابهُ الهزال، حتى شَفَّ جِلدُهُ عن العَظم، نَمَت غابةٌ من الشَّعرِ المُتَمَرِّد على ذقنِهِ، شعثاءٌ مُشَجِرةٌ أكثر من الغابة الغامِضة على أرضِ المُروج. رأى رجلا تفوحُ منهُ رائِحةٌ لا يعلمها، لكنهُ كانَ يَشُمها في قلائِل ممن قابَلهم. تأمَّل شكلَهُ الذي رآهُ للمرة الأولى منذُ أن وُجِدَ بالكهفِ، حيثُ البُحَيرة المُقَدَّسة. تأمَّل العينَينِ الحمراوَينِ، المَكسورَتَينِ، اللتَين كان كُل من قابَلهم ينادُونَهُ بِهِما...

" "

لم يَجِد فيهما جمالًا، لم يَجِد فيهما سوى الحَسْرَةِ على كُل ما رأتاهُ وأبصرتَاهُ جيدًا ولم تُحافِظا عليه...

غيمةٌ من الضَّبابِ شَوَّشَت عليهِ الرؤية، أخذَ ينفِضُ رأسهُ، تذهَبُ الغيمةُ وتَجيءُ على عَينَيهِ...

غيمةٌ من الضَّبابِ تجمَّعَت أمامَ عينَيهِ، تَحجِبُ رؤية صورتهِ في المرآة..

يَمسَحُ عينَيهِ لتتضح الرؤية... لِيَرَاهُما في المرآةِ تلمعانِ...

وسائِلٌ شفَّافٌ، ينسابُ منهما نهرٌ جارٍ، يَغسِلُ بقايا الطِّينِ على وجهِهِ، يُذيبُ قَسْوَةَ اللحيةِ الشعثاء... ذات السائِل الذي كان يتعَجَّبُ حينما يراهُ ينزِلُ من أعيُنِ من مَرُّوا بِرِحلَتِهِ...

بَكَى... لأول مرَّةٍ...

****

36

" !"

قالها الآسِنُ، الذي بَكَى حتى بَرِدَت عيناهُ منِ الدَّمعِ وابْيَضَّت، انطفأت حُمْرَتُها. ارتَجَفَت ابتسامةٌ على وجهِ "الصَّانِع" ممسوح العَينَينِ، يَتَفَقَّدُ الأملَ المُتَوَهِّج في عَينَيْ الآسِن. دَفَسَ يَدَهُ بالطِّين، يُفَتِّشُ عن شيءٍ بباطِنِه، يُخرِجُ حَجَرًا مِلءَ كَفِّهِ، يرفَعهُ أمامَ الآسِنِ...

- ذَكِّرني... لماذا كُنتَ تَبحَثُ عن الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر؟

- لأنِّي أرَدتُ أن أعرِف ما سِر تلك الألوان...

- ولماذا إذن تريدُ أن تتعلَّم قراءة المُستَقبَل ما دُمتَ قد أضَعتَ كُل هذا الوقت؟

- سابِقًا، لأنهم قالوا لي: " "، اعتقدتُ أن سر الألوان الذي لا يَعلمهُ أحدٌ هو من تلك الخبايا...

- والآن؟!

- الآنِ أنا مُنهَك... لا تَحملني قدمايَ على المُضِيِّ خطوة واحدة... لن أوَد أن أخرُجَ حتى من تلك الغرفة، كُل ما أريدُهُ الآن أن أعرف مستقبلي، نهاية رحلتي تلك!!

حَرَّكَ "الصَّانِعُ" الحَجَرَ في يَدِه، أمامَ عَينَيْ الآسِن، يسترعي انتباهَهُ...

- سأعَلِّمُك، لكنَّ الأمر أبسَط من أن تفهَم... أنتَ لَم تُصنَع لِتَفهَم، وإنما لِتَعبُد... هكذا كانَ سَيُخبِرُكَ من بَحَثتَ عنه... ولكنِّي بِالطبع لستُ مِثله... انظر... أراهِنُكَ على أيِّ شيء... أيِّ شيء... أن ذاك الحجر بِيَدي سَيَسقط بعدَ ثوانٍ...

تَوَتَّرَت قسماتُ وجهِ "آسن"، ابتلعَ رِيقَهُ، يستَعِدُّ لأعظَمِ سِرٍّ بَحَثَ عنهُ وأضاعَ عُمرًا كامِلًا في الرحلةِ إلَيه. ما هي إلا ثوانٍ، حتى تَرَكَ "الصَّانِعُ" الحجرَ يسقُطُ من يَدِهِ، ليَستَقِرَّ على الأرض...

- ولكن... ما هذا؟

- ماذا؟!... ألم أقُل لك سَيَسقُط؟

- أنتَ تَرَكتَهُ يسقط!!... ربما أكونُ مُتعبًا لكنِّي لستُ أعمى!!

قالها "آسِن"، الذي انفَجَرَ بُركانًا ثائِرًا، يصرخُ بِوَجهِ "الصَّانِع" بألا يَخدَعه. يَكبِشُ "الصانِع" من طين الأرض، يَعصرهُ بينَ أصابِعٍ من نار ليتألَّم الآسِن، يعصر أكثر فيتألَّم أكثَر، يتَلَوَّى من الوجع، بينما تجتاحُ الأعاصير وجهَ "الصَّانِع"...

- ربما لا يسَعني أن أقتُلَك، لكن يَسهُلُ علَيَّ أن أُؤلِمَك...

- أنتَ كاذِبٌ...

- كاذِبٌ؟!... في ماذا؟... قُلتُ لَك في البداية أن الأمرَ أبسَطُ من أن تَفهَمهُ!... راهَنتُك على أن الحَجَرَ سَيَسقُطُ في ثوانٍ، وسَقَط!!... أكَذِبتُ عَلَيكَ بِشَيء؟!

- ولكن... أنا لا أفهم!!

- أتَذَكَّرتَ الآن أن تُفكِّر؟... الآن؟ في تلك الغُرفة؟؟... أتَعرِفُ حتى أينَ نحنُ؟

الذُّعر على وجهِ "آسن"، شُلَّ لِسانُهُ، يبحَثُ عن مَخرَجٍ بالغُرفة. لا أسقُف بها، يركضُ نحو الحوائِط، يحاوِلُ تسلُّقها... والشَّمسُ بالأعلى ذهبِيَّة... كُلما وقعَت عيناهُ عليها دَمَعَتا. الشَّمسُ الآنَ كبيرة، قُرصٌ مُدَوَّر، أكبَرُ من عُقلةِ إصبَع، أكبَرُ من وجهِ "شمس"... "شَمس"!!... "شَمْسِي"... يتردد اسمها، ترتَسِمُ صورة وجهها الصَّبوح، عيناها الممتلئتانِ بالحُزنِ...

"..."

يبكي حَسرةً...

الشَّمسُ بالأعلى، باتت أكبَر من وجهِ شَمسِه التي تَرَكَها. لا يَذكُرُ كم من الوقتِ قد مضى، لا يَذكُرُ إن كان أحدهم قد أتاها من الغابةِ الموحِشة مرةً أخرى، آذاها، أو أنها هي من قد تكونُ حاوَلَت اللحاق بِهِ... مثلما فَعَلَ "ودود" و"رُمَّانة"...

- لا!!... لا يا شَمسي!!... إياكِ أن تكوني قد تَبِعتِني!!... لا يا شَمسي... إياكِ أن تكوني قد خَرَجتِ من أرضِ المروج!!...

عَصَفَت الأفكارُ بما تبقى له من عَقلٍ، بَكَى حتى جَفَّت آبارُهُ، بينما كان "الصَّانِعُ" يُرَدِّد...

- أشعُرُ بِك... بالطبعِ أشعُر... فأنا لديَّ مشاعِر، أنا حسَّاسٌ جدًّا... أنا فنان، أتَعلم

ذلك؟!... لا أحد يَشعُر بِفنان يُمَجِّدُ الجمال ويُبَجِّل الألوان سوى فنانٍ آخر... والفنان "صانِع"... وأنتَ يا صديقي "صانع"... تمامًا مِثلي...

- لم أعُد أريدُ شيئًا...

- أوه، أنتَ فقط مُنهَك... بالطَّبعِ تُريد...

- أريدُ شَمسًا...

تَرَكَ "الصَّانِعُ" ما بِيَدِهِ من طين...

تَوَقَّف عن الحركة، ينظر إلى "آسن" بِوَجهٍ ممسوحِ العينَين...

- شَمس؟!..

- شَمسي... تَعرِفها؟!

- أذكُر تلك الصَّبِيَّة، التي لم تَطلُب مِنِّي شيئًا بَعد. أذكُرها، خَلَقَها "هو"... وكَسَرَ القالب... كَي لا يأتي في مِثلِ روعَتِها بَعدها مَخلوق...

- شَمس... عَلِمتُ أنَّها بديعة من اللحظةِ الأولى...

- تَختَبئُ بأرضِ المروج، لم تَحتَجني بَعدُ... لكنَّها ستأتي يومًا...

وقفَ "آسِنُ" على قَدَمَيه، يصيح...

- أريدُ شَمسًا!!... لا أريدُ شيئًا سواها...

ابتَسَمَ "الصَّانِعُ" بِخُبثٍ.

تَحَرَّك من موضِعِهِ، من منتَصَفِ الغُرفة، يُقَصِّرُ المسافةَ بينهُ وبينَ الآسِن. يبتَسِم، يُشِيرُ إلى موضعِ الذراعِ اليُسرى المقطوعة، يُشيرُ بأصابِعِهِ صوبَ النُّدوبِ على جَسَدِ "آسِن"...

- يُمكنني أن أعِيدَ كُلَّ شيءٍ كما كان...

- أتُعيدُ ذراعي المقطوعة؟!..

- أي شيء

- أيُمكِنُكَ مَحْو كُل تلك النُّدوب؟!...

- لديَّ من الطِّينِ ما يَكفي لإصلاحِ أقوام... جميعهم يأتونني لأعيدَ كُل شيءٍ إلى أصلِهِ... لا تنسى أنِّي "الصَّانِع"...

- أنتَ الصَّانِع...

- أنا الصَّانِع يا فنان...

- أنتَ الصَّانِع...

ينفَرِجُ الخُبْثُ على شَفَتَيهِ...

- والصَّانِع، بالتأكيد، يَفعَلُ ذلك دونَ مُقابِل... يَكفيني فقط... أنَّكَ احتَجتَني...

- أنا أحتاجُك...

- جميل... سأعيدُك كما كُنتَ، سأمحو كَلَ خطاياك، وتلك الندوبَ القاسِية، ستَصبِحُ جميلا كما كُنت يا جميل العَينَينِ، سأعيدُ تلك الذراع التي قَطَعَها الهَمَج...

- نعم، الهَمَج...

أشرَقَت شَمسٌ جديدةٌ، على وجهِ "الصَّانِع". يُحَرِّكُ يَدَيهِ في الفراغ، يَرسمُ أشكالًا ودوائِر في الهواء... حتى صاحَ فيهِ الآسِنُ فجأةً...

- ولكن لا!!... انتظر!!... توَقَّف!... "شمس"... "شَمس" كانت تُعجِبُها تلك الندوب، لأنها، لأنها تملِكُ مثلها... لأننا نُشبِهُ بَعضنا... انتَظِر... كانت تُعجِبها ذراعي الواحِدة... لأنها تعتقد بأني هكذا لن أضربها كما فَعَلَ الذي أتاها قبلي... انتظر لا تفعَل... لو عُدتُ كما كُنت، لن تَعرِفني إن ذَهَبتُ إليها!!!

غَضِبَ "الصَّانِع"، صرخَ حتى ارتَجَّت الجُدران، حَمَت حرارةُ الغُرفة حتى بدأ الطينُ على الأرض يَجِف. قَبَضَ "الصَّانِعُ" على رَقَبَةِ الآسِن، يَخنقهُ بلا رحمةٍ، يُلقي بِجَسَدِهِ الضَّعيفِ إلى الحائِطَ، يَركُلهُ بِقَدَمَيهِ وينهالُ عليها بالضَرب، يصرخ...

- أعرِضُ عليكَ أن تعود كما كُنت وترفُض؟!!.... أيُعجِبُكَ حالُك هكذا؟!... ألم تفهم بعد؟، أنتَ على مَشارِفِ الهاوِية، ما زالَ جَسَدُكَ طينيًّا، أيُّ جرحٍ آخر سَيَترُكُ أثرًا... وأيُّ أثرٍ سَيَبقى كالباقين... سَيُغَيِّرُ شكلك...

كان "الصَّانِعُ" يضرِبُ ويَجرَح جسدَ "آسِن" بمخالِبِهِ الحادة، يُحاوِلُ أن يُغَيِّر من شَكله... والآسِنُ يقاوم... وتلك الرائِحة، التي اشتَمَّها منذُ دخولِهِ عبرَ الباب العجيب خارِج الغُرفة... الرائِحة التي يُحاولُ أن يتذَكَّر أينَ اشتَمَّها من قبل...

- تتحاذَقُ علَيَّ... أقسِمُ لَك أنِّي سأعمَلُ على جَرحِكَ حتى تتغَيَّر خلقَتُك فلا تَتَعَرَّف "شَمسُك" على ملامِحَك...!!

حرارةُ الغُرفة تزداد، صَهدٌ يَملأ الأرجاء، يَشعُرُ "آسِن" بالطِّينِ الذي كانَ لَيِّنًا تحتَ قَدَمَيهِ يزدادُ قساوةً... ينقَلِبُ حجرًا مع صهدِ الغُرفة...

يُمسِكُ بِذراعِ "الصَّانِع"، بينما الذراعُ الأخرى تَخدِشُ وتُشَوِّه بِجَسَدِه. يَركُلهُ "آسِن" بِكُل ما أوتي من قوةٍ، يُطَيِحُ بِهِ بعيدًا عنه، يبتَسِمُ، حينما ينظرُ إلى الطينِ الذي حَجَّرَتهُ الحرارة العالية حتى ما عادَت قدماهُ تَغرِزان... يُفَكِّرُ، ناظِرًا إلى ذلك "الصَّانِع" الذي بدا ضعيفًا بعدَ رَكلَتِه...

- إذن... ربما يَسهُلُ علَيَّ إيذاؤك أنا أيضًا...

- ولكن لم يتبَقَّ لك الكثير... أنت مُثيرٌ للشَّفَقة...

قالها، وجَلَسَ بِجانِبِ المِنضَدةِ بالمُنتَصَف، يتأمَّل الآسِن الذي أذهَلَهُ هدوء "الصَّانِع" وضحكَتِهِ الخبيثة، يُصَفِّقُ بِيَدَينِ دَمَوِيَّتَين، يُرَدِّد...

- أحسَنت، أحسَنت يا "آسِن"... أحسَنتَ بإضاعَةِ الوقت... هذه مُشكِلَتُك... أخبرتُكَ منذُ البداية أنِّي لا يُمكنني قَتلك، لم تُصَدِّقني... أحسَنتَ بإضاعةِ الوقت...

الأرضُ الطِّينية، حَجَّرَتها حرارةُ الغرفة الصَّهيدةِ بِغَضَبِ "الصَّانِع" البُركانِيِّ. "آسِنُ" يتأمَّل الطين المُتَحَجِّر، يتأمَّل جَسَدَهُ، يبتَسِم ساخِرًا... متألِّمًا...

- هي الحرارةُ إذن...

اشتَعَلَت ضَحِكاتُ "الصَّانِعِ" فجورًا، يُصَفِّقُ عاليًا، بينما الرائحة المألوفة تزدادُ ثِقَلًا، يَشُمُّها

"آسِن"، يُحاول أن يتذكَر أين اشتَمَّ تلك الرائِحة النَفاذة... الفوَّاحة... العَطِنة...

تلك الرائِحة التي تزدادُ نتانةً، يعرفُها منذُ زمنٍ بعيدٍ...

جَحَظَت عيناه!!...

اضطَرَبَ قلبهُ، ملأ صدرَهُ بالرائحةِ الفَوَّاحَة النَّتِنة...

صاحَ...

- المَحرَقَةِ العَظيمة!!...

****

37

السُكُون سادَ الغُرفة، الرائِحة افتُضِحَت، فاحَت، تَفَشَّى وضوحُهَا مُتَبَجِّحاً. يتلَفَّتُ "آسِن" حولَهُ، ما من أثرٍ لِمنضَدة، ما من أثرٍ لِصاحِبِ الجِلباب، "الصَّانِع". يرفَعُ رأسَهُ إلى السماءِ، إلى السَّقفِ الذي لم يَكُن موجودًا... لا شَمسَ بالأعلى!!... لا سماء... فُتحَة السَّقفِ بالأعلى، لم تَكُن مُرَبَّعة... رفعَ رأسَهُ للأعلى، يُدَقِّقُ بِبَصَرِهِ...

السَّقفُ فُتحَةٌ دائِرِيَّةٌ...

الظلامُ حولَهُ، لا يُضِيئُهُ سِوَى شُعلَةٍ بِلَهَبٍ مُرتَعِش...

الغُرفَةُ الفَسيحةُ، ذاتُ الأربَعة حوائِط...

أمسَتْ دائِرِيَّة...

اضطرَبَ قَلبهُ، اغرَورَقَت عيناهُ بِدموعٍ حارَّةٍ. يبحَثُ حولهُ عن البابِ الذي دَخَلَ منهُ..

لا باب...

يُمسِك بالشُّعلةِ التي كانت من العِظامِ، مَغروزةً بِحائِط البِئرِ الدَّائِرِي. يُحاوِلُ رَفعَ ذراعَه اليُسرى...

لا ذِراعَ يُسرى!!...

يُمسِك الشُّعلة باليُمنى، يبكي ويَبحَث بالضَّوءِ عن مخرج، يستوقِفهُ ذاك الشَّيء المُلقى على الأرضِ، تفوحُ منهُ رائحةٌ عَفِنةٌ...

يُقَرِّبُ إليهِ الشعلة، رائِحةٌ عَفِنةٌ، رائِحةُ لَحمٍ نَيِّئ مُتَعَفِّنٍ... رائِحةُ...

ذِراعٍ مَبتورةٍ، يَرقُدُ بِجانِبِها سِيفٌ اختَلَطَت الدماءُ على نَصلِهِ بالصَّدأ...

ارتَجَفَ جَسَدُهُ، سَرَت برودَةٌ بأوصالِهِ، ارتمى على الأرضِ ينكَمِشُ حولَ نَفسِهِ... يبكي كما لم يَبكِ من قبل. ينظُرُ للأعلى من جديدٍ، إلى حيثُ فُتحَةِ البِئرِ الدائِرية... وضوءُ الشُعلةِ الكبيرة النَّارِي، الذي يتسَلَّلُ عبرها...

ينظُر إلى تلك الدائِرة التي تُشبِهُ الشَّمس...

حمراء وصفراء الوَهَج...

يَمُد إليها يَدَهُ اليُمنى ويَبكي...

- آااهٍ يا شمسي... ليتَني بَقيتَ مَعكِ، على أرضِ المروج... ليتني ما فارَقتكِ يا حَبيبَتي... الظلامُ هنا يَقتُلني، لا يسمَحُ لِعَينَيَّ النَّارِيَّتَينِ أنْ تَرَيا سواكِ... الظلامُ هُنا يُهلِكني ويُزهِقُ روحي... اكتَفَيتُ منهُ يا شَمسي... اِكتَفَيتُ من رائحةِ العَفَنِ يا حبيبتي، أشتاقُ لاستنشاقِ عِطرِ ليلِكِ المُمَوَّجِ، الذي ينسابُ بِرِقَّةٍ على وجهي حينَ أقبِّلُكِ... أشتاقُ لِرائحةِ الشَّمسِ يا حبيبَتي...

يَتطَهَّرُ بالبُكاءِ، ناظرًا إلى سَمائِهِ، التي ما كانَت سوى فُتحَةِ بِئرٍ دائريةٍ، تملأُ فَراغَها نارُ شُعلةٍ كبيرةٍ، شَكَّلَت شَمسًا. يتحَسَّس النُّدوبَ على جَسَدِهِ، يتأمَّلُ السُّلَّمَ الذي كانَ قد صَنَعَهُ للصُّعودِ من البئرِ. يَمسَح دَمعَهُ، يتمالَكُ نَفسَهُ، يَضطَرِبُ قلبُهُ أكثر من كُلِّ مرَّةٍ... حينما يتذكَّر شَمسَهُ...

- إن كانَت النَّار هي ما سَتَأخُذني إلَيكِ، فَلِيَكُن...

تَسَلَّق السُّلَّم، يُجاهِدُ الطُّلوعَ بِذراعٍ واحِدةٍ. تَقتَرِبُ الفُتحَةُ أكثَر... تَكبُر الدائِرةُ الوَهَّاجةُ أكثر...

- الآن تقتربين يا شَمسي... الآن أذهَبُ إلَيكِ...

يَصِلُ إلى قِمَّةِ البِئرِ، حيثُ كُلُّ شيءٍ ساكِنٌ، إلا من رياحٍ تشتاقُ إلى مُغَامَرَةٍ ما في ذلك المكانِ الكئيبِ، تَعبَثُ بالشُّعلةِ المُعَلَّقَة، تُراقِصُ نيرانَها العَظيمة...

تتراقَصُ الشُّعلةُ على الجَنبَينِ، تَدلو بأضواءِ نيرانِها الحمراءِ والصفراءِ هُنا وهناك، تَغسِلُ بُقَعَ الظَّلامِ العَنيدة، التي أبَت أن تُغادِرَ القاعةَ الفسيحة والمَحرَقَة العظيمة منذُ زَمَن...

وصوتٌ أخذَ يتعالى بالخارج...

" ... ...
..."!!

أصواتُ أهلِ البَلدةِ تتزايَد، يتجَمهَرونَ في كُل مرَّةٍ أسرَع من التي تسبقُها. يتهافتونَ بحماسٍ على رؤيةِ الزائِرِ الجديد الذي قَرَّرَ تقديمَ العرضِ اليوم. يركضُ الآسِن حتى تتقطَّع أنفاسُهُ، يَتَسَلَّقُ الجِسر بذِراعٍ واحدةٍ، يَسقُط حتى كاد أن يَستَسلِم. المُهَرِّجونَ بالأسفلِ يُلاحِظونَ سَأمَ الجماهير الذين بدأوا يفقدونَ صبرَهُم على ذلك الزَّائرِ ذي الذراعِ الواحِدة، يتسَلَّق ويَسقُط. عندما حانَت تلك اللحظة، التي قرر بها "آسِنُ" الاستسلام... دَفَعَ إلَيه المُهَرِّجون بِسُلَّمٍ خَشَبِيٍّ عظيمِ الطُّول، وضعوهُ مُلاصِقًا للجِسرِ الواصِلِ بينَ المِنَصَّةِ وفوَّهةِ المَحرَقَة...

ينظرُونَ إلَيهِ من الأسفَل، يضحكونَ بِخُبثٍ ويُرَدِّدون:

" ... ...
"!!

يبتَسِمُ الآسِنُ ساخِرًا...

يتسَلَّق السُّلَّم، يَقِفُ على أوَّلِ الجِسرِ، يتأمَّل الصَّهدَ المُتَصَاعِد من طَريقِهِ الوحيد للخلاص، طريقهِ الوحيد للذهابِ إلى شَمسِهِ...

يُلقِي نظرةً أخيرةً على أولئك القوم، يرفَعُ يَدَهُ مُحَيِّيًا إياهُم. يبتَسِم لهم، يتحَدَّثُ إلَيهِم بصوتٍ لم يَسمَعوهُ من الهتاف...

- أنا أشفِقُ عَلَيكُم... جميعكم... مكاني لَيسَ هُنا، وسطَ مَخلوقاتٍ ضَعيفةٍ، مَعيبةٍ... أنا فنان... والفنَّان "صانِع"... أنا آتٍ إليكِ يا شَمسي...

يركضُ بأقصى سُرعةٍ، تقتربُ النَّارُ منه، يَشعُرُ بالصَّهدِ يَقترب، يَنشَرِحُ صَدرُهُ....

يَنقضَ عَليهِ أحدهم..!!

- انتظر!!... ماذا تَفعَل يا مَجنون؟!!...

- مَن أنت؟!!

- أفَقَدتَ عقلك؟!!... تُريدُ أن ترمي بِنَفسِكَ في مَحرَقَة؟!

كانَ قويَّ الجَسَد، عريض المِنكَبينِ، خاليًا من النُّدوبِ والجروح... صوتهُ بدا حنونًا، رقيقًا، مُتَرَدِّدًا...

تأمَّلَهُ "آسِن" طويلًا، والنَّاسُ بالأسفَل يَهتفون..

- دعهُ يَقفِز... أتينا لِنُشاهِد... دَعهُ يُنهي العَرض!!...

كانَ يَنظرُ لِـ"آسِن" كأنَّهُ يَعرِفهُ، عينانِ حَمراوَانِ... وجَسَدٌ أبيَض حليبي، لم يَزَل بَعدُ مُحتَفِظًا بِلَمَعانِهِ...

- من أنت؟!!...

- لا أعرف!!... لقد... أتوا بي إلى هُنا، قُلتُ لهم إنِّي رأيتُ عِجلًا طائِرًا، كانَ ذَهَبِيَّ اللونِ... استَمَعوا إليَّ في البِداية... لكِنَّهُم قالوا... إن أمثالي يَجِبُ أن يُقتَلوا... لكنَّهُم وَضَعوني هنا... أتُصَدِّق؟!... قالوا لي: "عيناكَ الحمراوَان سَتُلائِمانِ المَحرَقَةَ والنَّار"...

- أرجوك دعني... دعني أذهَب...

- كَيفَ أدَعك؟!... أأنتَ مَجنون؟!... انظر، هُم يَهتِفونَ لَك، يطلبونَ ألا تَقفِز... ألا تَسمَع؟!...

- أنتَ لا تَفهَم شيئًا... أرجوك... أتوَسَّلُ إلَيكَ اتركني...

- ولكن... لماذا؟!...

- الألوان لم تَكُن كما ظَنَنت!!...

- عن أيِّ ألوانٍ تتكَلَّم؟!

- أتوَسَّلُ إلَيكَ اتركني... لقد بَحَثتُ عن الذي يَعلَمُ ما بَينَ الأحمرِ والأخضَر... فما وَجَدت أحمر ولا أخضَر... ولكنِّي... ولكِنِّي...

- ماذا؟

- وَجَدت "شَمسي"... جَسَدي يَتَغَيَّر، أرجوك اتركني... اتركني ألحَق "شَمسي" قبلَ فواتِ الأوان...

كلماتُ الأسِن صَعَقَت ذاك الأبيَضِ الجَديد، أخذَ يتأمَّل قَسَماتِ وجهِهِ المُرهَق، المُتَوَسِّلِ إلَيه. أحدهم بالأسفَلِ، أمسَكَ حَجرًا أبيَض، قَذَفَهُ نحوَ الاثنَينِ بالأعلى... أصابَ الأبيَض، بِأوَّلِ جرحٍ، سَيَنقَلِبُ لِأوَّلِ نُدبَة...

أفلَتَ الأبيَضُ "آسِنَ" من بينِ يَدَيه، ليركُضَ الأخيرُ مُبتَهِجًا، مُبتَعِدًا عن الأبيض، مُقتَرِبًا من فُوَّهَةِ المَحرَقة، ترتَسِمُ على وجهِهِ شَمسٌ تُنيرُ ما بَينَ أحمَرِهِ وأخضَرِه.

يَقِفُ على الحافَّةِ السَّاخِنة، يلفَحهُ الصَّهدُ من الأسفَل...

يلتَفِتَ التفاتَة أخيرة، نحوَ الأبيَضِ الجديدِ، ذي العَينَينِ الجَمِيلتَينِ... ويَبتَسِم...

- شُكرًا لك...

****

...

أبي وأمي، أهديكما إبداعِي الرَّابِع، وما زِلتُ لم أوفِيكُما حَقَّ قَدْرِكما...

إلى أبٍ وعَمٍّ غَير الأب والعَم... الصَّديقَيْنِ الرائِعَيْنِ، المُبدِعَيْنِ عن حَق... "محمد علي إبراهيم" و"مصطفى جُوهَر"... أعلَم أن اختزال الشُّكْرِ بِكَلِمةٍ واحِدة لن يوفيكُما حقَّكُما... ولكِنِي أثِقُ بِصِدقِها... هذا العَمَل هو شُكرِي الحقيقي على ما عَلَّمتُمانِي إياه... " ... "

أخيرًا... إلى كُل شمسٍ... بِبَلدَتِنا... تَبَسَّمَت لِتُربَةٍ آسِنةٍ... فأنبَتَت قَلبًا..

نبذة عن الكاتِب:

مُحمد ناجي عبد الله عبد العال...

طبيب وجرَّاح الفَم والأسنان..

كاتبٌ، له ثلاثة أعمال منشورة... رواية "قاب قوسَينِ من الياسمين" عن دار نهضة مِصر، رواية "مَهيب الرُّكن"، كتاب ساخِر "أشيَك واد ف شبرا"... ومجموعة قَصَصِيَّة تحت الطَّبْعِ "اسمي بُلبُل"...

فنانٌ تَشكِيلي، شارَك بالعديد من المعارِض الجماعِيَّة، له معارِض فرديَّة...

مصوِّر فوتوجرافي محترفٌ، شارَك بالعَديد من المعارِض والمسابقات داخل وخارج مصر، له معارِض فردية...

موسِيقي بِدار الأوبرا سابِقًا، عازِفٌ لآلَتَي الجيتار والكمانجة...